دراسات

الدين والدولة

في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لعلي بن ربّن الطبري

تحقيق ودراسة

خالد محمد عبده

كتابُ الدِّين والدّولةِ

في إثباتِ نبُوةِ محمّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم

لعليّ بن ربَّن الطّبري

تحقيق ودراسة: خالد محمد عبده

كتابُ الدِّين والدّولةِ

في إثباتِ نُبُوةِ محمّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم

تحقيق ودراسة: خالد محمد عبده

(باحث من مصر)

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24398889 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

لوحة الغلاف للتشكيلي: أحمد المنذري

تصميم الغلاف : أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 432 / 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد.

فيعد الجدل الديني فرعًا رئيسًا وبارزًا في علم الكلام الإسلامي، بل إن كثيرًا من الدارسين عدّوه علمًا مستقلًّا بذاته له من المناهج والأدوات ما يفصله عن الجدل الفرقيّ ومسائل الكلام من إلهيات وسمعيات ونحوها.

وبروز هذا النوع من الكلام يعتبره الكثيرون مظهرًا حضاريًا تفوّق به الإسلام والمسلمون على غيرهم في لحظة اهتمامهم به على نحو منهجي موضوعي، ففي حين محاكمة المخالف للرأي العام أو للرأي المعتمد بالتضييق عليه أو إقصائه أو إعدامه، كان يُسمح للمخالف وهو في موضع «صغار» أن يكتب ويناقش ويجادل في شأن الدين الغالب، وفي حضرة الخليفة ذاته وعلى مرأى ومسمع من الجماهير.

طبيعيٌ أن يحدث ذلك في ظلِّ الإسلام، فقد دخل كثيرون من العرب والأعاجم في الدين الجديد، وكانوا لا يزالون يحتفظون بكثير من ميراثهم السابق، منهم من كان على اليهودية أو المسيحية أو غيرها من الأديان التي كانت موجودة آنذاك، وقد تفاعل المسلمون مع هؤلاء جميعهم بشكل ملحوظ، سواء بالالتفات حولهم للتعرف على ما كان لديهم من مواريث

ومعارف كتابية، بدا أثرها واضحًا في القصّ والحكايات التي سجلتها كتب الأدب والتواريخ؛ أو كان اعتماد المسلم عليهم سواء في بلاط الخلافة والأمور الإدارية أو في بيت العلم والحكمة للاستعانة بهم على ترجمة معارف الأمم.

في ظل هذا الاحتكاك كان هناك حوار مستمر في كل شؤون الحياة، وخاصة الشأن الديني، إضافة إلى ذلك أحدث الإسلام باتساع بساطه وانتشاره في بقاع الأرض المختلفة دويًّا هائلا آنئذ -ولا يزال- وكان بمثابة المفزع للدولة المسيحية، وعلى الرغم من تصويره بأنه محض هرطقة مسيحية أو بدعة لن تعكّر صفو المسيحية، إلاّ أن هجمات علماء اللاهوت، بل والعلماء في الفروع العلمية الأخرى بدأت تتدفق بشكل كبير على الإسلام وأهله.

ويُعدّ من أقدم الآثار الشاهدة على المعارك الكلامية التي دارت في ظل الحضارة الإسلامية -إن لم يكن أقدمها- كتاب يوحنا الدمشقي «النزاع بين النصارى والسراكنة[1]» أو «المناظرة بين ساركاني ومسيحي»، وقد اعتبر يوحنا النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم في أثره الدفاعي هذا منشقًّا أكثر منه مؤسسًا لديانة جديدة، واتهمه بأنه أريوسي وأن قرآنه مجرد كلمات من وحي أحلام اليقظة[2].

وإن أقدم أثر مقطوع بنسبته وصلنا كدفاع من الجانب الإسلامي، كتبه

1: السراكنة «Saracen» تُستخدم اللفظة للدلالة على العرب والمسلمين باعتبارهم كفاراً، أولئك الذين أبعدتهم سارة باحتقار، وقد استخدمه يوحنا الدمشقي بغرض العيب في الآخر، ويعتبره البعض مصطلحًا مشتقًّا من اسم "سارة" (زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام) أو هو مأخوذ عن العربيّة "الشرقيين" انظر: أليكسي جورافسكي "الإسلام والمسيحية" ص 71 ترجمة خلف محمد الجراد "عالم المعرفة 215" ط الكويت 1996 م. وانظر أيضًا: طارق منصور "المسلمون في الفكر المسيحي - العصر الوسيط"، ص 19 ط مصر العربية للنشر والتوزيع 2008.

2: انظر: نبيه أمين فارس «دراسات عربية» ص 29 ط 1 دار العلم للملايين، بيروت 1957.

عليّ ابن ربّن الطبري، تحت عنوان: «الدين والدولة في إثبات نبوة مُحمد» وقد ألّفه في بلاط الخليفة العباسي المتوكل، بأمرٍ منه وبمساعدته كما نصّ على ذلك، وكتابه في نقد المسيحية «الرّدّ على النصارى» الذي توجّه به إلى نصارى عصره مجادلاً إياهم.

ثمة مواصفات عدّة تجعل من عليّ الطبري شخصية بارزة في حقل الدرس المقارن للأديان، والجدل الإسلامي المسيحي بصفة خاصة، منها: أنه من بناة هذا الصرح المعرفي، فهو ممن مهّدوا الطريق لمن أتوا بعده، إذ كانوا على أثره متابعين، وأغلبهم - إن لم يكن جميعهم- من مؤلفاته ملتمس لمنهجه، متكئ على طريقته في المساءلة والطرح، متابعٌ له[3]، وإن تطوّرت الرؤى بحسب مستجدات العصور اللاحقة وعلّت حدة الخلاف، فتحولت النصائح إلى فضائح، والكلمة السواء إلى مفحمات وقاطعات، يظل الطبري حاضرًا.

فالطبري خبيرٌ بما يكتب، فهو من المهتدين إلى الإسلام بعد مُكث في المسيحية سبعين عامًا، ولم يكن مسيحيًا من العوام، بل كانت نشأته في بيت علم، فوالده مهتم بالطب يترجم ويؤلف وعالم بالطبيعيات والإنجيل، وعمّه كان مجادلاً لأهل الأديان، وخاصة دين الإسلام، مكّنه ذلك من الاطلاع بشكل وافر على مصادر الديانة المسيحية، وخبرَ أمور الجدال، ولأنه كان طالبًا للحق فقد مكث وقتًا ليس بالقليل يطلّع ويقارن بين الكتب الدينية،

3: يتضحُ ذلك من خلال المقارنة بين ما كتبه ابن ربّن الطبري في نقد العقائد المسيحية وما كتبه كُلّ من العامري في «الإعلام»، والحسن بن أيوب في «رسالته»، والقاضي عبد الجبار الهمذاني في «تثبيت دلائل النبوة»، ونصر بن يحيى المتطبب في «النصيحة»، وابن ظفر الصقلي في «خير البِشر»، والجعفري في «تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل»، والقرافي في «الأجوبة الفاخرة»، والهاروني في «إثبات نبوة النبي».

والمؤلفات التي تعرض للأديان وتدافع عنها، وتساجل غيرها وتجادلها، إلى أن اهتدى إلى ما وجد فيه راحته وأذهب عن عقله إزعاج السؤال.

لم تكمن أهمية مؤلفات الطبري في قدمها فحسب، بل لمباشرتها الإشكالات المثارة آنئذ، ولسدّها ثغرًا كان يحتاج إلى هذا اللون من التأليف، ولتجنبها عيوب التصانيف السابقة عليه في هذا الحقل، ولكونها كانت بمثابة الأساس والركن الذي قام عليه الجدل الإسلامي المسيحي، مما يجعلنا في اطمئنان إلى اعتباره رائدًا من رواد علم مقارنة الأديان في الإسلام.

على الرغم من ذلك، لم يحظ الطبري بمزيد عناية من الدارسين، وغفلته كتب التراجم إلا من نزر يسير، ترددت في تصنيفه أو طرحه، فمرة يظهر في التاريخ في ثوب أحد الكُتّاب، ومرة يظهر بتأليفه كتابًا هامًا في الطب العربي، ومرة يظهر كأديب وصاحب حكمة وأمثال، لكنه لم يبرز مطلقًا عندهم كمتكلّم اشتغل بالجدل الديني ورسّخ بطريقته ونقاشه قواعد الكتابة والمناقشة في هذا الفن وقد دفعتنا هذه العوامل إلى اتخاذ جهوده محلاً لهذا البحث.

جهود علي بن ربّن الطبري في الدراسات السابقة:

لقد حظي الطبري على مستوى الدرس الغربي باهتمام كبير، وخاصة كتابه «الدين والدولة في إثبات نبوة محمد» فقد كان أول من عرّف به ونشره المستشرق الأب ألفونس منغانا (Mingana Alphonse 1881-1937) وترجمه إلى الإنجليزية عام 1922 ميلادية، تحت عنوان : "The book of religion and empire A semi-official defence and exposition of Islam"، وطبعه في مطبعة المقتطف بمصر في مجلد يحتوي على 144 صفحة، بعد

أن كتب عنه عام 1920م ودافع عن نسبته إلى عليّ بن ربّن الطبري في مقال لاحق عام 1925م.

ثم اهتّم به كلٌّ من الدكتور محمد زبير الصديقي عند نشره لكتاب عليّ في الطّب «فردوس الحكمة» سنة 1928م، وفيبي (H. Guppy)، ومرجليوث(Margoliouth)، وفريتش (Fritsch) وغير واحدٍ من المستشرقين.

واهتم بالطعن في نسبته إلى الطبري بشكل خاص الأب بويج (Bouyges.P.M) فقد أرسل برسالة إلى مدير مكتبة جون ريلاندز بمانشستر، والتي طبع فيها منغانا المستشرق كتاب "الدين والدولة" في العام 1924 م تحت عنوان :"كتاب الدين والدولة الذي نشره وترجمه منغانا أهو الأصل"، ثم تلاها برسالة أخرى بعنوان:"كتاب الدين والدولة ليس هو الأصل" الرسالة الثانية إلى مدير المكتبة، ثم مقالة تالية بعنوان "علي بن ربّن الطبري والإسلام" و "ما نعرفه عن الطبري" نُشرت في (منوعات جامعة القديس يوسف 1949 - 50)، وفي كل هذه الكتابات يقطع الأب بويج بعدم صحة نسبة الكتاب إلى الطبري ويعتبر أنه لمؤلف حديث وغير مسلم ولا يؤيده في هذا الرأي إلا الأب إغناطيوس عبده خليفة وزميله غليوم كوتش في دراستهما لكتاب الرد على النصارى، ولكن أغلب حججه غير مقنعة في الحقيقة وفيها قدر كبير من التعسف.

ولقد انتقل الاهتمام من الغرب إلى الشرق بإعادة طبع كتاب "الدين والدولة" عن نشرة "منغانا" على يدّ عادل نويهض في دار الآفاق ببيروت عام 1973م، وإن كان اهتمامًا ليس على الصورة المرجوة، إذ على الرغم من تخصيص الناشر لما يقرب من 30 صفحة للتقديم لهذا الكتاب النادر في بابه،

إلا أنه اكتفى بالترجمة لعليّ الطبري فحسب، وما ترجمته سوى نقلٍ بتصرفٍ من مقدمة الدكتور محمد زبير الصديقي لكتاب الطبري في الطب "فردوس الحكمة" ونقلين نصّيين عن أهمية الطبري كعالم من كتاب الأستاذ محمد كرد علي "كنوز الأجداد"، وفصل للدكتور سامي حداد: "مؤلفات العرب ومصنفاتهم" منقول عن مجلة العروة، عدد تموز عام 1936م، وتعدّ المزيّة الوحيدة لهذه النشرة توفير نسخة من كتاب الطبري للدارسين، ذلك أن نسخة "منغانا" أصبحت نادرة .

وفي العام 1986م حقق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي كتاب نصر بن يحيى المهتدي [4] "النصيحة الإيمانية في فضيحة الملّة النصرانية" وخصّص في مقدمته للكتاب حديثًا عن المهتدين إلى الإسلام وكتاباتهم الجدلية وقيمتها العلمية، فتحدث عن كتاب ابن ربّن الطبري كمصدر أساسي من مصادر نصر بن يحيى، واصفًا إياه بأنه «سفرٌ عظيم القيمة» وعلى الرغم من صغر حجم كتاب «النصيحة» إلا أن مؤلفه لخّص فصلاً كاملاً منه في كتابه، هو فصل البشارات فضلاً عن الاقتباسات الأخرى التي أفاد فيها من ابن ربّن من خلال اطلاعه على كتابه «الرد على النصارى».

كما اعتبر الدكتور الشرقاوي أن القاضي عبد الجبار المعتزلي[5] مدينٌ

4: نصر بن يحيى المتطبب، كان نصرانيًا فأسلم، ورجّح محقق كتابه « النصيحة» أنه قد توفى في البصرة سنة 589 هـ.

5: هو قاضي القضاة عماد الدين أبو الحسن عبدالجبار بن عبدالجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسدآبادي، القاضي والأصولي، وُلد في أسد آباد من أعمال همذان بفارس حوالي سنة 324 هـ، وتوفى في حدود سنة 414 هـ، يقع ترتيبه في الطبقة الحادية عشرة من طبقات المعتزلة، وكان شيخ المعتزلة في عصره، وله مصنفات كثيرة، من أشهرها: تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد (ط) والمغني في أبواب التوحيد والعدل (ط) راجع ابن المرتضي: طبقات المعتزلة، ص 113، ط بيروت 1961. وانظر مقدمة الدكتور عبد الكريم عثمان لكتاب «شرح الأصول الخمسة» ط مصر 1965، ودراسته المعنونة « قاضي القضاة عبدالجبار»، ط بيروت 1967.

«في جداله الرائع البارع للنصارى» للطبري في كتابه «تثبيت دلائل النبوة» وكتاب «المغني-الجزء الخامس» فقد أخذ عن «الدين والدولة» وعن كتاب «الرد على النصارى» وقد خصص صفحتين لإثبات ذلك في مقدمته، مدققًا في تنسيب كتاب الطبري الأخير؛ إذ لم يكن مشهورًا آنئذٍ وجود كتاب «الرد على النصارى».

وكما يعود الفضل لأستاذنا الشرقاوي في اهتمام الباحثين بجهود المهتدين إلى الإسلام وكتاباتهم، خاصة الدارسين العرب، كان ما كتبه حافزًا لي على البحث عن أثر عليّ الطبري السابق، الذي كان يعدُّ لفترة قريبة في عداد المفقودات.

وفي العام 1987م كتب الدكتور أبو اليزيد العجمي عن «فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد» وخصص فقرات للحديث عن عليّ الطبري وكتابه في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وصف فيها الكتاب بأنه «كتاب ليس واسع الانتشار حتى بين أهل التخصص؛ لأن صاحبه لم يحظ بتسليط الأضواء عليه» وتحدث عن شخص الطبري وإشكالية تحديد تاريخ مولده، وتاريخ حياته كلّها، إذا لا نظفر سوى بتخمينات لا نملك معها إلا الترجيح في رسم ملامح هذه الشخصية.

ثم تحدث عن كتابه السابق «خطّة الكتاب واضحة في ذهن مؤلفه تمامًا، فموضوعه: إثبات نبوة محمّد صلى الله عليه وسلم ردًّا على من أنكرها من أهل الكتاب وغيرهم، وهو يوضح ملامح منهجه في المعالجة، ثم يذكر الموضوعات التي احتواها كتابه هذا، انطلاقًا من فهمه لموضوعه، وتطبيقًا لمنهجه الذي أشار إليه «كما يشير إلى إدراك ابن ربّن لموضوعه من خلال

تقسيمه لمباحث كتابه، وتقريره بعد رسمه لخطة كتابه معالجة هذه المباحث غير مقتصرٍ في معالجتها على ما في الإسلام من نصوصٍ تشهد لما يدرسه، فبحكم معرفته وخبره بالكتب الأخرى سيضيف أدلة عقلية ونصّية من خلال كتب غير المسلمين، ويركّز بصفة خاصة على كتب النصارى.

ويواصل الدكتور العجمي حديثه عن البواعث والمنهاج وتطبيق ذلك في كتاب الطبري قائلاً: "يلاحظ الدارس لهذا الكتاب أن مؤلفه طبّق منهجه في المعالجة ونقد الأخبار وتفنيد الأدلة، فهو قد بدأ بعد مقدمة هامة في مناقشة النصارى فيما يقدمونه من أدلة تكذيبهم بنبينا، ويأخذ الطبري في تفنيد هذه الأدلة واحدة واحدة بما يثبت علمه الجيّد بالنصرانية وكثيرًا ما كان يبين لهم حرصه على هدايتهم كما اهتدى هو إلى طريق الخير ويناديهم: يا بني عمي؛ لكنه في بعض المعالجات يُمسك عن التعليق أو التفسير [...] على أن السمة الغالبة في الاستدلال عند الطبري هي الجمع بين العقل والنقل".

ويناقش الدكتور العجمي ما يقوله الدكتور عبد الكريم عثمان في مقدمة تحقيقه لكتاب القاضي عبد الجبار «تثبيت دلائل النبوة» [المطبوع في العام 1966م ببيروت] من أن كتاب القاضي «هو الأول من نوعه في موضوعه، ولا نعلم بين ما وقع في أيدينا ما يفوقه أو يصل إلى مرتبته» ولا يوافقه على ذلك اعتمادًا على وجود كتاب الطبري العظيم في بابه.

وفي العام 1996م صدرت دراسة الدكتور محمد عبد الله السحيم «مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية» والتي كانت في أصلها رسالة دكتوراه مقدّمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة والإعلام في العام 1993م، تحت إشراف الدكتور زاهر عواض

الألمعي. وقد خصص في الفصل الثاني من كتابه، مبحثًا مستقلاً لدراسة الطبري وآثاره العلمية (157- 190) قسمه إلى مطالب أربعة: المطلب الأول [157-162] «نسبه ومولده ونشأته» تناول فيه ترجمة الطبري مناقشًا إشكالية تحديد تاريخ مولده، معتمدًا على كلٍّ من «الدكتور زبير الصديقي، والدكتور عبد المجيد الشرفي، وعادل نويهض»، ومراجعًا للمعلومات الواردة عنه في كتب التواريخ والتراجم.

وفي المطلب الثاني «البيئة التي نشأ بها» [162- 164] تحدث على نحو مختصر عن دخول كثيرين في دين الإسلام في ظل عصر الخلافة العباسية، ومنهم الطبري.

وفي المطلب الثالث «دوافع إسلام الطبري» [165-172] التمس مما كتبه الطبري معينًا له للتعرف على هذه الدوافع، مستخرجًا أربعة دوافع لإسلامه، خاتمًا بذكر مؤلفات الطبري ما وصلنا منها وما لم تصلنا .

ثم ختم بالمطلب الرابع «القيمة العلمية لكتاب الدين والدولة» [172-190] وهو ما أسهب الحديث فيه، معتمدًا على الدكتور الشرفي، من خلال إشاراته في «الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى» والدكتور الشرقاوي في حديثه عن قيمة كتاب «النصيحة» لنصر بن يحيى -وإن لم يصرّح بذلك- محللاً ما جاء في كتاب «الدين والدولة» خاتمًا بوقفة مع الكتاب يشير فيها إلى وصوله مؤلفات عليّ الطبري إلينا ناقصة .

هذا أقصى ما وصلت إليه في تتبع جهود الطبري في دراسات السابقين، باستثناء دراسة الدكتور عبد المجيد الشرفي "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي" التي صدرت

عام 1986م عن الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، وقد كانت في أصلها رسالته للدكتوراه التي قدمها لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية في العام 1982م، وكانت تحت إشراف الأستاذ محمد الطالبي، فإن هذه الدراسة كانت بمثابة الدليل لي في كثير من الإشكالات والقضايا التي أُثيرت حول عليّ الطبري ومؤلفاته ومباحثه في الجدل والدفاع، بما أوضحته وبيّنته، فقد خصص الدكتور الشرفي في دراسته حديثًا مطولاً عن الطبري ومؤلفيه في «مقارنة الأديان» (135-128) إضافة إلى اهتمامه بنصوص عليّ الطبري في الردّ على النصارى، والبشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة الإنجيل .

بناءً على ما تقدم فإنّ بحث عليّ الطبري وجهوده وتحقيق مؤلفاته يلبّي حاجة الدرس المقارن والحوار الإسلامي المسيحي في أصوله الأولى، وهنا تكمن أهمية تناوله بالدراسة ونشرُ مؤلفاته القيّمة للقرّاء والدارسين.

الفصل الأول:

علي بن ربن الطبري

حياته وآثاره العلمية

المبحث الأول:
حياة علي بن ربّن الطبري

يتناول هذا المبحث حياة عليّ بن ربّن الطبري من ثلاثة جوانب:

أولاً: الجانب الشخصي:

ويشتمل هذا الجانب على: اسمه، ونسبه، ولقبه، وكنيته، ومولده، ووفاته.

اسمه: علي بن سهل بن ربن الطبري[6].

نسبته: أجمع المؤرخون وأصحاب كتب التراجم والطبقات، على أنّ عليّ بن سهل ينتسب إلى طبرستان التي نشأ بها، وعلى هذا تكون نسبته "الطبري" صحيحة.

6: انظر ترجمته في: «الأعلام» للزركلي 228/4 ط دار العلم بيروت، «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان 681،682/2 (النشرة العربية) ط الهيئة المصرية العامة القاهرة، «تاريخ حكماء الإسلام» للبيهقي 231 ط دمشق، تاريخ الطبري 9/86 ط2 دار المعارف، تاريخ طبرستان لابن إسفنديار ص 140، ترجمة أحمد نادي ط المجلس الأعلى للثقافة 2002، تاج العروس للزبيدي 35/ 72، 73 ط دار الهداية مصر، «حكماء الإسلام» لابن القفطي 231 نشرة بغداد، «سير أعلام النبلاء» للذهبي 145/14 ط بيروت، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة 414/1 ط بيروت، «الفهرست» لابن النديم 354 ط طهران، «كنوز الأجداد» لـ محمد كرد على 71 – 73 ط دمشق، «المخطوطات العربية» لشيخو 148، 149، «مجلة الآداب الشرقية» جامعة القديس يوسف ببيروت، مقال عنه بالفرنسية ص 115- 118 الجزء 35 لسنة 1959، «مجلة العروة» مقال د. سامي حداد في عدد تموز لسنة 1936، ذكرها برمتها، عادل نويهض في نشرته للدين والدولة ص 28-30 ط دار الآفاق بيروت سنة 1973، مروج الذهب «للمسعودي» 239/4 ط بيروت، «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة 106/7 ط دمشق، «هدية العارفين» للبغدادي 669 ط بيروت، «وفيات الأعيان» لابن خلكان 159/5 ط بيروت، «الوافي بالوفيات» للصفدي 151/21 ط دار صادر بيروت.

لقبه: لُقّبَ علي بن سهل بلقبين:

أولهما: المهتدي[7]، وذلك نسبة إلى اهتدائه إلى الدين الإسلامي، فقد جرت العادة على أن من يدخل دين الإسلام من كبار النصارى أو اليهود، يطلق عليه هذا اللقب.

ثانيهما: مولى أمير المؤمنين، ولقبه به الخليفة العباسي المتوكل على الله، نظرًا لقربه منه، وجعله من جملة ندمائه[8].

كنيته: ذكرت المصادر[9] كنية واحدة لعلي بن سهل، وهي : أبو الحسن، وقد اشتهر بها، كما يذكر أصحاب كتب الطبقات .

مولده ووفاته: ربما لا تسعفنا المعلومات الواردة في كتب التراجم والطبقات، في تحديد السنة التي ولد فيها على الطبري، حيث إن كتابا منهم

7: ذُكر لقب المهتدي، في الصفحة الأولى من «الرد على النصارى» مخطوط شهيد باشا علي باستنبول رقم 1628.

8: هذا اجتهادٌ من د. محمد زبير الصديقي في إعادته لبناء سيرة علي بن ربن الطبري [راجع مقدمته لفردوس الحكمة ص: (ط)]، معتمدًا على معلومات التاريخ التي تذكر أن المتوكل أدخل الطبري في «جملة ندمائه» [راجع الصفدي «الوافي بالوفيات» 21/ 151 ط صادر بيروت]، لفظ المولى، ينصرف معناه اللغوي إلى: (العتيق، والمعتق، وابن العم، والناصر، والجار، والحليف) ويُمكن تفسيره في حالة استعماله كلقبٍ فخريٍّ بأنّ الصلة بين صاحب اللقب وبين أميرالمؤمنين، تُشْبه المُعتِق والمعتَق من حيث الاعتراف بجميل العِتقِ والاحتياج إلى المساعدة والانتصار [راجع د.حسن الباشا «الألقاب الإسلامية فى التاريخ و الوثائق و الآثار» ص208 ط القاهرة 1975م]، وهو ما كان قائمًا بين ابن ربّن الطبري والمتوكل، وأشار إليه الطبري في أكثر من موضع [راجع الدين والدولة ص 35، نشرة نويهض] ويُعدّ لقب «مولى أمير المؤمنين» من أوائل الألقاب المضافة إلى لقب «أمير المؤمنين» يؤكد ذلك د. سعيد مغاوري ويشير إلى وروده بصفة عامة في بردية مؤرخة بين عامي 177-178 هـ [انظر الألقاب وأسماء الحِرف والوظائف في ضوء البرديات العربية 144/1 ط دار الكتب المصرية 2000م].

9: انظر « تاريخ الأدب العربي « لبروكلمان 681/2.

لم يهتم بتاريخ مولده، سوى ما استنتجه (بروكلمان) في تاريخه، إلا أنّا بتعقب كلام الطبري نفسه، الذي أورده في كتبه - الموجودة بين أيدينا - نجده قد أشار إشارات بسيطة إلى فترات زمنية معينة في حياته، يمكننا من خلالها أن نستلهم تاريخ ميلاده التقريبي.

نص الطبري في كتابه "الرد على النصارى" أنه أسلم بعد سن السبعين، حيث قال : "إني إنما تركت دين النصرانية الذي كنت عليه من أول عمري إلى أن بلغت من العمر سبعين سنة ورغبت في دين الإسلام الحنيف "[10].

كما أن عليّاً الطبري أشار إلى حادثة تاريخية شاهدها في حياته، وذلك في كتابه "فردوس الحكمة"، فقال إنه رأي بطبرستان نارًا ارتفعت من اليمن ومرت إلى الجربياء شبه أسطوانة غليظة طويلة، فلم يلبث ملك جبالها أن اضطرب أمره وأزعج عن جباله وبلاده، ثم عاد إليها بعد هولٍ قاساه، ونقضٍ دخل عليه في ملكه .

ويرجح الدكتور صديقي أن هذه الحادثة تتعلق بما حدث بين (ونداد هرمز) ملك طبرستان آنذاك، وموسى ابن الخليفة المهدي الذي كان على رأس الجيش المرسل إلى طبرستان، فقام بمحاصرتها وهزم ونداد هرمز، وكان ذلك في سنة 167 هـ / 847 م [11]. نستطيع أن نرجح بعد الحساب التقريبي لهذه الأمور أن على الطبري ولد في حدود سنة 155 هـ / 770 م .

وفاته: ويستمر عليّ بن ربن الطبري في عطائه حتى سنة 240 هـ، وهي

10 : انظر «الرد على النصارى» ورقة 2.

11 : انظر «فردوس الحكمة في الطب» ص 518، 519، بعناية د.محمد زبير الصديقي، نشرة ألمانيا، سنة 1928.

تلك السنة التي دوّن فيها كتابه الخاص بتثبيت دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وترجّح لدينا أنه ألفه في هذه السنة اعتمادًا على ما ذكره التاريخ في فترة خلافة المتوكل، حيث جرى التعصب من قبل هذا الخليفة تجاه النصارى، وكان هذا في حدود سنة 235هـ وهي السنة التي ألف فيها الجاحظ كتابه "الرد على النصارى" تلبية لنداء وزير المتوكل آنذاك[12]، وبالطبع ألف علي بن ربن الطبري رسالة في هذه السنة، خاصة وأنه كان من ندماء المتوكل، والملقب منه بـ (مولى أمير المؤمنين).

وإذا كان في أواخر خلافة المتوكل لا نجد ذكراً لأطباء سوى بختيشوع وابن الأبرش وإسرائيل بن زكريا الطيفوري، ولم نجد ذكراً للطبري وهو الطبيب المشهور آنذاك بتأليفه (فردوس الحكمة) فيمكن أن تكون منيته وافته آنئذ وذلك في حدود سنة 247هـ / 861 م، أو ما بعدها.

ثانيًا: الجانب العائلي:

لعل ما أوردته في (الجانب الشخصي) لحياة على بن سهل بن ربن الطبري، يمهد للقول بندرة المعلومات التاريخية عن أسرة عليّ، إلا أن ذلك لا يعني انعدامها تمامًا فقد أورد ابن القفطي وابن أبي أصيبعة [13] معلومة مهمة نستطيع من خلالها إبراز صورة الأب.

فهو أبو علي: سهل الطبري، المشهور بربن، طبيب منجم من أهل

12: انظر كتاب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ «... واعكف على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجّل به إليّ وكن ممن حدا به على نفسه، لتنال مشاهرتك» عند ياقوت «معجم الأدباء» 5/ 2114 نشرة إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م.

13: انظر «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة 414/1، «حكماء الإسلام» لابن القفطي ص 231 .

طبرستان، وكان بالإضافة إلى علمه بالطب، حكيما، عالمًا بالهندسة وأنواع الرياضة، قام بترجمة كثير من الكتب عن اللغات اليونانية والسريانية والعبرانية، وكان له تقدم في معرفة الأديان وكتبها.

ومما يذكر عن براعته وطول باعه في العلوم الطبيعية: أن أبا معشر الفلكي سئل عن مطارح الشعاع، فذكرها وساق الحديث، إلى أن قال:

"إن المترجمين لنسخ المجسطي المخرجة من لغة اليونان، ما ذكروا الشعاع ولا مطارحه، ولا يوجد ذلك إلا في النسخة التي ترجمها سهل الطبري".

ولم يكن أبو علي الطبري هو المتميز الوحيد في عائلة ابن ربّن بل برز آخر وهو: عمه يحيى بن النعمان أبو ذكار، كان مشهورًا بالجدل بارعًا فيه، ومعروفًا في أفق العراق وخراسان، ألّف كتابًا في الرد على أهل الأديان، وكان يقول : بأن البلاغات ليست من آيات النبوة، لأنها من مشتركات الأمم، وكان يعني بذلك في المقام الأول: القدح في القيمة الإعجازية للقرآن الكريم، ولقد تكفل الطبري في كتابه: الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بمناقشة رأيه هذا [14].

ثالثًا : الجانب الثقافي:

تنبئنا المعلومات الواردة في تاريخ العصر العباسي عن الدور السياسي لعلي الطبري، فقد كان كاتبا للمازيار بن قاران، الذي كان دوره في لعبة الحكم السيطرة على طبرستان، ونبذ الولاء لخلافة المعتصم، وثار عليه، وقد ظل عليّ الطبري مع المازيار حتى عندما واجهه الجيش المبعوث من قِبل الخليفة، وقال لأحمد بن الصقير: الضياع للملك لا لكم، وهو بذلك يقر

14: انظر علي الطبري «الدين والدولة في إثبات نبوة محمد» ص 124، 125.

المازيار على ابتزازه لهؤلاء القوم [15].

لكنّا لا نعثر على معلومة أساسية تبرز لنا الجانب الثقافي في حياة عليّ الطبري، وذلك على الرغم من تردد اسمه في الحقول الثقافية حتى القرن التاسع الهجري، إلا أنّا إذا راجعنا ما ورد في الجانب العائلي، إلى جانب المعلومات المبعثرة (القليلة) في التراث العربي، يمكننا أن نرسم صورة تقريبية لثقافة الرجل.

15: راجع «تاريخ الطبري» 86/9 ط 2 المعارف، القاهرة.

المبحث الثاني:
آثاره العلمية لعلي بن ربن الطبري

لقد حَبا الله عليًا بأبيه سهل الطبري، وقد كان ذا تقدم وبراعة في علوم الأديان، كما أسلفنا، حتى لقبه أقرانه ورجال عصره بـ(الربن) وكلمة:(الربن، والربين، والراب) أسماء تطلق على من له تقدّم في علوم الدين وعطاء معرفيٌّ في ذلك الحقل، ولا شك في أن أبا علي بهذه الصفة أورث ابنه معارف كثيرة أهلته فيما بعد لجدال اليهود والنصارى، وإذا انضاف إلى هذه النقطة، ما ورد على لسان عليّ نفسه عن عمه أبي ذكار، الذي ألف كتابًا في الرد على أهل الأديان، استطعنا أن نقف على ملمح مهمّ في تشكيل البنية الجدلية عند علي بن ربن الطبري.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان أبو عليّ عالمًا بالطب، فقد ترجم نسخة المجسطي عن لغته الأصلية، التي نالت إعجاب الكثيرين، من أمثال أبي معشر الفلكي، وهو الأمر الذي يؤكد تناول عليٍّ لهذا العلم من خلال أبيه، إضافة إلى إبراز الجانب المعرفي عند عليّ في معرفته للّغات المختلفة من يونانية وسريانية وعبرانية[16].

لكن يحق لنا في هذا الموضع أن نتساءل عن إحجام المصادر عن ذكر

16: يشار في المراجع الحديثة إلى أن الطرق المُتبعة لكي يصبح المرء طبيبًا عند العرب، أن يولد لأب طبيب يحرص على نقل علمه لأولاده، انظر بهذا الشأن: «فجر العلم الحديث» ص 8، 19، توبي هف، ترجمة: محمد عصفور سلسلة عالم المعرفة عدد 260.

شيء عن قيمة هذا العَلَم (علي الطبري) فإذا كان عليّ من الأطباء المتقدمين في الحضارة العربية ومن المترجمين المبرزين، ومن المجادلين البارعين، أفلا يُعدّ هذا الصمتُ إجحافًا به وإزراءً لمكانته العلمية؟

وماذا يعني سكوت ابن جرير الطبري الذي تتلمذ على عليّ بن ربن، وقرأ عليه كتابه في الطب (فردوس الحكمة)[17]؟!

هناك علامات استفهام كثيرة في حياة الرجل، لكن شيئًا من المعلومات التاريخية لا يسعفنا في الإجابة عليها، لكننا على أية حال سنحاول استقراء المعلومات المتناثرة، لعلها توضح شيئًا في حياة الرجل العلمية، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (علي بن ربن الطبري الكاتب الأديب):

ظهر علي بن ربن في التاريخ الإسلامي في بداية أمره، ككاتب للمازيار بن قاران الذي تولى أمور طبرستان بلدة عليّ الأصلية، وكان قريبًا من بلاط الرجل، وهو الأمر الذي أكسبه معرفة عميقة بأمور الحكم والسياسة، وساعده على أن يكون قريبًا من الأحداث، لكن ما يعنينا هنا هو صنعته الكُتبية، هل كان مبرّزًا فيها أم شأنه مثل غيره من الكتاب، الذين طُرحوا أرضًا من قِبل الجاحظ، الذي خط رسالة في ذمهم؟

الحقيقة أن عليًا كان ذا خلفية ثقافية عالية، مفطورًا عليها، حيث أثّرت

17: ذكر ياقوت في معجم الأدباء، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري رواية تؤكد اهتمام الطبري المفسّر بكتاب فردوس الحكمة، أما الأولى: فعن أبي بكر بن كامل، قال: «جئت إلى أبي جعفر قبل المغرب ومعي ابني أبو رفاعة وهو شديد العلة فوجدت تحت مصلاه «كتاب فردوس الحكمة» لعلي بن ربن الطبري سماعًا له، فمددت يدي لأنظره فأخذه ودفعه إلى الجارية « راجع ص 2446 ترجمة رقم 1010 نشرة إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي 1993.

الأسرة التي شب في رحابها فيه، ومما يدل على مكانته في علوم الكتابة والخط، ما أورده ابن عبد ربه الأندلسي على لسان إبراهيم الشيباني، حيث قال:

"ولست أجد لحسن الخط حدًّا أقف عليه أكثر من قول عليّ بن ربن النصراني الكاتب، فإني سألته واستوصفته الخط، فقال: أُعلمك الخط في كلمة واحدة، فقلت له: تفضل بذلك، فقال: لا تكتب حرفًا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف، وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره حتى تعجز عنه ثم تنتقل إلى ما بعده، وإياك والنقط والشكل في كتابك، إلا أن تمر بالحرف المُعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه، فإني سمعت سعيد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب يقول: لأن يُشْكِل الحرفُ على القارئ أحبُّ إليّ من أن يعاب الكتاب بالشكل، وكان المأمون يقول: إياكم والشُّونيز في كتبكم، يعني النقط والإعجام. ومن ذلك أن يصلح الكاتب آلته التي لا بد منها، وأداته التي لا تتم صناعته إلا بها، مثل دواته فلينعم ربَّها وإصلاحها، وليتخير من أنابيب القصب أقله عُقدًا وأكثره لحمًا وأصلبه قشرًا وأعدله استواء، ويجعل لقرطاسه سكينًا حادًا لتكون عونًا له على بري أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصبة، واعلم أن محل القلم من الكاتب كمحل الرمح من الفارس" [18].

ويكشف النص عن بلاغة ابن ربن التعبيرية، وعن شغفه بطلب للمعرفة، واحتكاكه بالكُتاب، واهتمامه بالأدب، إلى جانب معرفته باللغات المختلفة؛

18: راجع «العقد الفريد» 172/4، 173 نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1940.

فقد أورد قول المأمون، الذي يشتمل على كلمة فارسية وهي: (الشونيز)[19] وتعني: الحبّة السوداء، وفسرها ابن ربن بحسب استعمالها الدلالي، وسيأتي ما يشير إلى تمكن الطبري من اللغات غير العربية .

ولعل علي بن ربن في هذه الفترة، والتي كان يتكسب فيها بصنعة الكتابة، قد قام بتأليف كتابه في (الأمثال والأدب على مذاهب الفرس والروم والعرب)، وهو كتاب لم يصلنا حتى الآن، ولم يشر إليه أحد من القدماء، سوى ابن النديم في فهرسته، ولعله يكون نافعًا ومهمًّا في الكشف عن مكانة الرجل في علوم العربية وآدابها، لكن نتفًا بسيطة من أقواله ومأثوراته، كانت محل تناقل في الأدب العربي، لكنها لا تعدو بضع جُملٍ، منها:

(السلامة غاية كل سول - طول التجارب زيادة في العقل - التكلف يورث الخسارة - شر القول ما نقض بعضه بعضا - الطبيب الجاهل مستحث الموت)

وكان يقول:

19 : الشونيز «Nigella sativa» عُرِف النبات بدلالة بذوره فتسمى الحبة السوداء، ويُسمّى بالاسم الذي ذكره الطبري في بلاد فارس، ومن أسمائه الشائعة الأخرى: حبة البركة، الكمون الأسود/ الأكحل، القزحة، شونياز، الكلونجي، منجزال، الفقاح الأسود، شينيز، سانوج، سينوج، شهنيز، كمون برّي، قطحة. وقد ورد ذكره في التوراة: "إن الشونيز لا يدرس بالنورج ولا تدار بكرة العجلة على الكمون بل بالقضيب يخبط الشونيز والكمون بالعصا «سفر أشعياء 28/ 27. وورد ذكره في السُنَّة المطهَّرة، فيخبر

أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (في الحبَّة السوداء شفاء من كل داء، إلا السامّ). قال ابن شهاب: والسام الموت، والحبَّة السوداء: الشونيز. رواه البخاري رقم الحديث 5364. راجع: مظفر أحمد الموصلي "نباتات طبّية ذكرتها الكُتبُ السماوية" ص 101، 102 ط دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل - العراق، سنة 2007م.

(عليك بأربعة، واجتنب ثلاثة : عليك بالدسم والحلاوة والحمام والطيب. واجتنب ثلاثة: الغبار والدخان والنتن)[20].

هذا أقصى ما وصلت إليه يدي من أقوال ومأثورات الطبري الأدبية، وهي مجموعة بسيطة، لا أستطيع من خلالها تبيان أسلوبه الأدبي، ولعل ما ظهر من آثاره الأخرى يقفنا على مكانته العلمية .

المرحلة الثانية: (عليٌّ الطبيب):

ظهر على بن ربن الطبري في هذه المرحلة طبيبًا مبرّزًا، وربما كانت المرحلة الثانية في حياة الرجل الثقافية هي: الطب، وقد اشتهر به[21] واتبع فيه خطى والده الذي قام بتعليمه، فلم يكن مذهبه فيه التمدّح والاكتساب، بل التأله والاحتساب، وهو الأمر الذي أصقله علميًّا في هذه الصناعة، وجعل كتابه الذي دونه فيه من أعظم الكتب.

صنف عليّ بن ربن في الطب كُنَّاشَه "فردوس الحكمة" ولم يزل هذا الكتاب مبجلاً حتى بعد وفاته بكثير، حتى أن أشهر المؤرخين محمد بن جرير الطبري كان يطالعه وهو مريض قد لازم الفراش، ولام الناس الصاحب بن عباد لتفضيله كتابه على فردوس الحكمة[22]، وحسبك من فضله أن أبا بكر الرازي قد اقتبس منه الكثير، والبيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة)، والمسعودي في مروج الذهب، وياقوت في معجمه، وابن اسفنديار في تاريخ

20: انظر الثعالبي «اللطف واللطائف» ص 71.

21: كما ورد عند كل من: الذهبي، وابن خلكان، وابن أبي أصيبعة، والقفطي، والمسعودي، وياقوت الحموي، والبيروني، وابن حجر، والتوحيدي، والنويري، والصفدي.

22: راجع «الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدي 58/1 نشرة أحمد أمين، وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939.

طبرستان، وابن البيطار في جامع المفردات، وأبو المؤيد البلخي في عجائب الأشياء، والدميري في حياة الحيوان، والنويري في نهايته، وغيرهم قد اقتبسوا منه، واستشهدوا به في مواضع شتى[23].

ويعتبر (فردوس الحكمة) أقدم مؤلَّف جامع لفنون الطب - فيما بلغنا من كتب طب العرب- وقد رام عليّ في تأليفه: أن يحتذي في تناول الفنون الطبية وجمعها حذو منطق أرسطو ويبني عليه كتابه.

يقول د. محمد زبير الصديقي عن فردوس الحكمة:

(وقد أتى المصنف في مقالة منه على كليات الطب الهندي ومعالجاته من كتب شركا (Charaka) وسسرتا (Susruta) وندانا (Nidana) وأشتا نقهردي (Ashtangahradaya) مراعيًا في ذلك جانب الإيجاز.

ولذلك يسع لي أن أقول فيه: إن هذا الكتاب وحيد في أدب الطب العربي لا يشق غباره، ولا يثنى عنانه، بل ولا يدرك شأوه، ولا يتصل بعجاج قدمه)[24].

ومع كل هذا العلو في قدر ابن ربن، فإن تأليفه في الطب لم يخل من المآخذ، فقد سرى الضعف في تأليفه فردوس الحكمة، وظهر الخلل فيه من جهات شتى:

فتارة تارة يصوّب الأدعية والرقي في معالجة الأمراض، وتارة أخرى يذكر إصابة العين والطلسمات، ومرة يخالف الأوهام والعقائد الباطلة، ثم يتشبث بها ويؤيدها، فمن هذه الأطوار المتضادة والأساليب المختلفة يتراءى أنه

23: راجع مُقدمة محمد زبير الصديقي لـ« فردوس الحكمة» ص (ب، يد، يه).

24: السابق نفسه ص (يج).

يخالف مثل ذلك طبعًا، ولكنه لم يجترئ على تكذيبه والرد عليه جهارًا.

نعم يعتبر ذلك من المآخذ على ابن ربن في تأليفه إلاّ أن د. صديقي أغفل نقطة هامة، وهي مجاراة ابن ربن لمنهج التأليف الشائع في عصره، وإذعانه لروح المرحلة التاريخية التي أظلته، مع الأخذ في الاعتبار عدم جرح المعتقدات لدى العامة، إذ إنهم يؤمنون بذلك كله، ومن المعلوم أن الجرأة والحرية التامة لم تكن متوافرة إلا في قليل من المجتهدين آنذاك، إضافة إلى أن العصر كان عصرًا انتقاليًا، فقد سبقته فتنة خلق القرآن، وتمّ إعلان المذهب السُني في عصر المتوكل مذهبًا رسميًا يحظر الخروج عليه، وحدث ثبات نسبيّ على كلمة المجموع، فلم يكن لعلي بن ربن من الجرأة أن يخالف المجموع حتى ولو بدا كلامه ركيكًا لا يصمد أمام الحقائق العلمية، وخاصة أن ابن ربن كان من المستأمنين لدى المعتصم، ومن موالي أمير المؤمنين المتوكل، والعامل النفسي كان له أثر كبير في تصانيفه ؛ لأنه يريد أن يوطد مكانته في بلاط الخليفة ويثبت له ولاءه التام، خاصة ولا سيّما أنه انضم إلى المازيار بن قاران في خروجه على المعتصم.

ومما يؤكد لنا عدم موافقة ابن ربن على ما يخالف القناعات العلمية الصحيحة، ذلك النقد الذي وجهه للكُتاب في فردوس الحكمة، إضافة إلى النقد المماثل للكتابات في المجالات الأخرى، في كتابه "الدين والدولة".

لقد كان ابن ربن دقيقًا للغاية في مؤلفه هذا، حيث راعى فيما اقتبس من مصنفات المتقدمين عليه والمعاصرين له أداء صحة المفهوم الذي رامه المصنف من غير أن يمسه تحريف،وقد قابل الدكتور صديقي كثيرًا من الاقتباسات في فردوس الحكمة بأصل الكتب المقتبس منها أو ترجماتها

فوجد أغلبها متطابقًا في المفاهيم[25]، كما أن ابن ربن قد استشهد في كتابه بما رأى أو سمع من الروايات، وهذا يعنى محاولته للجمع بن الجانبين النظري والعملي.

المرحلة الثالثة: (مؤلفًا في علم الأديان المقارن):

في هذه المرحلة يتحول الجهد المعرفي عند ابن ربن الطبري، إلى مسار آخر، وهو التأليف في علم الأديان المقارن، ففي سنة 239هـ / 854 م قام بكتابة رسالته الأولى في "الرد على النصارى" ثم شفعها برسالة أخرى في "الرد على اليهود" ولم تمض سوى سنة واحدة، حتّى ألّف كتابه في تثبيت دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهنا لا بد أن يتساءل المرء: ما الذي حدا بالكاتب الطبيب (ابن ربن) إلى أن يغيّر وجهته الثقافية، ليخوض غمار حقلٍ وعرٍ كهذا[26]؟!

والحقُّ أن تحوّل علي بن ربن الطبري إلى الكتابة في مجال علم الأديان كان تحولاً طبيعيًا لا غرابة فيه، فقد جاء تلبية لروح العصر الذي عاش فيه، وأخص بالذكر فترة تولي المتوكل[27] دَسْت السلطة، فقد أعلنت الدولة

25: انظر السابق نفسه ص (يب).

26: يذكر ابن النديم في «الفهرست» أن «أول من دخل بلاد ما وراء النهر من غير السمنية من الأديان المنانية، وكان السبب فيه أن مانى لما قتله كسرى وصلبه وحرم على أهل مملكته الجدل في الدين، جعل يقتل أصحاب مانى في أي موضع وجدهم، فلم يزالوا يهربون منه إلى أن عبروا نهر بلخ ودخلوا في مملكة خان فكانوا عنده -وخان بلسانهم لقب يلقبون به ملوك الترك- فلما نزل المنانية بما وراء النهر إلى أن انتثر أمر الفرس وقوي أمر العرب فعادوا إلى هذه البلاد وسيما في فتنة الفرس وفي أيام ملوك بني أمية «[انظر ص 400، نشرة رضا تجدد، طهران 1971].

27: انظر «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ص 265 وما بعدها، إذ يذكر حوارات للمتوكل جرت مع النصارى المبرزين ساعتها، من أمثال حنين بن إسحاق، والجاثليق القيم على أمر النصارى.[نشرة نزار رضا، دار ومكتبة الحياة، بيروت].

خصومتها للنصارى، وتمّ التشديد عليهم، وتضييق الخناق، وألزمتهم الدولة اصطناع الأمارات الخاصة بهم، بأن يلبسوا ثيابًا مميزة عسلية اللون، ومنعهم من ركوب الخيل والبرازين، والاقتصاد على ركوب البغال والحمير بركب الخشب والسروج ذات الأكر، كما أمر بأن يضعوا على أبوابهم خشبًا فيها صور الشياطين[28].

وشهدت هذه الفترة تحوّل عدد كبيرٍ من النصارى إلى الإسلام، فإلى تلك الفترة يعود إسلام نفر من الكتاب النساطرة الذين ترقى بعضهم إلى رتبة الوزارة، ومنهم: عيسى بن فرحان شاه، وأحمد بن إسرائيل الأنباري[29].

وقد كان علي بن ربن حديث عهد بالإسلام، مستأمنًا من قبل المعتصم، فلماذا لا ينصرف إلى التأليف في الردّ على النصارى وإظهار محاسن دين الإسلام، خاصة وأن غيره قد سبقه إلى ذلك، كمثل ما فعل الجاحظ في رسالته الشهيرة، ولم يجد عليّ مؤلفًا يمتدحه في الرد عليهم، فوصمهم جميعًا بالتقصير:

"فإن منهم من قصر وبتر وأدغم حجته ولم يفسر، ومنهم من احتج على أهل الكتاب بالشعر، وبما لم يعرفوه من كتبهم، ومنهم من حشا دفتي كتابه بمخاطبة المسلمين دون المشركين، ثم ترجم حججه بأوعر كلام وأبعده من الأفهام»[30].

28: راجع (جان موريس فييه) مرجع سابق ص 146.

29: راجع «الكامل في التاريخ» 98/6 ط دار الكتب العلمية، وجان موريس فييه «أحوال النصارى في خلافة بني العباس» ص 142.

= وقارن طه الحاجري في كتابه عن «الجاحظ» حيث قرن بين إعلان الدولة خصومتها للنصارى في أيام المتوكل، والثورة التي قادها البطارقة في أطراف الدولة من جهة بلاد الروم..، واستأنس بقول الجاحظ (كتاب الحيوان 28/4) في الكلام على بعض رؤساء النصارى: «وفي حكمهم أن من أعان المسلمين على الروم يُقتل، وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يقتلوه».

30: انظر «الدين والدولة في إثبات نبوة محمد « ص 34.

فيعكف عليٌّ في صومعته ليخرج لنا رسالته الأولى " في الرد على النصارى "وقد تميزت هذه الرسالة بـ :

السهولة والوضوح وعدم الغموض، وعرض الكلام ومقابلته بالفكرة عند الآخر، ومراجعته قبل إخراجه إلى حيز الواقع العملي، إلى جانب العدل والإنصاف، واعتماد الدلائل والبراهين، حتى لا يكون الكلام خاليًا من الحجة العقلية والأمور المنطقية، متحاشيًا بذلك عيوب التصانيف قبله .

وتتوالى أعماله الخاصة بجدال النصارى، فيصدر كتابه الأكبر (الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم)، وقد ظهرت فيه عبقريته وقدرته على الجدال، والتحليل، والمقارنة، والتأصيل، فقد قدم فيه نقدًا للمؤلفات الصادرة قبله، ثم وضع أسسًا للتأليف في هذا العلم، قام بالتزامها في مؤلفه - إلى حدٍّ كبير- ومما يدل على نظرته التأصيلية تلك المقدمة الرائعة التي خطها في (وجوه الخبر والإجماع والدلائل على تصحيح الأخبار)[31]، وينفرد الطبري بها، كما تفرد بذكر الدلائل العشر لنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كما تفرد أيضًا بذكر هذا الكم الهائل من البشارات بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الواردة في التوراة والإنجيل.

وتُعدّ كتاباتُ عليّ الطبريّ هذه من أقدم ما وصلنا في حقل الدرس الديني المقارن، وهنا تكمن قيمة من قيمها إذ تعد من الأصول الأولى في التراث الإسلامي، وإضافة إلى تلك المؤلفات التي أشار إليها عليّ، تصبح لدينا ثروة معرفية من التآليف الدينية المقارنة، التي تعكس صورة من صور الحوار الديني، والذي يعكس بدوره سماحة الإسلام، ويُلقي ضوءًا كاشفًا على الحرية

31: السابق نفسه، ص 36-46.

الفكرية، والانفتاح العقلي آنذاك، إذ لم تكن التآليف من الجانب الإسلامي فقط؛ بل هبّ النصارى للرد على المسلمين أيضًا، فصدرت مدونات كثيرة، مثل ما جرى من يوحنا الدمشقي في حواراته مع المسلمين[32]، وما كتبه أسقف حران أبو قرة[33].

أيضًا من الجوانب المهمّة في تآليف عليّ الطبري: اعتماد كثير من العلماء المسلمين عليها، وعلى مدار ستة قرون متتالية، مما يشير إلى أهميته المعرفية في هذا الحقل، وعطائه المتجدد الذي تمثّل في تأسيسه لمنهاج الكتابة في موضوعات شتى، يظهر هذا بوضوح في معالجته لمسألة البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، فقد اعتمد عليه أغلب من كتبوا في هذا الموضوع، وثمة مؤلفات كثيرة تلت الطبري بيد أنها لم تخرج في القضايا التي أثارتها عن تلك التي طرقها الطبري باستثناء بعض المسائل المستحدثة، التي أملتها ظروف كل عصر.

فنجد الحسن بن أيوب (ت 378 هـ) يصب جُلّ رسالة عليّ في الرد على النصارى في رسالته، ولم يخرج عن معانيها سوى في حديثه عن مسألة الأقانيم، كما نجد الأمر نفسه عند نصر بن يحيى المتطيب في "النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية" ويمتد الأمر حتى القرنين السادس

32: انظر: لويس غارديه، وجورج قنواتي «فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية» 36/2 ترجمة: صبحي الصالح وفريد جبر، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.

33: ثاودورس أبو قرة، المعلومات الموثقة بشأن حياته قليلة جدًا بحيث لا تمكننا من معرفة ترجمته بشكل جيد، ويُرجح أنه عاش في القرن التاسع الميلادي، والتقى بيوحنا الدمشقي، وترك خلفه مجموعة من المقالات، نُشرت تحت عنوان: «ميامر ثاودورس أبي قرة [أقدم تأليف عربي نصراني]» وعني بنشرها قسطنطين الباشا، بيروت، مطبعة الفوائد (1904)م.ثم أعيد طبعها أكثر من مرة في نشرات مختلفة بشكل كامل، ومفرّقة في الدوريات المختصّة كمجلة المشرق ببيروت.

والسابع فنجد أبا البقاء الجعفري، والذي نال مختصر كتابه "تخجيل من حرف الإنجيل" ذيوعًا وشهرة كبيرة، قد صبّ كتاب علي بن ربن في كتابه المشار إليه آنفًا ولم يزد عليه سوى بعض المقدمات والشروح، وقد اعتمد ابن تيمية على الجعفري وعلى الحسن بن أيوب وعلى غيرهم من مسلمة أهل الكتاب، والذين اعتمدوا في الأصل على ابن ربن الطبري، مما يؤكد أهمية هذا الرجل ودراساته. وإذا اتضح ذلك في حياة عليّ بن ربن الطبري العلمية، بقي أن نتساءل ما نصيب عليّ من المؤلفات التي تؤكد هذا التفوق العلمي؟ وللإجابة على هذا التساؤل نعرض لبعض مؤلفاته:

مؤلفاته:

خلف علي بن ربن الطبري وراءه تراثًا علميًّا قيّمًا، وأن لم يكن ضخمًا من حيث الكمّ، إلا أنه مهمٌ من حيث القدر والأثر، وتنقسم مؤلفاته إلى قسمين:

ما وصلنا من تراثه في الطب[34]:

أ - كتاب (حفظ الصحة):

ويُقال: إنه اعتمد في هذا الكتاب على مرجعية يونانية وهندية، وقال عنه (مايرهوف): إنه يساوي كتاب اللؤلؤة، وقد خصصه ابن ربن للحديث عن علم الصحة ولا يزال هذا الكتاب مخطوطًا في آيا صوفيا بتركيا تحت رقم (3724، 2366).

34: اهتمّ بتراث علي الطبري في المجال الطبي وكتب عنه دراسات بهذا الشأن كل من: رشتر، ماكس مايرهوف، يوسف شاخت، دورتيه تيس، راجع: عبد الرحمن بدوي «دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب» ص 23، ط1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1981.

ب - كتاب فردوس الحكمة:

ويحتوي هذا الكتاب على سبعة أنواع، مقسمة على ثلاثين مقالة، تحتوي على ثلاثمائة وستين بابًا، جمع فيه المؤلف فنون الطب أخذ عن تيوفرسطس، وديمقراطيس، ومغنس الحمصي، والإسكندر الفيلسوف، والإسكندر الطواف، وارساجانيس، واصطفن، وأفلاطون، وإيكزومينوس، وفيثاغورث، وأبقراط، وجالينوس، وغيرهم.

ومن الطب العربي أخذ عن : يوحنا ماسويه وحنين بن إسحاق، وعلى بن عيسى وغيرهم، وكان يشير غالبًا إلى المصادر التي أخذ عنها.

وقد ظلت مخطوطات هذا الكتاب حبيسة الأرفف في برلين (6257)، والمتحف البريطاني أول (445)، وآيا صوفيا (4857)، دون تحقيق، حتى لفت النظر إليها العلامة (جي- بروان) عندما ظفر بالنسخة الكائنة في بريطانيا، في أثناء تحقيقه في علم الطب العربي، فوقعت هذه النسخة من قلبه بمكان مكين فأخذ عكسها الفوتوغرافي كاملاً في (276) مائتين وست وسبعين صفحة، ثم قرأه بإمعان تام، وعلق على حواشيه نبذًا من فوائده، وأجلى عن العزم بتصحيحه وطبعه ونقله إلى اللغة الإنجليزية، وقد نقل نحو عشرين صفحة إليها، لكنه لم يتم العمل.

ثم آل العمل فيه إلى تلميذه: محمد زبير صديقي، فقام بمقابلة النسخة البريطانية بالنسختين الكائنتين في مكتبة غوتا بألمانيا، ومكتبة برلين، والنسخة الكائنة في الهند، ثم طبع الكتاب في ألمانيا سنة 1928 م.

في علم مقارنة الأديان:

أ- الدين الدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ويمثل هذا الكتاب أقدم أثر وصلنا من تراث هذا العلم، كما يُعدُّ من أكثر التآليف العلمية الإسلامية طرقًا لموضوعات شتى في حقل الدرس المقارن، تأصيلاً ودراسة، وقد حظي هذا الكتاب بعناية كبيرة لدى طائفة من الباحثين، والمستشرقين منهم بالخصوص، فقد ترجمه منغانا[35] إلى الإنجليزية، ثم نشر نص الكتاب سنة 1342 / 1923 دون تعليقات في مطبعة المقتطف بمصر، في مجلد يحتوي على 144 صفحة)[36] معتمدًا نسخة كائنة بخزانة رايلندز بمانشستر مؤرخة في 4 محرم سنة 616 هـ، ووصفها منغانا بالنسخة الوحيدة[37].

وتوالت طبعات الكتاب معتمدة نشرة منغانا، حتى الطبعة التي نشرت في دار الآفاق بيروت سنة 1393 / 1973 بعناية عادل نويهض، وعلى الرغم من ضخامتها عن نشرة منغانا وما تبعها من نشرات فإنها لم تعطنا أية معلومات مهمة بخصوص الطبري أو كتابه، وقد يرجع ذلك إلى أن المحقق لم يكن من ذوي التخصص في هذا العلم، وقد ظهر ذلك من خلال تعليقاته في حواشي النسخة .

35: ألفونس منغانا 1881 (1937-Alphonse Mingana)، انظر ترجمته عند عبد الرحمن بدوي "موسوعة المستشرقين" ص 568 ط دار العلم للملايين بيروت.

36: راجع: عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي ص 131، وتمكنت من الاطلاع على النسخة التي قام بترجمتها منغانا ونُشرت بهذا العنوان: The book of religion and empire, a semi-official defence and exposition of Islam. Manchester, University press (1922).

37: راجع نشرة منغانا ص 1، 144 ط المقتطف مصر 1923.

توثيق نسبة الكتاب إليه:

شكلت نسبة كتاب "الدين والدولة" بحثًا مهمًا لدى المهتمين بعلي بن ربن الطبري، ففي سنة 1920، قام منغانا بالتعريف بالكتاب ثم دافع عن نسبته إلى علي بن ربن الطبري في فصل كتبه 1925م، وعلى الجانب الآخر يقف كل من الأب بويج، وبيترس، وغليوم كوتش، وإغناطيوس عبده خليفة، ليقطعوا بعدم صحة نسبة كتاب الدين والدولة إلى الطبري، ويعتبره الأب بويج لمؤلف "حديث وغير مسلم" .

ويعلق الدكتور الشرفي على ذلك بقوله: "ولكن أغلب حججه غير مقنعة في الحقيقة، وفيها قدر كبير من التعسف لا يتسع المجال لمناقشته"[38].

وربما أتى هذا التشكك في نسبة الكتاب إلى علي الطبري، من إحجام كتب التراجم والطبقات عن ذكره، وخاصة كتاب "الفهرست" لابن النديم، وربما لما أورده الطبري نفسه من تاريخ ذكره في الدين والدولة تناقض مع تاريخ وفاته، إذ تذكر المراجع أنه كان حيًا سنة(240/ 855)، أو (247/ 861) ويذكر هو بنفسه في كتاب الدين والدولة "ومن المسيح إلى سنتنا هذه: ثمانمائة وسبع وستون سنة"[39].

38: انظر: الشرفي، ص 131.

39: راجع نشرة منغانا ص 117، ويعلق الشرفي على هذه المسألة قائلًا: «لم يهتد إلى حل مقنع لهذا الإشكال، فالمسألة في نظرنا ينبغي أن تبقى مفتوحة « ص 129 هامش رقم 38، وامتثلت لرأي الشرفي بعدما أعيتني هذه المسألة في بحثها، ولعل ذكر الطبري لهذا التاريخ فيه بعض من مبالغة لا حقيقة، فقد كان بمعرض الحديث عن بشارة النبي دانيال، بالنبي صلى الله عليه وسلم، وتأويلها من خلال ما يقوله حساب الجمل، وتلك إشكالية أخرى، لأنه سيحاول الوصول من خلال تأويله وقراءته للسنوات المذكورة في دانيال إلى عصر الدولة العباسية الذي يعيشه أو قبله بخمسين عاما، يقول الطبري: «فوجدت في كتب دانيال نبوة أيضًا باهرة عجيبة [.....] فأعملت فيه الفكر {أي: العدد أو التاريخ المذكور في النص} فوجدته يوحي إلى هذا الدين وهذه الدولة العباسية خاصة « انظر: «الدين والدولة» ص 117.

وعلى الرغم من كل هذه التشكيكات، فإني أقطع بنسبة الكتاب إلى علي بن ربن الطبري استنادًا على الأمور التالية:

1- ذكر منغانا في نشرته للدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه اعتمد على نسخة وحيدة في خزانة رايلندز في نشر الكتاب، إلا أني بعد البحث عثرت على نسخة مخطوطة لكتاب الدين والدولة، بها بيان مهمّ يفيدنا في هذه المسألة أذكره بنصه لأهميته:

"كتاب الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم"، لمؤلفه: الحافظ المتقن العلامة النحرير على بن زين الطبري -رحمه الله تعالى- نُقلت هذه النسخة من نسخة مكتوب عليه ما يأتي، وهو:

استكتب هذه النسخة المباركة العديمة النظير بالقسطنطينية المحمية في سنة الألف ومائة وثمان وستين عن نسخة كتبت قبل هذا التاريخ بخمسمائة واثنين وخمسين سنة، وقد نُقلت تلك النسخة عن نسخة المصنف برسم الصاحب جمال الدين بن أبي المنصور، وقد كتب في ظاهر تلك النسخة أن مؤلف هذا الكتاب كان نصرانيًا، وكان في حال نصرانيته كاتب المازيار صاحب طبرستان، ولما أخذ المعتصم بالله المازيار، على يد: عبد الله بن طاهر، استأمن مؤلف هذا الكتاب، ثم أسلم على يد المتوكل على الله، وصار من ندمائه، وألف هذا الكتاب بإشارته كما يشير إلى ذلك في بعض عباراته. انتهى".

ويحمل هذا النص سندًا توثيقيًا لكتاب علي الطبري، إذ إن النسخة ينتهي سندها إلى المصنف، كما يحمل توثيقًا لشخصية على نفسه.

2- يؤكد نسبة الكتاب إلى علي ابن ربن الطبري، وإلى القرن الثالث

الهجري - وليس لمؤلف حديث كما يقول "بويج"- ما يذكره أبو الحسين أحمد بن الحسين بن هارون الهاروني الحسني الزيدي (421-333هـ) من نقولات جرى نقلها نصّيًّا عن كتاب الدين والدولة لعلي الطبري، وقد قمت بمقارنة بين ما ورد لدى الهاروني والطبري فوجدت تطابقًا بينهما؛ مما يؤكد اعتماد الهاروني على كتاب الطبري، ويوثق نسبة "الدين والدولة" للقرن الثالث الهجري [40].

3- ورد ذِكر علي الطبري في كتاب "تخجيل من حرَّف الإنجيل" لأبي البقاء تقي الدين صالح بن الحسين الجعفري (ت668هـ) حيث قال: "ابن ربن كان من أذكيائهم، فأسلم على يد المتوكل، وردّ عليهم [أي النصارى] وعلى اليهود وغيرهم، بكتاب له حسن"[41] وقام الجعفري بالنقل الكثير عن الطبري، ولاعتبارية الكتاب ودوره في تأسيس جدل الجعفري مع النصارى في "تخجيله" فطِن ابن العسال المسيحي إلى كتاب علي الطبري؛ وعلى الرغم من تقدمه زمنيًّا على عصر ابن العسال المعاصر للجعفري في القرن السابع الهجري، فإنه لأهمية كتاب الطبري قام بتصنيف رد عليه، وأسماه: "الصحائح في جواب النصائح" وأكد في رد تالٍ على هذا الرد، يُنشر كضميمة معه "نهج السبيل في تخجيل محرفي الإنجيل "عين ما ذكره الجعفري من نسبة الكتابين(الرد..والدين والدولة) إلى علي الطبري[42].

40: راجع: الهاروني «إثبات نبوة النبي « نشرة دار التراث العربي ط1 سنة 1979م، ونسخة مخطوط إيران 31 جامعة طهران، ونسخة دار الكتب، 1567 علم كلام، الباب الثالث الخاص بالبشارات [والإحالة على النشرة المطبوعة] (ص 157-169) فقد جرى اقتباسه من الطبري عن الصفحات التالية، وترتيبها بحسب اقتباسه (85،67،74، 103، 76، 75، 82،74،81،78، 119،118،83، 120) الدين والدولة، نشرة منغانا.

41: راجع الجعفري « تخجيل من حرَّف الإنجيل» 313/1 ط1، نشرة العبيكان، الرياض 1998 م.

42: راجع المبحث الخاص بالمقارنة بين ابن العسال والطبري في مقدمة التحقيق، القسم الثاني

4- وقد نقل عنه الفخر الرازي في أكثر من موضع في تفسيره، ونصّ على أن النقل عن ابن ربّن الطبري، وبمراجعة ما نقله على "كتاب الدين والدولة" تأكدت أنه يقتبس عنه[43].

ب -كتاب الرد على النصارى:

يُعدّ هذا الكتاب ثاني اثنين من إنتاج علي الطبري الديني الذي وصلنا؛ حيث نصّ فيه على أنه أسلم في سن السبعين، وقام بتأليف هذا الكتاب على سبيل الدعوة إلى دين الحق، تأكيدًا منه على رفضه للمعتقدات النصرانية، والتنصّل منها.

وإنا لنأسف لعدم عثورنا على توثيق للكتاب عند من ترجموا الطبري قديمًا، وليست هناك من إشارة للكتاب في كتب الطبقات والتراجم، إلا أن الطبري نصّ على كتابه هذا في مؤلفه التالي له زمنيًّا "الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم"[44] وعليه فإن توثيق كتاب الدين يُعد توثيقًا لكتاب الرد على النصارى بالتبعية، إضافة إلى اعتبارية النقولات التي اقتُبست منه في مؤلفات من أتوا من بعده، وإضافة إلى تناول المخالفين له بالرد عليه فيما قال.

وقد نال هذا الكتاب اهتمامًا في العصر الحديث، وإن لم يكن على درجة سابقه في الشهرة والذيوع، فقام كل من "غليوم كوتش"، و "إغناطيوس عبده خليفة" بنشر هذا الكتاب في مجلة الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف

من الدراسة.

43: راجع على سبيل المثال: تفسير الفخر الرازي (39/3) ط دار الفكر بيروت 1981م.

44: انظر: «الدين والدولة» ص 86 حيث يشير إلى كتابه نصًا: «وفي كتابي الذي في الرد على أصناف النصارى..».

ببيروت سنة (1959م)، معتمدين النسخة المخطوطة منه، الكائنة في "شهيد علي" باسطنبول، وقد أتت هذه النسخة ناقصة الآخر، وربما لا يوجد غيرها في المكتبات الخاصة بالمخطوطات ؛ لأنه لم ترد إليها إشارة بحسب ما تيسر لي من مراجعة فهارس المخطوطات والسؤال عنها، في مظان وجودها، كما أنه لم يشر أي دارس من المستشرقين ممن اعتنوا بشخص الطبري ومؤلفاته إلى نسخ أخرى للكتاب .

جـ - كتاب الرد على اليهود:

وهو من جملة كتب الطبري التي لم تصلنا بعد، وبحسب إشارته هو، فقد ألّفه اعتبارية لتقسيم ارتأه، فكتاب للدفاع عن الإسلام وإثبات نبوة النبي، وكتاب للرد على النصارى، وكتاب للرد على اليهود .

ويلزمنا الحديث عن مؤلفاته في حقل الدرس الديني المقارن، أن نفصّل الحديث عن ديانته السابقة، التي كانت محلاً للظن والتخمين، وعن أسباب إسلامه.

ديانة علي بن ربن الطبري وإسلامه

ترددت المصادر التاريخية في تحديد ديانة الطبري قبل إسلامه، بين المسيحية واليهودية؛ إلا أن إشارات الطبري نفسه لنُبَذٍ عن حياته أوردها في كتبه، تؤكد مسيحيته قبل إسلامه، وتقطع في الأمر دون أدنى شبهة، لكنّا نتساءل الآن عما إذا كان الطبري قد ذكر لنا في مؤلفاته دوافع تحوله إلى الإسلام، وهل كان ذلك بعد رحلة من البحث العقلي عن الدين الحق؟ أم أن ذلك كان لحفظ ماء الوجه وشيبة العمر في ظروف تاريخية عصفت بمأمنه وقلبت أركان الدولة التي عاش في كنفها ؟ أم هروبًا من سوء أوضاع سياسية أملًا في استقرار يُمكِّنه من مواصلة بحوثه العلمية؟ أم خوفًا من السيف؟ أم رغبة في الأموال والرئاسة والعز؟ كما يوصف المتحولون عن المسيحية في هذا الوقت، أم دفعته خيالات السحر وشبهاته؟ أم رؤيته الترخيص في الشرائع؟ إلى آخر ما يمكن سرده من دوافع إيجابية وسلبية[45].

لا نستطيع القطع بشأن هذه التساؤلات ؛ لأننا لا نكاد نعثر على معلومات قيّمة بهذا الشأن عند الطبري[46] في مؤلفاته الدينية والعلمية التي وصلتنا،

45: قارن ما يورده عمّار البصري من أسباب للدخول في الأديان الأخرى خلافًا للمسيحية، وهو يشير إلى الإسلام، في كتابه «البرهان» ص 38 وما بعدها.

46: بخلاف ما يذكره البعض من أن الطبري كغيره من مسلمة أهل الكتاب، روى قصة إسلامه، وليس هناك مصدر يمكننا تتبع المعلومة فيه، راجع بهذا الشأن نصًا أورده د. عبد الرحمن بدوي في مقدمته لكتاب «الحكمة الخالدة» لمسكويه، ص 15 ط مكتبة النهضة المصرية 1952.

كمثل التي يسردها السمؤال بن يحيى المغربي في "قصة إسلامه"[47] أو غيره من المهتدين إلى الإسلام، مما يجعل باب الاجتهاد مفتوحًا لاستخراج تلك الدوافع، اعتمادا على الحدس والتخمين؛ كمثل ما فعل "بروكلمان" في ترجمته لعلي الطبري، حيث اعتبر دخول علي الطبري الإسلام قهرًا من الخليفة العباسي المعتصم بالله، وكما فعل "جان موريس فييه" مُستقرئًا لظروف عصر الطبري وحال المتحولين إلى الإسلام في هذا الوقت[48].

لم يبق لنا إذن سوى تتبع تلك الشذرات التي أوردها الطبري في مؤلفاته؛ إذ يذكر في كتابه "الدين والدولة" أن عمه [صاحب كتاب الرد على أهل الأديان] اعتبر أن البلاغات من المشتركات بين الأديان، لا يبزُّ بها دينٌ على غيره، كما رأى أن أغلب من أسلم تابعًا لنبي الإسلام دخل في دينه دونما آية أو معجزة شهدها، مما لا يعطي للإسلام أية مزية، أو يمنحه رابطة سماوية[49].

وكان أبو عليّ الطبري، المُلقّب بـ(ربَّن)، عالمًا بالإنجيل، ومترجمًا عن اليونانية، ومتألهًا أيضًا، وهو الأمر الذي أثّر في تأسيس عقلية ابنه وتشكيله وتهذيبه الروحي، إضافة إلى صقل ذهنه بسجال عمه وجداله، وقد كان أبوه في خدمة العلم قائمًا في بلاد المسلمين وتحت رعايتهم، وإذا كان علي الطبري قد أسلم في سن السبعين من عمره، فربما كفلت له هذه النشأة وتلك الظروف مناخًا جيدًا للبحث والمقارنة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، ليخرج من ذلك معتنقًا للإسلام متنصلًا من غيره.

47: طُبعت هذه القصة مع رده على اليهود، أكثر من نشرة، راجع نشرةً بتحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي دار الهداية 1986 م، ونشرة دار الحرمين القاهرة 2001م.

48: راجع: جان موريس فييه «أحوال النصارى» ص 128، 129.

49: راجع «الدين والدولة « ص 124، 125، نشرة منغانا.

وإن اقتباسات الطبري عن التوراة والإنجيل، وترجمته لكثير من ألفاظه، وإتقانه لكثير من اللغات القديمة، ساعده على الاطلاع الوافر على الوثائق الخاصة بهذه الديانات، مقارنًا بينها، متوصلًا إلى نتائجه، ويدعم هذا القول ذلك التحليل الوجيز المركز الذي يورده الطبري في كتابه "الدين والدولة"[50]، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُصدر ذلك الوصف الدقيق للقرآن إلا بعد قراءة متأنية له، مقابلًا ذلك بما خلفته خبرته بالتوراة وكتب الأنبياء والمزامير والأناجيل.

وإذا اعتبرنا أن ثمة مقارنة وبحثًا واطلاعًا قام بها الطبري، وما يذكره الطبري في رسالته في الرد على النصارى "ولا سبيلَ إلى معرفة الأفضل من الأرذل إلا باختبار؛ ولا يكون الاختبار إلا بالعقل؛ ولولا العقل لَمَا عُرِفَ أن لنا صانع [...] ومن لم يستعمل العقل جَهِلَ، ومن جهل فقد ضلَّ"[51].

جاز لنا أن نرجّح أن الطبري قام برحلة بحث في الأديان حتى وصل إلى الإسلام، ومن ثم أراد أن يعلن ذلك، فوجد في تأليفه كتابًا يناقش فيه معتقداته السابقة أفضل إعلان، آملًا أن تنتشر نتائج بحثه العقلي؛ حتى يعم خيرها على أبناء عمومته، متنصلًا به عن ضلاله القديم.

علَى أن الطبري يتحدث عن تجربته من خلال نص قصير يذكره في مقدمة "الرد على النصاري" يحسن ذكره هنا؛ إذ يقول:

«ولقد دعاني القديم من ذلك إلى أن ألّفت كتابي هذا لِلتَّنصُّلِ من دين النصرانية والإعذار والنصيحةِ للنصارى كافة ولئلا يقول قائل منهم، أو من

50: السابق نفسه، ص ص 44-48.

51: الرد، مخطوط، 2/أ.

غيرهم: إني إنما تركتُ دين النصرانية، الذي كنت عليه من أول عمري إلى أن بلغتُ من العمر سبعين سنة، ورغبت في دين الإسلام الحنيفي؛ كي أبيع دُنيا بدين، أو سرورًا بغرور؛ بل ما توخّيتُ فيما ألّفتُ من كتابي هذا إلا: القُرْبَى إلى الله عز وجلّ، والإعذارَ والإنذارَ إلى كافة النصارى ورجوتُ أن يكونَ ذلك على طريق النصيحةِ لهم ؛ وإن كُنتُ لا أشكُ أنهم يردُّون وجوههم عنه وآذانهم، وينقلبون، ولا يَقبلون ..»[52].

فربما كان هذا النص قاطعًا لتخرصاتٍ يمكن أن تثار إزاء إسلامه، أو أن يكون الطبري مُدافعًا بالفعل عن أقوال وُجِّهت إليه من قِبَل نصارى معاصرين له أو مسلمين قاموا بسؤاله؛ وخاصة أن هذه الفترة كانت شاهدة على تحولاتٍ من قِبل كثيرين مثله إلى الإسلام[53]، مما حدا بعمّار البصري (وهو عالم مسيحي معاصر للطبري)[54] أن يعزو أسباب هذا التحول والنفور من دين النصارى، إلى استعمال الإسلام للسيف، وبصرف النظر عن الأسباب التي ذكرها عمّار، فإننا إذا راجعنا الأخبار الخاصة بهذه الفترة، وجدنا أن المتوكل على الله قام بحملة شديدة على الكُتّاب، وكان جلهم من النصارى، وجردهم عن ممتلكاتهم، وزجّ ببعضهم في غيابات السجون، وألزم العامة من النصارى بشروط شديدة تقييدًا لحرياتهم[55].

52: الرد، مخطوط، 2/ب.

53: راجع: جان موريس فييه «أحوال النصارى في خلافة بني العباس» ص 142.

54: عمّار البصري: كاتب مسيحي نسطوريّ مجهول، عاش في القرن التاسع الميلادي، من مؤلفاته كتاب «البرهان»، حقّقه وقدّم له ميشال الحايك، بيروت، 1977 - مقدّمة بالفرنسيّة (ص 13-91) - المقدّمة بالعربيّة (ص 7-18) - النصّ (ص 19-90). وكتاب «المسائل والأجوبة». حقّقه وقدّم له ميشال الحايك، بيروت، 1977 - النصّ (ص91-265)، وصدر كلاهما عن دار المشرق.

55: راجع «الكامل في التاريخ» 98/6 ط دار الكتب العلمية، وقارن طه الحاجري في كتابه عن «الجاحظ» حيث قرن بين إعلان الدولة خصومتها للنصارى في أيام المتوكل، والثورة التي قادها البطارقة في أطراف الدولة من جهة بلاد الروم..، واستأنس بقول الجاحظ (كتاب الحيوان 28/4) في الكلام على بعض رؤساء النصارى: «وفي حكمهم أن من أعان المسلمين على الروم يُقتل، وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يقتلوه».

فلا نستطيع إذن أن نغض الطرف عن سياسة الدولة آنذاك، وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن نجازف بالادعاء أن إسلام الطبري كان خوفًا من نكبة تحل به وهو في سن متقدمة، سواء أكان ذلك ساعة استيلاء الدولة في خلافة المعتصم على طبرستان، أو في غضون موقف المتوكل من النصارى، وتبني الدولة سياسة التضييق عليهم.

وذلك على الرغم من أن موقف الطبري الصامت، ودعمه لفكرة السيف في الإسلام وأثره، فضلاً عن تأكيده على انتشاره به، وجعل «غلبة النبي صلى الله عليه وسلم آية من آيات النبوة» وإدخال الناس كرهًا في دين الإسلام[56]- قد يدعم صحة فرضية عمار البصري بشأن إسلام الطبري والنصارى في عصره.

كما يمكن القول أن تأخر إسلام الطبري، وخبرته بدنيا السياسة، وأن شيئًا فيها لا يستقر على حاله، مع عمره الطويل؛ يجعل إسلامه بريئًا من التملُّق لنيل حُظوة أو مكانة عند الخليفة.

نخلص من كل ما سبق إلى أن ديانة الطبري قبل إسلامه كانت النصرانية، وأنه ليس هناك رأي قطعي يستند إلى دليل واضح في أسباب تحوله عنها سوى ما أورده الطبري بنفسه وسقته آنفًا.

56: الدين والدولة ص 50، 51، نشرة منغانا.

الطبري وعلم مقارنة الأديان (مقدمات منهجية)

أولاً: دوافع تأليف الطبري في علم مقارنة الأديان:

بقي لنا بعد أن تعرفنا على بعض ملامح منهج الطبري ومصادره، أن نتعرف على دوافع التأليف عند الطبري، وتنقسم هذه الدوافع إلى قسمين مشتركين:

أولهما: دافع خارجي:

إذا اعتمدنا كلام الجاحظ في كتابه الذي صنفه في الرد على النصارى، من الناحية الظاهرية، قلنا: إن تآليف الطبري أتت تبعًا لضرورة مُلحّة لسيطرة بعض النصارى في هذه الفترة، ولنشرهم كثيرًا من الهرطقات، والطبري كمولى لأمير المؤمنين، ونديم من ندمائه، كان عليه أن يُلبي أمر الخليفة الذي يريد نصرة الإسلام وعزة أهله، لكننا لو راجعنا تلك الأخبار التي سردها المؤرخون بخصوص هذه الحقبة، وسياسة المتوكل تجاه نصارى دولته، لعلمنا أن الطبري كان مكلفًا تكليفًا رسميًا من قِبل الدولة، أن يكتب هذا الكتاب (الدين والدولة) كما كُلّف معاصره (الجاحظ) بمثل ما كُلف، ولأن الطبري كان لا يزال حديث عهد بالإسلام، فهو مطالب وإن لم يُصرّح بذلك أن يثبت ولاءه للدين الجديد وأهله، وخاصة أن من كان يخدمه الطبري (المازيار بن قاران والي طبرستان) من قبل كان خائنًا لدولة بني العباس، فهو بحاجة إلى تنقية صورته مما قد يشوبها.

وثاني الدوافع (داخلي):

راجع إلى ما علله الطبري نفسه، حيث ذكر جملة من دوافعه في الكتابة، هي:

1- إعلان البراءة من دين النصرانية "ولقد دعاني القديم من ذلك إلى أن ألفت كتابي هذا للتنصل من دين النصرانية".

وهنا تأتي الدعوة من الله، لا من أمير المؤمنين، فلا يرد ذكر لبركته وعونه وهدايته، لأنه سابق في تأليفه على كتابه الثاني في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

2- تقديم النُّصح والإعذار والإنذار للنصارى كافة، لمفارقة دينهم لما يشتمل عليه من تناقضات ومعائب، وبذا ينال القرب من الله فهو حق ويحب الحق؛ وهنا لا يخص الطبري المسلمين بحديثه كما يفعل في "الدين والدولة" إلا من قبيل أن المسلمين إذا ما اطّلعوا على معائب دين النصرانية بما فيه من نقائص، سيزدادون سرورًا بما هم عليه من اعتناق للإسلام الحنيفي "الذي من ألِفه فاز ومن قام به اهتدى، ومن نصره نجا"[57] وسيُعنى الطبري بمسألة سرور المسلم هذه كثيرًا حين تأليفه لكتاب الدين والدولة، وتتحول لتصبح غاية أولى من غاياته، فالمسلم الأول الذي يريد الطبري أن تقرَّ عينه بمؤلفه (الخليفة جعفر المتوكل على الله)، ثم من بعده يأتي المسلمون المعاصرون له، إضافة إلى أن "الدين والدولة" خُصص للدفاع عن الإسلام، وإظهار عظمته.

3- شفقة الطبري، واضطلاعه بتأدية واجبٍ، حتمًا عليه أن يقدم الدواء لهؤلاء الأعلاء، حتى لو ردوا وجوههم عنه وآذانهم، ويُبرئ الطبري ساحته مما قد يُنسب إليه من رفض المسيحية ككل، إذ يقول "وليس قصدي فيما أتيت

57: «الدين والدولة» ص 5 نشرة منغانا.

به وأثبته في كتابي هذا ردًّا على المسيح، ولا على أهل حقه، بل على من خالف المسيح والأناجيل وحرّف الكلمات من صنوف النصارى".

4-معالجة أوجه القصور التي ارتآها الطبري في المؤلفات السابقة عليه، والمشاركة في التأليف في هذا الفن، لإظهار النموذج التطبيقي لتلك الشرائط النظرية التي حددها فيما قبل .

ثانيًا: المنهاج والمصادر:

تُمثّل قضية "المنهج والمصدر" الركن الرئيس في دراسة أي عالم لفكرة ما، فإذا ما رسم لنفسه منهجًا معينًا ارتاده في تلك الدراسة فقد قطع بذلك نصف طريق العناء في التأليف بين العناصر المختلفة التي ينسج منها دراسته، وسهُل عليه وعلى متلقيه الإلمام بالفكرة محل الدراسة، أما إذا ترك لقلمه العنان دون أن يرسم لنفسه منهجًا أو خطة للدرس، فقد أتعب نفسه وشتت أفكاره وأعيا من بعده في تكوين صورة لآثاره؛ ولم يكن ذلك ببعيد عن ذهن الطبري في دراسته للأديان، بل رسم لنفسه منهجًا خاصًا[58] طبّقه في معالجته للأفكار ونقده للأخبار وتفنيده للأدلة، فعل ذلك حتى لا يقع في عيوب التصانيف التي انتقدها، واعتبر نفسه مُكلفًا بخلق لون جديد لهذا الدرس، التي تاهت معالمه على أيدي السابقين.

58: لا نكاد نعثر على إشارات في الدراسات العربية الحديثة، سلطت الضوء على منهجية الطبري في كتاباته في علم مقارنة الأديان، بقدر ما يستحقه الطبري من اهتمام، لتقدمه الزمني، واعتماد المتأخرين عليه، سوى دراسة د.أبو اليزيد العجمي في «فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد الموقف والمنهاج» فقد خصص بضع صفحات اهتم فيها بكتابه «الدين والدولة» وعرض له ولبواعثه في التأليف ولصورة منهجه ومثال لتطبيق ذلك المنهج، لافتًا النظر إلى أنه درس الطبري باعتبار كتابه هذا من الكتب المبكرة في مجال العقيدة ودراسة الأديان، وشخصية الطبري جديرة بالدراسة. راجع «فقه العقيدة» الصفحات (42-46) ط دار الصحوة القاهرة 1987م.

معالم المنهج:

اضطلع الطبري بمهمة التأليف في هذا الفن، لما وجده من قصور واضح في المؤلفات السابقة عليه -كما يصفها هو بذلك-[59] إضافة إلى أن الخليفة العباسي المتوكل كان "مُغرما كلِفًا"[60] بمثل هذه المؤلفات، وتتضح معالم المنهاج عند الطبري من خلال ذلك النقد الذي وجهه للمؤلفات السابقة عليه، إذ يقول في مقدمة كتابه "الدين والدولة" ناقدًا مؤلفي الكتب في هذا الفن: "فإن منهم من قصّر وبتر، وأدغم حجته ولم يفسر، ومنهم من احتج على أهل الكتاب بالشعر، وبما لم يعرفوه من كتبهم، ومنهم من حشا دفتي كتابه بمخاطبة المسلمين دون المشركين، ثم ترجم حججه بأوعر كلام وأبعده من الإفهام، فإن أراد المخالف أن يقول: إنه في ذلك كحاطب ليل أو حميل سيل، يتعلق بكل شوك وشجر وغث وسمين من الكلام، وأن الذي احتج به ليس ببيان بل كتمان، وليس بتبصير بل تعوير، ولا بتسهيل بل توعير- كان ذلك"[61].

يتجه نقد الطبري إذن إلى طرق التأليف من الداخل، وليس من الخارج فحسب، فطريقة المؤلفين في إيراد الحجج على الخصوم ليست جيدة، فحجتهم إما قاصرة عن بلوغ المراد، أو مشكلة في بيانها، وهم لا يعتمدون ما يعتّدُ به الخصم؛ لأنهم ربما لم يكونوا على دراية جيدة بمصادر تعاليمه وعقائده،

59: «الدين والدولة» ص 7 منغانا.

60: «الدين والدولة» ص 8 منغانا.

61: «الدين والدولة» ص 7 منغانا.. ونعثر لاحقًا على نقد يشبه نقد الطبري، راجع كمثال: السمؤال «إفحام اليهود» ص 86 نشرة د. الشرقاوي.

فيقحمون الخصم فيما لا يحسن استنباط المعاني منه (الشعر[62] وربما كانوا لا يدرون لمن يكتبون، فيخرجون من مخاطبة الخصوم (المشركين!) إلى مخاطبة أربابهم (المسلمين).

وهنا يؤكد الطبري على جملة من الشرائط لا بد من توافرها لمن يؤلف في "مثل هذا الفن الجليل الهادي المستنير العام المنفعة لأهل الأديان" وهي بدورها ستصبح أسسًا لمنهجه في الحوار والجدل: أن يجعل كلامه مفهومًا سهلاً. أن يخاصم نفسه ويساجل خصمه. ألا يعلو على الخصم ولا يربى. أن يُفهم ولا يُبهم، وينصف ولا يظلم. أن يستعمل الرفق في الكلام. أن يُحسن سياقة الكلام، لا بمحسنات الألفاظ؛ بل البراهين والمعارضات التي إن ردّها المخالف خرج عن نحلته ودينه [63].

بدون هذه الشروط لن يتحقق للمحاور غرضه، كما يرى الطبري، أما إذا التزم بها تحقق له ما يريد وملك زمام الأمور، وأصبح قائدًا لخصمه.

يوجب الطبري على نفسه هذه الشرائط وعلى غيره، ويزيد عليها حكاية مسألة المخالف وحجته[64] ثم يقوم بتحليلها، والرد عليها، وفي غالب مناقشات الطبري سيلتزم ما اشترطه، ويطبّق منهجه فيما كتبه.

62: غير واضح موقف الطبري إزاء الشعر المرسل للرد على النصارى، فربما كان موقفه هذا خاصًا بانتقاد طريقة التأليف ممن سبقوه؛ ويأسف المرء أننا لم يصلنا أية وثيقة مما كان بين يدي الطبري، إذ يُعد إنتاجه من أقدم ما وصلنا في هذا الفن، لكن مؤلفي الطبري يخلوان تماما من إيراد الأشعار، وهو أمرٌ جدير بالانتباه، لأنه سيؤثر في التواليف لاحقًا، فلا نجد مثلا عند أبي عيسى الوراق شيئًا من الشعر، ويكثر الشعر خاصة في القرون المتأخرة من بعد، راجع على سبيل المثال: تقي الدين الجعفري في «تخجيل من حرّف الإنجيل» [ص 266، 267، ومواضع أُخر]، ويزداد الأمر فيتمثل الرد في شكل قصائد منظومة، راجع جهود البوصيري مدّاح النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن.

63: «الدين والدولة» ص 7 منغانا.

64: جدير بالذكر أن الطبري هنا لا يستخدم مصطلح (شُبهة-شبهات الخصم) الذي سينتشر فيما بعد، بل يعتبر الكلام (مسألة) قابلة للرد والمناقشة، وهي بمثابة حجة الخصم، يتعلل بها.

مما سبق يظهر واضحًا أن الطبري كان معنيًا عناية كبيرة بالجدل والحوار ومناقشة الخصوم، إلا أن ذلك لا يعني عدم اعتماد الطبري على مناهج[65] أخرى في دراسته للأديان، ففي بعض الأحيان يقدم وصفًا لمعتقدٍ ما، وأحيانًا يقارن بين فكرة واحدة في ديانتين أو أكثر، ممارسًا للنقد، والتحليل، لكن السمة الرئيسة في تآليفه هي الحوار والمجادلة.

مصادر الطبري:

إذا كانت المصادر مما شغل الطبري في انتقاده لمؤلفات سابقيه، فإنه أخذ على نفسه ألا يقع في هذه النقيصة، لأنها تشين صاحبها، وتخرج بمؤلفه عن حيز الفائدة العلمية، فلا تعدو مؤلفاته أن تكون نوعًا من حوار الصم، لا تجدي نفعًا؛ لذا اعتمد الطبري في تأليفه على مصادر متنوعة ومختصة بهذا العلم، مما ساعده كثيرًا في صقل مادته، ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى: مصادر كتابية، ومصادر إسلامية.

المصادر الكتابية:

وأول المصادر التي اطلع عليها ابن ربّن هي: مؤلفات السابقين عليه - من المسلمين وغيرهم-، وبحسب ما أبرز الطبري مثالبها العلمية، فقد كانت استفادته منها سلبيًا، بمعنى أنه تحاشى وقوعه في براثن أخطائها، هذا إذا اعتبرنا مصداقية الطبري في حكمه على هذه المؤلفات، وأنه كان نزيهًا في

65: استخدم كلمة مناهج هنا كمرادف حرفي لكلمة: طرائق.

حكمه، لم يُرد به مثلاً أن يشينها لكي يرفع تصانيفه[66].

وثاني هذه المصادر هي كتب الديانة اليهودية والمسيحية[67]، وأعني بها: التوراة (أسفار موسى الخمسة) وكتب أنبياء العهد القديم، والأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل؛ وقد كان الطبري على دراية بهذا التمييز بين هذه الكتب، فكثيرًا ما يميز بينها حين اقتباسه لتلك النصوص والفقرات التي يقوم بتحليلها ومناقشتها .

وبالطبع كان لنشأة الطبري في بيئة مسيحية، وعلم أبيه وعمه بالأديان، وإسلامه المتأخر زمانيًا دور كبير في معرفته بمصادر الديانة وكتبها، والتي لم يذكر منها إلا القليل، وبالإحالة تعميمًا لا تخصيصًا وتحديدًا، كمثل ما كان يقول: قال المفسقان (مفسر النسطورية)، مما يعني رجوعه إلى تفسيرات وشروحات للكتب المقدسة في المسيحية، وينقل أحيانًا عن تسابيح خاصة بهم، وربما كانت أصول هذه المصادر في لغة غير العربية (السريانية)، وكان الطبري على علم كبير بها ؛ لذا كان كثيرا ما يقوم بالتفسير لبعض الألفاظ ومقارنتها بمثيلاتها[68]، كما أنه يترجم فقرات كثيرة من الكتاب المقدس عنها،

66: لا نشكك في نزاهة الطبري هنا، بقدر ما نحتاط في اعتبار الأحكام التي يصدرها، وخاصة أن الطبري كان مسبوقًا بمؤلفات المعتزلة، من أمثال: واصل بن عطاء، والنظّام، وغيرهم من أصحاب القامات في النظر العقلي، والرد على المخالفين للإسلام، ويبدو لي أن الطبري يبالغ في أحكامه بعض الشيء،وخاصة وأنه يُطري نفسه ومؤلفه إطراءً شديد، ربما فعل ذلك بدافع من تكليف الخليفة له، حتى يكون عند حسن ظنه به.

67: باستثناء بعض الفقرات التي ترد بخصوص ديانة اليهود، فإن مجموع كتابي الطبري هو سجال بين الإسلام والمسيحية، فالدين والدولة في الدفاع عن الإسلام وإظهار عظمته، وإثبات نبوة النبي، والثاني في الرد على النصارى.

68: تجدر الإشارة إلى أن علي الطبري ترجم كتابه فردوس الحكمة في الطب، إلى اللغة السريانية، مما يؤكد تمكنه منها.

ولا ندعي أنه قام بترجمة كاملة له، فليس بين أيدينا ما يدعم ذلك، كما أنه ليس بين أيدينا ما يؤيد أنه اطّلع على ترجمة عربية كاملة للكتاب المقدس في هذه الفترة.

على أية حال فإنا نؤكد اطلاع الطبري على المصادر الخاصة بالديانة المسيحية، من كتابها المقدس وشروحاته وقوانين الإيمان الخاصة بها وقصص حواري المسيح، مما يعطي لكتابته مكانة مميزة خاصة في هذا السيل الدافق، الذي سيتلوه، مكررًا لأطروحاته ونقوله عن هذه المصادر.

المصادر الإسلامية:

أما بالنسبة للمصادر الإسلامية، فلا يصرّح الطبري باعتماده على مصدر بعينه، على الرغم من كثرة الأخبار الإسلامية الواردة بشأن إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من مرويات السيرة النبوية، وأحاديث أسباب النزول، وتلك الأحاديث والآثار التي تروي معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، ويلفت النظر إيراد الطبري لهذه المرويات دون سلسلة السند كما هو الشأن في المؤلفات الأخرى، وربما ساعده أحد في جمع هذه الأخبار لقرب عهده بالمرويات الإسلامية، وخاصة أنه يكثر منها في كتابه عن النبوة، ويترجح هذا القول إذا ما اعتبرنا ذلك الخبر الوارد من مساعدة الخليفة المتوكل[69] له في تأليفه لكتاب الدين والدولة في إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم،

69: جاء عنوان الكتاب، في النسخة المطبوعة في مطبعة المقتطف بمصر 1923م1342-هـ، كالتالي: «كتاب الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف علي بن ربن الطبري؛ وساعده فيه: جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين (232-247هـ)» واعتمد منغانا في هذه النشرة على نسخة (وحيدة!) في خزانة رايلندز بمانشستر، وقد قابلت هذه البيانات بالنسخة التي عثرت عليها فوجدتها، تكرر نفس البيانات أعلاه.

وكما أشار هو بنفسه إلى ذلك[70]، وإن كان من شكٍ ففي شخص من قدم له المساعدة[71].

ثالثًا: في الأخبار وكيف تصح:

ينفرد الطبري -على مستوى ما وصلنا من الردود والدفاعات الجدلية- بهذه المعالجة التفصيلية لقضية الأخبار وصحتها وثبوتها، على أن ذلك لا يعني أنه الوحيد في هذا الباب الذي طرق المسألة، فمن قبل أفرد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظّام حديثًا مطولًا للأخبار، وصحتها، وبطلانها، وتناقضها، وتثبيتها، حفظ لنا طرفًا منه نشوان الحميري في كتابه (الحور العين)[72]، وكذلك فعل أحمد بن يحيى المرتضي في "المنية والأمل في شرح الملل"، ونأسف إذ لم نحصل على أغلب ما قاله النظام بشأن الأخبار عمومًا، مما جعله محل اتهام دائم عند أغلب المخالفين للمعتزلة، ووُصم بالكفر؛ باعتباره طعّانًا في الأخبار، منكرًا لما ثبتت صحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويأتي بعد النظام تلميذه الجاحظ ليبحث قضية الأخبار في مصنف خاص

70: يقول الطبري «... بتوفيق الله وعونه وبركة خليفته جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وبما اهتديت به، واستفدت عنه، وسمعت من ألفاظه...» ص 8 نشرة منغانا.

71: كثيرًا ما تُنسب الكتب أو المساهمات فيها إلى الخلفاء أو الشخصيات المشهورة لتكتسب ذيوعًا وانتشارًا، من ذلك، ما نسب إلى المأمون من كتاب في علم الرمل، باسم: «القرعة المأمونية في علم الرمل» وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية.

72: راجع الحور العين (ص 230-236)، تحقيق كمال مصطفى وتقديم محمد زاهد الكوثري، نشرة الخانجي (د.ت)، على أن الفقرة الخاصة التي يدرس فيها د. عبد الهادي أبو ريدة قضية الأخبار (ص 16) غير كافية لاستجلاء حقيقة الأمر، وذلك على الرغم من أهمية كتابه عن النظام وآرائه الكلامية والفلسفية، فهو من أوائل الكتابات العربية التي أفردت جهود النظّام بدراسة مستقلة، وقد تناول بسام الجمل «مطاعن النظام في الأخبار» في بحث خاص، راجعه: في حولية الجامعة التونسية، عدد (44) سنة 2000م.

كاملًا يسميه: "الأخبار وكيف تصح" إلا أن مؤلفه لم يصلنا، مثل حديث أستاذه، إلا أنه يمكن تلمس وجهة نظر الجاحظ بشأن الأخبار من خلال حديثه في رسالة "حجج النبوة" مما يشير إلى اهتمام علماء الإسلام بالأخبار وحجّيتها، وخاصة المعتزلة والمدافعين عن الإسلام؛ لأن ذلك سيتطور لاحقًا في التآليف الإسلامية في فروع علمية مختلفة كعلم التاريخ وأصول الفقه[73]؛ ولذلك يحسن أن نعرض هنا لكلام الطبري بشأن الأخبار وكيفية تصحيحها.

يعقد الطبري الفصل الخاص بوجوه الخبر والإجماع العامي[74]، والدلائل على تصحيح الأخبار في بداية كتابه: (الدين والدولة في إثبات نبوة محمد) مما يشير إلى اهتمام الطبري بالتنظير والتقعيد لما سيمارسه في كتابه من مناقشة للأقوال والأخبار على المستوى العام، ويقع هذا الفصل في ثماني صفحات من أصل (144) صفحة أي ما يمثل أكثر من (5%) من كتابه[75]، ويتحدث فيه عن أقسام الأخبار وزمانيتها وطبيعتها، وعن مستويات الإجماع ومراتبه، ولا يخلي كلامه من الاستشهادات بالأمثلة على كل فكرة يتناولها بالحديث.

فالأخبار كلها على ضربين، إما حق وإما باطل، ولها ثلاثة أوقات: خبر ماضٍ، وخبر مقيم، وخبر منتظر، ومنها ما يصدق مرة ويكذب أخرى

73: الجاحظ في الأخبار وكيف تصح، نشرة شارل بلا، في المجلة الآسيوية مع ترجمة للفرنسية، راجع الشرفي (ص 538)، وراجع على سبيل المثال البدء والتاريخ للمقدسي [البلخي] ط باريس(109/1)، والأحكام للآمدي (16/2) ط الكتاب العربي بيروت.

74: قارن موقف الجاحظ في «حجج النبوة» حيث يشير إلى تأكيد أمر الإجماع باعتباره أصلا من أصول الشريعة، وبه يثبت الخبر. [«حجج النبوة» ضمن مجموعة الرسائل الكلامية ص 132، 133 تقديم علي أبو ملحم، منشورات دار الهلال بيروت 1987م].

75: راجع: (ص -9 16) من نشرة منغانا، (36 – 46) نشرة نويهض.

(ص9) ويضرب مثلاً على ذلك بقول القائل: جاء فلان، فهذا القول محتمل الحكمين: الصدق أو الكذب، وهناك خبر يوصف بالصدق في كل الأزمنة؛ مثل قول القائل: دار الفلك أو هو دائر غدًا، ويصف الطبري هذا النوع من الأخبار بأنه خبر حق في كل وقت ويطلق عليه صفة: الإجماع الأول الأعم، ويستحق الخبر هذا الوصف أيضًا إذا كان كذبًا كله مثل قول القائل: هذا أنور من الشمس وأحلى من الشهد، وهذا الفرس أسرع من البرق؛ إذ المعول عليه اتفاق الجميع، والكل متفق على أن هذا كذب، لكنه لا نكارة في هذا القول، لأن الناس تجريه في كلامها على سبيل المجاز.

وإذ يعتبر الطبري المثال السابق إجماعًا أوليًا من حيث رتبته، فإنه لا يقصر الحديث على الإجماع هنا ممثلاً في جانب المسلمين وحدهم، وإنما يتحدث على الإجماع (العمومي) الذي يشترك فيه جميع البشر العقلاء، لا الإجماع الذي يعتبر قاعدة من قواعد الملة الحنيفية (الإسلام) الذي يرجع إليه ويفزع نحوه ويكفر من خالفه[76].

وبعد الإجماع الأول الأعم: إجماعٌ ثانٍ، وهو دون الأول في الكثرة والعموم-من حيث اتفاق مجموعات كبيرة من الناس عليه- وذلك مثل خبر آدم وحواء، وأنهما أبوا البشر، فإنه صحيح عندنا لاشك فيه؛ لإجماع أكثر الناس عليه وشهادات الأنبياء على صحته.وهو عند خلق كثير كذب وزور؛

76: مراتب الإجماع (ص7) ط دار الكتب العلمية بيروت، وانظر تحليلًا خاصاً بمراتب الإجماع، لابن حزم عند حسن حنفي «من النص إلى الواقع» (224/1، 225) ط 1 مركز الكتاب للنشر، القاهرة سنة 2004 م.

مثل الهند والصابئة وأشباههم[77].

وبعد الإجماع الثاني إجماع ثالث، وهو دون الثانى فى الكثرة والعموم وذلك مثل خبر الروم والهند والصين،ويعتبره الطبري من الأخبار الحقة التي لا يشك للإجماع القائم عليه والشواهد الموجودة التي تؤكد ذلك، وإن كان أكثر من يجيء به سوقة الناس وعوامهم،فالعبرة عند الطبري في تثبيت الخبر هنا: إجماع قائم وشواهد عيان، لا حال الرواة.

وبعد هذا الإجماع الثالث في الرتبة إجماع رابع يمثل له الطبري بخبر ظهور الإسكندر[78] والتبابعة، فإنه مقبول صحيح لإجماع خلق كثير عليه، وهناك إجماع خامس يصفه الطبري بأنه متوارث عند أهله منذ دهر طويل، ويمثل له بخبر البددة (البوذية) والزنادقة والمجوس، فهو حق عندهم وباطل عندنا لا يعتد به.

77: زعمت فرقة من الهند أن أول ما كان من ظهور الإنسان: أن السماء ذكر والأرض أنثى، وأنه مطرت السماء فقبلت الأرض ماءها بمنزاة قبول المرأة ماء الرجل في رحمها وأجلها الفلك بسرعة جريه ودورانه فبدا أول ما بدا هذا النبت الشبيه بالإنسان الذي يسمى: يبروح الصنمي (76/2)، وحكي عن بعض أهل الهند أنهم يزعمون أن آدم خرج من عندهم هارباً(97/2).

وفي كتاب الفرس: وخلق الإنسان في سبعين يوماً وسماه (كيومرث) ثم طعنه الشيطان، ثم تخمرت طينة في الأرض خرج منها نبات، ظهر في وسط النبات صورتان ملتفتان بورق من ذلك النبات، أحدها ذكر والآخر أنثى، واسم الذكر: ميشي، والأنثى: ميشانه، ومرتبة هذين عند الفرس مرتبة آدم وحواء عند أهل الكتاب وسائر الأمم (77/2).

وحكي عن أهل بابل أن هرمس الأول قبل آدم بزمان طويل (97/2). وهذه كلها أخبار (لا يصح الوثوق بها) والأصح من ذلك ما كان عن أمين صادق، ولا أصدق من كتاب الله ولا آمن من رسوله صلى الله عليه وسلم (98/2).

78: يذكر مؤرخو الإفرنج نقلًا عن فلوطرخس وأريانس اللذين كتبا تاريخ الأسكندر أنه ولد سنة (356) قبل المسيح، في العام الثالث من ملك أبيه فيليبس على مقدونيا، وعمر أرسطوطاليس (28) سنة، ولد في مدينة (بلا) التي بناها أبوه وجعلها عاصمة مقدونيا وتلقى تعليمه على يد أرسطو وهو ابن الثالثة عشرة، راجع المقتطف مجلد سنة (1899) (ص665) وما بعدها.

ثم يقوم الطبري بتفريع آخر للأخبار معتمدًا فيه على الحالة النفسية للملتقي، فمن الأخبار ما إذا سمعه السامع طابت به نفسه وطار في وجهه الدم وذرفت عيناه ضحكًا، ومنها ما يذري دمع السامع ويذبل وجهه كأخبار النكبات، ومنها ما يجعل سامعه مهتزًا للجود بفعل مدح له، وكذلك منها ما يبخل السامع ويؤيسه من الخير مثل من أفقره التبذير، واضطره إلي المسكنة والاستكفاف، ومنها ما يغريه ويغضبه، ويبسط يده بالضرب ولسانه بالشتم، ومنها ما يلهب شهوته، ومنها ما يحمل علي تقحم الأهوال والاستقتال بعد انقراض المخبر الأول، ويستشهد الطبري علي هذا النوع من الأخبار بفعل المجوس بإحراق أنفسهم ويصف هذه الأفعال بالنزق والطيش وعدم إعمال العقل، حتى لو كان أصحابها يعتبرون هذا من طقوس الديانة، فالطبري يعتبر أن مثل هذا الخبر مؤدى عن طريق (قوم من الكذابين العتاة) عن نفر من (الخبثة الدهاة)؛ لذلك يجب التحرز والهرب من أمثال هذه الأخبار إلى ملاجئ الحكمة ومحال الفكرة والاعتبار.

وينبّه الطبري إلى الغلط في الأخبار[79] وكيفية اجتنابه، ويذكر مصدر الخطأ، وهو الاعتماد على حاستي السمع والبصر، ويرى أنهما: (طالما غرّا وكذبا بما يعروهما من التخاييل والظن)، فلا يجب الوثوق في المعارف المبنية عليهما؛ لأن البصر ربما خيل الشيء الواحد شيئين ورأى المستوي كالمعوج، وربما صور المعدوم كالموجود. وأما السمع فربما سمع الإنسان دويًا فظن أنه الرعد أو يسمع من تحكى كلبًا أو أسدًا أو قمريًا فيرى أن ذلك هرير أو هدير أو زئير.

79: راجع «الدين والدولة» ص 12 نشرة منغانا.

تثبيت الأخبار:

لا يخالف الطبري في تثبيت الأخبار ما يروى من إطباق الأمم بعد استقصائها وتحرزها من مغبة الوقوع في الخطأ؛ من اعتمادها في تثبيت الأخبار العامة على شهادة العدول، إذا ادعى مدع حقًا أو جاء بنبأ من الأنباء، ثم أحضر رجلين من أهل القناعة والعفو، أو ثلاثة ثبت بهم الحق وزال الشك والشبهة عن الحاكم والمحكوم عليه.

وإذا صح هذا في الأخبار فهل يمكن اعتباره معيارًا لقبول أخبار الأنبياء؟! يجيب الطبري على ذلك بقوله: " فأما خبر الأنبياء فلأنه يؤدي إما إلى الجنة أو إلى النار، فلن نكتفي فيه بشاهدين ولا بقسامة ولا بأمة دون أن يكون معها شهادات الحق ومقياس العبر".

وعلة ذلك التي يراها الطبري أن أممًا كثيرة العدد عظيمة القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون لعدة من الخبثة و الكذابين بالنبوة، ويضرب مثلاً لذلك بالمجوس المؤمنين بزادشت، والمؤمنين بماني[80].

الأخبار والإجماع:

يمكن أن يترتب على أقوال الطبري السابقة عدم حجية الإجماع للدلالة على صدق الخبر، لأن اجتماع أمة عظيمة القدر والعقل على القول بنبوة

80: يتوافق رأي الجاحظ مع الطبري، في « أن الكثرة الجامعة على أمر لا تدل على صدق الخبر» يقول: «ولم نقل إن العدد الكثير لا يجتمعون على الخبر الباطل كالتكذيب والتصديق، ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية وعبدة البددة يكذّبون النبي وينكرون آياته وأعلامه ويقولون لم يأت بشيء [....] وليس قول جمعهم أنه كان كاذبًا معارضة لهذا الخبر» راجع: «حجج النبوة» ص 141، 142.

شخص يوصل إلى الجنة ويبعد عن النار، مع كذب هذا الشخص وخبثه، يقدح في إجماعها فيما دونه من الأخبار العامة؛ لدنو رتبتها عن رتبة خبر النبوة.

إلا أن الطبري يضع بعض القواعد التي تساعد على تفهم نظرته للأخبار المجمع عليها؛ فيقول بخصوص ذلك: "فلما وجدنا من الإجماع ما هو هكذا، ووجدنا منه ما هو كالإسلام علمنا أن قبول كل إجماع فتنة ورد كل إجماع ضلالة، وأن الإجماع وحده ليس بكاف في تثبيت النبوة، دون شهادات الحق وأماراته"[81].

ويرى الطبري أن هذه الإمارات والشهادات لم تجتمع إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وجامعها له الله، مما يعطي لها الدرجة العليا في الوثاقة والصحة، لكنه فيما بعد يأبى أن يختص النبي محمد بهذه الشهادات الموصوفة بشهادات الحق وحده، فيشرك معه السيد المسيح[82].

وعن كيفية التثبت من صدق الخبر أو كذبه، وإن أجمعت أمة عليه؛ لابد لمتلقي الخبر أن يفهم الخبر الوارد عليه ويتدبر غرضه، وإن وجد في نفس الخبر ما يكذبه ويبطله لم يحتج إلى برهان غيره[83]، ويمثل الطبري لذلك بخبر مسيلمة الكذاب ويصفه بالكذب والتذبذب والتناقض ثم يشرك معه زرادشت وماني والنصارى واضعي شريعة الإيمان.

ويخلص الطبري من هذا كله إلى أن الأخبار ليست حجة كافية في تثبيت

81: (ص 13).

82: (16).

83: (ص 13 , 15).

نبوة نبي من الأنبياء وذلك لأن خبر الأنبياء يحدد مصير البشر: " يؤدي إما إلى جنة أو إلى النار"[84].

لكنه لا ينحّي الأخبار جانبًا في تثبيت النبوة بل يستأنس بها، لكن معتمده الرئيس على ما يسميه: "شهادات الحق ومقاييس العبر". وقد حددها الطبري في عشرة معان توافرت واجتمعت للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي:

- دعاؤه صلى الله عليه وسلم إلى الله وموافقته في ذلك جميع الأنبياء.
- مسلك النبي وأخلاقه وما كان عليه في نُسكه ومحمود سننه وشرائعه.
- آيات[85] ومعجزات بيّنات أظهرها، لا يأتي بها إلا أنبياء الله ونخباؤه.
- تنبأ على أشياء غائبة تحققت في زمانه.
- تنبأ على حوادث جمّة من حوادث الدنيا ودولها صحّت بعده.
- الكتاب الذي جاء به آية من آيات النبوة بالضرورة والحجج.
- غلبته الأمم.
- دعاته خيار الناس وأبرارهم لا يُظن بهم كذبًا ولا إفكًا.
- ختمه للنبوة وأنه لو لم يُبعث لبطلت نبوات الأنبياء فيه.
- نبوات الأنبياء عليه قبل ظهوره بدهر طويل ووصفت مبعثه وبلده ومسيره وخضوع الأمم له والملوك لأمته[86].

لكن الطبري قبل أن يذكر جملة هذه المقاييس، يُشرك المسيح مع النبي محمد قائلا عن هذه الأمور العشرة المذكورة التي اجتمعت للنبي محمد صلى

84: (ص12).

85: يُعرّف الطبري الآية بأنها «ما يُظهره النبي لمن شاهده من الأوابد التي لا يقدر أن يأتي بمثلها غيره، وأن يتنبأ على ما غاب عنه فيصح في دهره « [الدين والدولة ص 126 نشرة منغانا].

86: السابق نفسه (ص16).

الله عليه وسلم "لم يجتمع مثلها لأحد قطّ إلا للمسيح عليه السلام" وتحمل هذه العبارة إشكالية برأيي، إذ المعاني المذكورة سابقًا لا تجتمع للمسيح، حسب رؤية الطبري نفسه، وحسب الرؤية الإسلامية أيضًا، فالمسيح مثلاً لم يكن خاتمًا للنبوة كما كان محمد خاتم الأنبياء، وإن كان البعض قد فرّق بين نبوات الأنبياء السابقين على المسيح ومحمد، ما كان خاصًا بالمسيح، وما كان خاصًا بمحمد، فإن الطبري، لم يشر إلى أيّ من نبوات الأنبياء على المسيح، بل كثيرٌ من النبوات التي تُصرف تأويلاً على شخص النبي محمد يعتبرها النصارى تخص شخص المسيح ودينه، فكيف يشتركا معًا في هذه المقاييس؟

وعلى سبيل المثال نفى الطبري أن يكون للمسيح آية أو معجزة، في معرض ردّه على عمّه[87] مستندًا إلى قول متّى "جيل شرير فاسدٌ يطلب آية ولا تُعطى لهم إلا آية يونان"[88] "فأخبرهم [المسيح] بأنه لا يُظهر لهم آية ألبتة لأنهم من القبيلة الخبيثة يعني بها اليهود قاطبة" وليس هناك من برهان على أن المسيح أعطي آية، فهو وغيره من الأنبياء قد سُئلوا عن مسائل وطلب منهم آيات فلم يجيبوا، لأن الله لم يكن أذن لهم فيها ولم يفتح لهم بابها في تلك الأوقات[89].

87: انظر «الدين والدولة» ص 124.

88: متّى 12/39.

89: راجع «الدين والدولة» ص 124-129، وقارن موقف النصارى من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم عند طيماثوس جاثليق النساطرة في محاورته مع الخليفة المهدي ص 25 ط دار المشرق بيروت، إذ يُعتبر موقف الطبري هنا مشابهًا لموقفهم، فهم لا يرون معجزة للنبي محمد بنص القران، إلا أن القران يشير في أكثر من آية إلى أن المسيح عليه السلام له أكثر من آية، فربما كان موقف الطبري هنا من باب الإلزام على الخصم حين جداله، في حين اعترافه وإيمانه كمسلم ما للمسيح من آيات، عن معجزات المسيح في الإسلام راجع ميشال الحايك «المسيح في الإسلام» ص 95-104 ط 4 دار النهار بيروت 2004 م.

وإذا كان دعاة النبي صلى الله عليه وسلم خيارُ الناس وأبرارهم لا يُظن بهم كذبًا ولا إفكًا، فقد قدّم الطبري نقدًا لمن لم يبلغ درجة زهدهم ولا ابتلي بمثل محنتهم، وهم أصحاب السيد المسيح[90]، إذن هم في درجة أقل من أصحاب النبي، وعليه فثمة اضطراب في حكم الطبري باشتراك النبي محمد والمسيح عليهما السلام في هذه المقاييس العشرة التي أوردها قبل حديثه في تثبيت خبر نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

90: انظر «الدين والدولة» ص 63، 64.

إنكار النبوة والرد على المنكرين

تُمثل قضية النبوة على وجه العموم مرتكزًا رئيسًا عند أصحاب الجدل الكلامي دارت عليه أحاديث طوال في الكتب التي عُنيت بالجدل والدفاع، ويبدو ذلك منسجمًا كل الانسجامَ مع أهداف علم مقارنة الأديان بالخصوص وكذلك علم الكلام، الذي كان من أهم الأسباب في قيامه علمًا خاصًّا عند المسلمين: الدفاع عن المعتقدات الإسلامية ضد أرباب الديانات الأخرى، ومحاولة عرضها في ثوب خالٍ من الشوائب والمتقولات عليها.

ومن هنا لا ينبغي عند تناول البحث لقضية النبوة وإثباتها، التغافل عن الإطار التاريخي؛ فتذكر المصادر التاريخية وكتب الفرق والكلام أن جدلًا كان دائرًا في بدايات الإسلام حول قضية النبوة (عمومًا) وإثبات أو إنكار نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم (خاصة)[91]، وتبرز في كل الكتابات طائفة بعينها يُنسب إليها إنكار النبوة؛ وهي طائفة البراهمة (أهل الهند الأوائل)، كما تبرز شخصيات أخرى كان لها دور في الفكر الإسلامي آنذاك، وعادة ما تسلط الأضواء على اثنين منهم، هما: أبو بكر الرازي، وأبو الحسين

91: تجدر الإشارة هنا إلى تلك الرسائل المتبادلة بين يحيى بن المنجم وقسطا بن لوقا وحنين بن إسحاق، حول نبوة محمد، إثباتًا وإنكارًا، نُشرت ضمن الكتاب: مراسلة إسلاميّة مسيحيّة بين ابن المنجّم وحنين بن إسحق وقسطا بن لوقا: قدّم له وحقّقه ونقله إلى الفرنسيّة خليل سمير وبولس نويا - ضمن مجموعة كتابات الآباء الشرقيّين، المجلّد 40، الجزء 4، رقم 185، تُرنو، بلجيكا، 1981، ص 592-685.

ابن الراوندي؛ مما يعني أن عدم التغاضي عما قيل هنا من الواجب على الباحث، وإلا جاءت محاولته بترًا للفكرة من سياقها التاريخي وكم من بحوث اليوم تتحدث عن "إثبات نبوة النبي" ولا تهتم بتاريخها.

لذا حاولت أن أقوم بتناول كلٍّ من الأغراض السابقة التي تخصّ فكرة النبوة وسيجري الحديث على هذا النحو: البراهمة وإنكار النبوة.

- ابن الراوندي وإنكار النبوة.
- أبو بكر الرازي وإنكار النبوة.
- إنكار النصارى لنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
- علل تكذيب النصارى.

أولاً: البراهمة وإنكار النبوة:

كثيرة هي المصادر التي تذكر إنكار النبوة كفكرة رئيسة في معتقدات البراهمة تنبع من فلسفتهم في فهم العلاقة بين الألوهية والإنسانية، الكلي والجزئي، فالوجود كله واحدٌ، ففي بعض كتبهم يقولون: (أنا - أنت - هو، كله واحد) هناك إذن كما يعتقدون وحدة كونية تفنى فيها الجزئيات المتناهية في جوف الألوهية الشاملة، ومن ثم تنتفي النبوة[92].

92: راجع: على مبروك: النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ، محاولة فى إعادة بناء العقائد، ط دار التنوير - بيروت 1993م ص 196، 197. ماسينيون: محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، ص 146 تحقيق وترجمة زينب الخضيري ط المعهد الفرنسي بالقاهرة.

وتتكرر أقوال البراهمة التي تفيد إنكار النبوة في أغلب المصادر الإسلامية[93]، وتتلخص مقالتهم في: أن الرسول لا يأتي إلا بما في العقول أو بخلافه، فإن كان يأتي بموجب العقل فما في العقل كافٍ مما يجب لله تعالى على العباد من معرفته وتوحيده وشكره وعبادته واستعمال الحسن واستقباح القبيح؛ وإن كان يأتي بخلافه فلا وجه لقبوله، وحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته[94].

البراهمة إذًا أنكروا النبوة؛ لأن النبي في رأيهم معارض للحكمة الإلهية، إذ ما دام العقل يدل على حسن الأفعال وقبحها، مع ثبات التكاليف العقلية، فلا حاجة بنا للأنبياء أو الرسل، فالعقل هو البديل باعتباره معيارًا للحكم.

وأجاب المسلمون آنذاك على أقوال البراهمة بأن "الرسول أبدًا لا يأتي إلا بما في العقول إيجابه أو تجويزه، وحاشا لله ولرسوله أن يأتوا بخلاف ما في العقول ولكن من الأشياء مما يَغْمُض ويلطف حتى يخطئه العقل أو يخفى ويحتجب حتى يقصر دونه العقل كانتفاع الإنسان بما تنزع إليه نفسه ويشتاق إليه طبعه من ملاذ الأغذية والملاهي القوية فإنه حسنٌ في العقل الأخذ منها

93: راجع المصادر التالية: البلخي «البدء والتاريخ»1/124 ط باريس 1907، البيروني «تحقيق ما للهند من مقولة» ص81 نشرة دائرة المعارف بحيدرآباد الدكن 1958، الخوارزمي «مفاتيح العلوم» ص 37 نشرة فان فلوتن [عن مصورة الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر 2004]، الباقلاني «التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة» ص 96-114، نشرة الخضيري وأبو ريدة ط دار الفكر العربي، وابن حزم «الفِصَل» 1/137 نشرة دار الجيل بيروت، والشهرستاني «الملل والنحل» ص 601 وما بعدها، نشرة دار المعرفة ببيروت، و»نهاية الإقدام» ص 378 نشرة ألفرد جيوم، وابن الجوزي «تلبيس إبليس» ص 410 نشرة دار الوطن، الرياض 2002، والقاضي عبد الجبار « التنبؤات والمعجزات - المغني ج 15 «ص 109-147 ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1965، ولا يختلف عرض سعديا الفيومي ونقده (كيهودي) عن المراجع السابقة، انظر:»الأمانات والاعتقادات» ص 118، 119 ط ليدن 1880.

94: البلخي البدء والتاريخ 1/ 109، 110 مرجع سابق.

بقدر،الحاجة بل واجب وغير حسن إذا كان لا يملكها الانتفاع بشيء منها إلا بعد الإذن »[95].

على أن تكرار أقوال البراهمة وتفنيدها في المصادر الإسلامية لا يعني بالضرورة أنها تعبر عن آراء براهمة الهند الحقيقيين، فإذا أخذنا في اعتبارنا تلك النتيجة التي خلص إليها باول كراوس في بحثه عن إنكار النبوة بين البراهمة وابن الراوندي، والتي يرى فيها أن الروايات التي نجدها لدى المؤلفين الإسلاميين عن البراهمة بحسبانهم منكري النبوة إنما ترجع إلى كتاب الزمرد "لابن الراوندي"[96]؛ وإذا ضُمّ إلى ذلك اضطراب الأقوال في المصادر الإسلامية وتضخيمها، فيما بعد، بل وتناقضها أحيانًا، وسعنا التأكيد على أن هذه الآراء لا تعبّر عن موقف البراهمة بدقّة، وإن لم تصح تلك النتيجة التي وصل إليها كراوس فلا بدّ أن يكون نقل هذه الآراء عن طريق السماع والحكاية لا المعاينة والدراية، وخاصة أن مؤلفًا بارزًا كـ"البيروني" لا يذكر شيئًا من كل هذا الزخم المعلوماتي، وهو من أهم المصادر التاريخية

95: السابق نفسه، وآثرت أن أقتبس من مصدر البدء والتاريخ، اعتباراً لقدمه التاريخي نسبيًا؛ فمؤلفه توفي سنة 340 هـ، والكتاب كما في عنوانه في نسخة باريس، والتي جرى تصويرها في بغداد ومصر غيرُ مرة يُنسب إلى المقدسي ! وهو شخص لا يُعرف عنه الكثير، وحتى على مستوى الاهتمام به كمؤرخ قديم لا نعثر عند حسين مؤنس، في» أطلس تاريخ الإسلام « سوى ما ترده كتب التراجم من معلومات عنه، وغاية الأمر أني رجّحتُ أن مؤلف الكتاب هو أبو زيد البلخي المعتزلي وهو مؤرخ وفيلسوف، فروايته لها قيمة تاريخية، إضافة إلى أنه يذكر أقوال البراهمة وغيرهم ناقلاً إياها عمن قبله أمثال (أبي القاسم الكعبي، وزرقان صاحب كتاب المقالات) مما يقارب ذكر البراهمة عند ابن الراوندي ت 250 (حسب ترجيح كراوس ص 213 من تاريخ الإلحاد) الذي يعتبر أقدم مصدر إسلامي تحدث عن البراهمة (كراوس ص 166 من تاريخ الإلحاد)؛ كذلك كان هذا الإيثار إحجاماً عن تضخيم البحث عند الاعتماد على المصادر التاريخية التي ستفرد البراهمة ببحث مستقل في كتب الكلام والفرق، قارن ما فعله الباقلاني في التمهيد (مرجع سابق) وابن الجوزي في تلبيس إبليس، وابن حزم في الفصل.

96: « من تاريخ الإلحاد « ص 185 مرجع سابق

التي تحدثت عن أديان الهند[97]، فربما وُضعت[98] مثل هذه الآراء على لسان البراهمة من قبل أشخاص آخرين كابن الراوندي أو غيره ممن يريدون سجال أهل الإسلام والطعن في ديانتهم، إذ لا يخفى أن كثيرين آنذاك أرادوا الكيد للإسلام والنيل منه ووقف انتشاره، ولم يكن أغلبهم بمستوى جرأة ابن الراوندي أو يوحنا الدمشقي، الذي تحدث عن الإسلام آنذاك باعتباره هرطقة نسطورية.

ومهما يكن من أمر فسيظل هذا الجدل قائمًا - سواء أكان معبرًا عن البراهمة أم طائفة منهم أو غيرهم - حول النبوة في تلك الفترة التي عاصرها عليّ بن ربّن الطبري في دار الإسلام، وهو ما يهم هذا البحث في الدرجة الأولى، وصولاً إلى الغاية التي كان ينشدها الطبري حين كتابته مُدافعًا عن النبوة وتثبيتها.

97: انظر ما يورده عن هذا المصدر، د. محمد عبد الله الشرقاوي في كتابه «مقارنة الأديان» ص 38 - 41 ط دار الفكر العربي، وماسنيون في «محاضرات في تاريخ الاصطلاحات» ص 132.

98: قارن تلك الإشارة القيمة التي يوردها سعديا الفيومي في الأمانات والاعتقادات عن وضع خصوم اليهود كلاماً على لسان البراهمة.

ثانيًا: ابن الراوندي[99] وإنكار النبوة:

نُسب إلى ابن الراوندي كتبٌ فيها انتقاص من قدر الإسلام[100] نذكر منها هنا بعض ما يمس قضيتنا من تلك الكتب، وهي: الزمرذ، والدامغ في الرد على القرآن، والفِرِنْد[101] في الطعن على النبي، وما يعنينا هنا بالخصوص كتاب الزمرذ[102]، وإذا كانت أغلب كتب ابن الراوندي لم تصل إلينا حتى الآن في جملة ما وصلنا من تراث الإسلام، فإن الزمرذ قد احتفظ بشذرات منه الداعي الإسماعيلي المؤيد في الدين (ت 470 هـ)[103] في كتابه (المجالس

99: من أوفى المراجع الحديثة التي أولت شخصية ابن الراوندي مزيد عناية: كتاب عبد الأمير الأعسم « ابن الريوندي في المراجع العربية الحديثة « 2 مجلد ط دار الآفاق الجديدة بيروت سنة 1978 وحديثاً لعزيز العظمة: ابن الريوندي ط رياض الريس للكتب والنشر سنة 2002، وعصام محفوظ: حوار مع الملحدين في التراث ط دار الفارابي لبنان سنة 2004، و د. زكي نجيب محمود في «المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري « ص ص 278-290 ط دار الشروق مصر د.ت.

100: انظر عبد المقصود عبد الغني «موقف الفلاسفة والمتكلمين من منكري النبوة» ص 17 ط مكتبة الزهراء القاهرة 1993.

101: هكذا ضبط الاسم الدكتور نيبرج في مقدمته لكتاب الانتصار للخياط المعتزلي ص 23 ط بيروت سنة 1988 معتمدًا على معلومة ابن النديم، وضبطه أمين الخولي في مقدمته للجزء 16 من كتاب المغني [إعجاز القران] للقاضي عبد الجبار ص 9، ويرجح هذه التسمية معتمدًا على ذكر أبي العلاء المعري لها، في رسالة الغفران ص 466 ط 2 المعارف، وذكرها بهذه الصورة في مواضع شتى من «إعجاز القران».

102: يذكر القزويني في « عجائب المخلوقات « والتيفاشي في « الأفكار في جواهر البحار « أن الأفاعي تسيل عيونها إذا وقع بصرها على الزمرذ، فلعل ابن الراوندي استخدم هذه التسمية ليقارن بها تأثير الكتاب في القراء المؤمنين. يراجع باول كراوس في بحث عن ابن الراوندي « من تاريخ الإلحاد في الإسلام» (ص 36، 137) مرجع سابق.

103: المؤيد في الدين هو: هبة الله أبو نصر بن موسى الشيرازي، داعي الدعاة المُلقّب بالمؤيد في الدين، توفي في القاهرة سنة 470هـ، من مؤلفاته «ديوان شعر» و «سيرة» حققهما د. محمد كامل حسين في دار الكاتب المصري 1949 م.

المؤيدية)[104] المجلد الخامس، المجلس (19،18،17، 20)، وقام بتحقيقها المستشرق باول كراوس، وتجدر الإشارة إلى أن النص الذي يورده المؤيد في الدين ممثلًا لرأي ابن الراوندي في النبوة يرد على النحو التالي:

قال ابن الراوندي: «إن البراهمة يقولون: إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه، وأنه هو الذي يعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب، فإن كان الرسول يأتي مؤكدًا لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته إذ قد غنينا بما في العقل عنه والإرسال على هذا الوجه خطأ، فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته» [105].

فهل كان ابن الراوندي يروى أقوالاً خاصة بطائفة البراهمة المعاصرين له؛ قاصدًا استفزاز مشاعر المؤمنين ولفت الانتباه إليه فحسب دونما إيمان منه بهذه الفكرة؟! خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه كما يعترف بنفسه نَشَر مثل هذه الأفكار حمية وأنفة من جفاء أصحابه وتنحيتهم إياه من مجالسهم.

على أية حال لسنا بصدد الدفاع أو الرد على إنكار النبوة من قِبل ابن الراوندي، وإنما يعنينا بالخصوص شيوع مثل هذا الرأي عنه، وقيام العلماء في عصره وبعده بالرد على أفكاره وتبني البعض لجملة من آرائه، مما يساعد في معرفة الجو الفكري في الحقبة التاريخية التي نُعنى بها، وتدعيمًا لإبراز هذا الجو الفكري، سنلقي الضوء على ما نسب إلى الطبيب الرازي.

104: في المجلد الخامس من ص63 – 88 من الأصل المخطوط الذي كان بحوزة الدكتور حسين الهمداني، كما يشير إلى ذلك كراوس، ويمكن الاطلاع على ردود في الدين في تلخيص حاتم بن إبراهيم للمجالس المؤيدية، المسمى (جامع الحقائق) في المواضع التالية: 2/85،84، 86، 87، راجع المائة الأولى بتحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر ص 29 ط دار الثقافة القاهرة سنة 1975 م.

105: راجع من تاريخ الإلحاد ص 119.

ثالثًا: أبو بكر الرازي وإنكاره للنبوة [106]:

يشترك الرازي الطبيب مع ابن الراوندي في نسبة إنكار النبوة إلى كل منهما، وشيوع ذلك عنهما، إلا أنهما يختلفان في متكأٍ كل منهما والوسيلة التي اتخذاها، فعلى حين ينحو ابن الراوندي في كلامه منحًا كلاميًّا خالصًا، ويجرى على سنة علم الكلام[107]، يتناول الرازي فكرة النبوة بالطعن عليها والنقد الشديد من وجهة نظر فلسفية، وإذا كان البعض قد أشار إلى أنه لم يعثر على قول للرازي في تراثه المنشور أو سيرته المكتوبة يستفاد منه إنكاره للنبوة أو نيله منها، فربما كان ذلك منه التزامًا بتراث الرازي نفسه والتقيد بما يصدر عنه شخصيًّا من رأي، لا ما ينسبه إليه الآخرون، وحفاظًا على صورة معتقد شخصية ثرية في التراث الإسلامي تمثلت فيها أوج العبقرية العلمية، إلا أن ذلك لا يعنى عدم اعتبارية القول الآخر الذي يرى في الرازي منكر النبوة ومحطم الأيقونات المتفرد[108]؛ أو الكافر الملحد الذي يعده كلامه مفسدًا للقلب مُذْهِبًا للدين[109]، ولا سيّما أنه يستندُ على دعائم تعضّد كلامه، من ذلك تلك الوثيقة الفريدة التي تثبت هذا الرأي عن الرازي، وهي كتاب أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي أحمد بن حمدان[110] (ت سنة 322 هـ)، إذ

106: خصّ باول كراوس هذه الفكرة ببحث مستقل. راجع: «من تاريخ الإلحاد في الإسلام» ص 230-263، وحديثاً خصص عزيز العظمة كتاباً مستقلاً بعنوان « أبو بكر الرازي » ط رياض الريس للنشر 2002 ويحاوره عصام محفوظ في « حوار مع الملحدين في التراث » ط دار الفارابي لبنان 2004 م.

107: انظر من تاريخ الإلحاد ص151.

108: مقدمة أعلام النبوة للرازي (أبي حاتم) ص 10 نشرة جورج طرابيشي دار الساقي بيروت.

109: البدء والتاريخ 110/3.

110: من مشاهير دعاة الإسماعيلية ومن معاصري محمد بن زكريا الرازي، وقد جمع مناظراته مع الرازي في كتاب (أعلام النبوة) ومن أشهر كتبه: الزينة في الكلمات الإسلامية، وهو كتاب رائد في اللغة العربية وطبع بمطبعة الرسالة بمصر سنة 1958 حققه حسين الهمداني، وخصص أطروحة عن الكتاب د. محمد رياض العشيري (التصوير اللغوي عند الإسماعيلية دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم) وطبعت بمنشأة المعارف الإسكندرية 1985.

يخصص أبو حاتم الرازي الكتاب للرد على أبي بكر الرازي بخصوص موضوع النبوة وما يتعلق بها[111]، وأتى من بعده حميد الدين الكرماني (ت 411 هـ) فأتمَّ أقوال أبي حاتم الرازي في المباحثات الفلسفية والكلامية مع أبي بكر الرازي وأكملها دفاعًا عن أبي حاتم. وتجدر الإشارة إلى أن رفض آراء الرازي والإمعان في إنكارها كان هو الموقف العام، على المستوى الفلسفي والطبي؛ إذ قام بالرد عليه الكثير من الفلاسفة والأطباء الإسلاميين، بل وغيرهم من اليهود[112].

إلا أن هذه الكتابات وغيرها لم يصلنا منها سوى جهود الإسماعيلية في الرد على الرازي، فنشر كراوس في الرسائل الفلسفية لأبي بكر الرازي المناظرات بين الرازيين، والتي هي في أصلها جزء من كتاب أعلام النبوة، ونشر سيد حسين نصر دراسته عن كتاب أعلام النبوة مع نص الكتاب كاملاً[113]، وبحسب دراسة باول كراوس عن الرازي وإنكار النبوة، وبحسب

111: لما كان إضعاف مسألة النبوة يوهي مسألة الإمامة بالتالي، فالشيعة يقولون بالتشاكل بين الأنبياء والأئمة، كان علماء الإسماعيلية أكثر من تصدى للرد على الرازي ونقض آرائه، راجع بالخصوص الدراسة التحليلية لكتاب الطب الروحاني للرازي طبعة طهران سنة 1378 هـ باهتمام الدكتور مهدي محقق.

112: ألّف الكندي في إثبات الرسل والدفاع عن علوم النبوة (راجع رسائل الكندي 28/1 بتحقيق أبو ريدة) وابن أبي أصيبعة ص 291، 292 ط نزار رضا، وللفارابي رد على الرازي (ابن أبي أصيبعة ص 608) وللحسن بن الهيثم ت 430 هـ رد في تثبيت النبوة (السابق ص 558) ورد عليه موسى بن ميمون في دلالة الحائرين (راجع مقدمة أعلام النبوة للرازي ص7)، ويعتبر صاعدُ الأندلسي الرازي معتنقاً لآراء الصابئة في التناسخ، والبراهمة في إبطال النبوة والثنوية في الإشراك، راجع طبقات الأمم ص 33 نشرة الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثولكية بيروت سنة 1912م.

113: صدرت تلك الطبعة عن الجمعية الفلسفية الإيرانية في طهران سنة 1397 هـ بتحقيق الأستاذين صلاح الصاوي (كاتب المقدمة العربية للنشرة) وغلام رضا (كاتب المقدمة الفارسية) وتقديم ودراسة سيد حسين نصر (بالإنجليزية)، وقد أضحت هذه النشرة الآن نادرة، وفي سنة 2003 أصدرت دار الساقي بيروت نشرة لهذا الكتاب بتقديم جورج طرابيشي، معتمداً على النص المحقق في النشرة القديمة.

ما يذكره أبو حاتم الرازي يمكن تلخيص الأسس التي بنى عليها الرازي إبطاله للنبوة على هذا النحو:

- العقل كافٍ وحده لمعرفة الخير والشر والضار والنافع في حياة الإنسان، وكافٍ وحده لمعرفة أسرار الألوهية، وكافٍ كذلك لتدبير أمور المعاش وطلب العلوم والصنائع، فما الحاجة بعد إلى قوم يختصون بهداية الناس إلى هذا كله؟!

- لا معنى لتفضيل بعض الناس واختصاص الله إياهم بإرشاد الناس جميعًا؛ إذ الكل يولدون وهم متساوون في العقول والفطن، والتفاوت ليس إذًا في المواهب الفطرية والاستعدادات، وإنما في تنمية هذه المواهب وتوجيهها وتنشئتها.

- الأنبياء متناقضون فيما بينهم، وما دام مصدرهم واحدًا -وهو الله- فيما يقولون، فإنهم لا ينطقون عن الحق والنبوة بالتالي باطلة [114].

وقد ناقش الرازي (أبو حاتم) كل ما ذكره أبو بكر الرازي[115] هنا، نقتبس منه:

"وإذا ثبت [...] أن يكون في الناس عالم ومتعلمٌ، وإمام ومأموم، وأن تكون فيهم مراتبٌ ودرجات، جاز أن يختص الله بحكمته ورحمته قومًا، ويصطفيهم من خلقه، ويجعلهم رسلًا إليهم، ويؤيدهم ويفضلهم بالنبوة، ويعلمهم بوحي

114: راجع: من تاريخ الإلحاد ص 241، وقارن ما يورده أبو حاتم الرازي في أعلام النبوة والرد على الرازي الملحد، الفصل الأول ص 15 - 20.

115: قارن موقف القاضي عبد الجبار من الرازي، حيث شدد هجومه على الناحية الشخصية للرازي، ولم يحلل عقيدته في النبوة، بل اتهمه بأنه كان نصرانيًا ابن نصراني، يتستر بالنصرانية ويذهب مذاهب الملحدة، وتسمى بمحمد، وكان اسمه يوحنا، وإنما فعل ذلك مكيدة للإسلام، راجع:» تثبيت دلائل النبوة» 623/2.

منه ما ليس في وسع البشر أن يعلموه؛ ليعلّموا الناس ويرشدوهم إلى ما فيه صلاح أمورهم دينًا ودُنيا، ويسوسوا الخلائق بمثل ما يرى من هذه السياسة العجيبة التي يرتاض عليها الخاص والعام، والعالم والجاهل، والكيِّس والبليد ويستقيم أمر العالم بهذه السياسة التي نشاهدها بالشرائع التي شرعوها، واستغنى بها البليد الغليظ الطبع عن النظر في دقائق علوم الفلسفة التي يتحيرون فيها وتبهر عقولهم ويعجزون عن ضبطها وإن اجتهدوا» [116].

رابعًا: علل تكذيب النصارى:

ورد في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي ذكر وحش عظيم سِمتُه عجيبة، وهي العدد [666]، يخرج من الهاوية ويتوّج نفسه على عرش جبل المعبد ويحكم العالم، وكان يبدو للمسيحيين أن الإسلام يتفق اتفاقًا تامًّا مع هذه الرؤى القديمة؛ إذ فتح المسلمون بيت المقدس وبنوا مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وقيل أيضًا: إن محمدًا قد أتى بعد المسيح حيث انتفت الحاجة إلى تنزيل جديد، ولكنه نصّب نفسه نبيًّا، لكنه بالاستناد إلى ما ورد في رؤيا يوحنا يبدو أن محمدًا دجال كاذب نصّب نفسه نبيًّا ليخدع العالم وأنه فاسق يستمرئ الفسق ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وكان يجبر الناس على اعتناق عقيدته بحد السيف، وقد أنشأ هرطقته الخاصة بعد أن تعرّف بالصدفة على العهدين القديم والجديد، وبعد أن تحاور مع راهب آريوسي، وبعد أن أحرز لنفسه حظوة لدى الشعب عبر تظاهره بالتقوى، كان يلمِّح بأن كتابًا آتيًا من السماء فد أوحى به إليه من الله، وفي إنشائه

116: أعلام النبوة، ص 19، 20.

لبعض المعتقدات المثيرة للضحك في كتابه، نقل إليهم هذه الطريقة في عبادة الله»[117].

وقد كان هذا الكلام معبرًا عن وجهة النظر المسيحية ولا يزال كذلك، إذ يقول مترجم نص "الهرطقة المائة" ليوحنا الدمشقي معلقًا على تلك الأوصاف الخاصة بنبي الإسلام والمسلمين: في استعماله (أي يوحنا) عبارات لاذعة كهذه تجاه المسلمين كان في نية قديسنا أن يصور لهم (أي المسلمين) بواقعية ما ستؤول إليه حالهم إذا ما أصرّوا على المضي قدمًا في مزاعمهم المُنحرفة [....] إذ بوضعه نصب أعينهم هذه الحالة الزرية يحرضهم على اجتنابهم بغية عدم السقوط في الخطيئة التي تحدر الإنسان إلى مستوى البهائم وتزيغه عن الهدف الحقيقي الذي دُعي إليه»[118].

و إذا كان هذا هو حال العصر الذي تربّى فيه الطبري فإنه مع مرور الأيام، واستعانة الخلفاء المسلمين بالعنصر غير الإسلامي لإدارة الشؤون المالية، والكتابة والمراسلات، وتعليم الأبناء، تولدت مناقشات وحوارات حول أمور تتعلق بالأديان، خاصة عند اختلاف العلماء بعضهم إلى بعض في حلقات الدرس والنقاش والترجمة.

ولم يكن الطبري ببعيد عن هذا المحيط، فتخبرنا نشأته الأولى بطول باع والده في الطب، وهو العلم الذي نال حظوة عند أرباب السلطة في الإسلام،

117: راجع: كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص 36، وما بعدها (فصل: العدو محمد) ترجمة فاطمة ومحمد عناني ط سطور سنة 1998. يوحنا الدمشقي (الهرطقة المائة) ص 50 مُعرب عن اليونانية سنة 1998 م دون بيانات [ولا يُذكر فيها اسم المعرّب وصاحب الحواشي على نصّ].وقارن ما ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي 13 / 11-18 وآثرت النقل عن يوحنا الدمشقي بصرف عن النظر عن حدته الكلامية في وصفه للإسلام؛ باعتباره ممثلاً للبدايات الأولى للجدل الإسلامي المسيحي ومعبراً عن معتقد علماء المسيحية وقديسيهم.

118: الهرطقة المائة ص 59.

إضافة إلى إحاطته بشؤون الدين المسيحي، وعليٌّ الطبري نفسه - كما تقول التراجم، وكما يظهر من تواليفه - قد ورث العلمين، إضافة إلى اطلاعه على وثائق الجدل الخاصة بالأديان من خلال عمّه الذي كتب في هذا الشأن، بحكم قربه من مجالس ذوي السلطان، كل هذا لا يمكن استبعاده من التأثير في كتابات الطبري وخلفياته حين الحديث عما يتعلق بإنكار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

يتحدث الطبري عن إنكار نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويخصّ النصارى بحديثه فيذكر علل تكذيبهم بالنبي محمد، مُلخصة في نقاط ثلاث:

أولاً: أنا لم نجد أحدًا من الأنبياء تنبأ عليه قبل مجيئه.

ثانيًا: أنا لم نجد في القرآن ذكر آية ولا نبوة لمن جاء به.

ثالثًا: أن المسيح أنبأنا أنه لا نبي بعده[119].

فيقوم الطبري بالرد على النقاط الثلاث؛ فعن الحجة الأولى للنصارى، المتعلل بها، لا يرى الطبري فيها حجة، فإن هي إلا محض عناد، ويتضح ذلك من خلال المقارنة بين حال النبي محمد وحال كثير من أنبياء بني إسرائيل مثل موسى وداود وأشعياء وأرمياء، فلم يتنبأ أحد بقدومهم ومع ذلك آمن بهم وبنبوتهم الكثير، دون التعلل بهذه العلة، فإذا اعتبرنا حجية النبوءة المتقدمة دليلاً على نبوة النبي، يكون الإيمان بهم مخالفًا للحجة والحق إذن، وإن لم يكن ذلك، كان الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) صحيحًا.

ولا يختلف أسلوب الرد على الحجة الثانية عنه في الأولى، فيقارن الطبري بين حال النبي محمد وأنبياء العهد القديم مُتخذًا من الإلزام مرتكزًا لبناء

119: انظر «الدين والدولة» ص 17.

حجته على الخصم ودحض حجته، فإذا كان القرآن قد خلا من ذكر الآيات والنبوات فكذلك زبور (مزامير) داود، وعلى الرغم من ذلك اعتبره المؤمنون به نبيًّا[120]. ويخلص الطبري من هاتين النقطتين إلى أنه لا حاجة في تصحيح خبر الأنبياء إلى نبوة متقدمة عليهم ولا إلى تقييد كتبهم لآياتهم وأعلام نبوتهم، ويعضّد ذلك باستقرائه لأحوال أنبياء بني إسرائيل.

إذا ما تم للطبري دحضه للعلتين السابقتين وإظهار عوارهما، انتقل إلى العلة الثالثة التي نافر بها النصارى النبي (صلى الله عليه وسلم) وجانبوه من أجلها، وهي إخبار المسيح إياهم ألا نبي بعده، أو كذا ورد في كتابهم، فيقوم الطبري بالرد عليها من خلال استناده إلى ما ورد في رسائل الحواريين (أعمال الرسل)، إذ تخبر هذه الرسائل عن أنبياء قادمين من بيت المقدس، وأنبياء وعلماء في أنطاكية (مثل: برنابا، وشمعون، وشاول) وتحدثت الرسائل أيضًا عن نساء متنبئات، كما أن النصارى يسمون قومًا أتوا بعد المسيح رسلاً وأنبياء، مثل فولس (بولس) نفسه.

لم يذكر الطبري إذن غير هذه العلل الثلاث كدوافع لتكذيب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أو عدم الاعتراف بنبوته؛ لكن يجوز لنا أن نتساءل: هل كان الطبري يجسد واقعًا عايشه حين تعلل بهذه العلل الثلاث التي ذكرها؟ هل كان يفكر قبل إسلامه بهذه الطريقة؟ أم تجسدت هذه العلل في تلك الأحاديث الجدلية التي كانت واقعة في تلك الفترة؟ أم هل اطلع الطبري على هذه العلل فيما كان يكتبه عمه رادًّا على أهل الأديان؟

لا تُسعفنا المصادر التي بين أيدينا الآن، والتي مثلت الجدل في هذه

120: السابق نفسه ص 18.

الفترة مما بقي لدينا من الوثائق المفقودة، للإجابة بقطعٍ على هذه التساؤلات، إلا أنه يترجح لديّ فرضية أن الطبري كان يجسد واقعًا، ويعبر بالفعل عما كان يقوله نصارى عصره، تتأكد لدينا تلك الفرضية عند المقارنة بين كلام الطبري المذكور آنفًا وما ورد في تلك المحاورة التي جرت بين الخليفة العباسي المهدي وطيماثاوس الجاثليق النسطوري[121].

فأولى العلل في عدم الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) كنبيٍ، يوردها الطبري على لسان النصارى: "أنّا لم نجد أحدًا من الأنبياء تنبأ عليه قبل مجيئه" نجد لها مقابلاً في سؤالات المحاورة والجواب عليها من طيماثاوس:

"قال: فلمَ لا قبلت شهادة الأنبياء والإنجيل على مُحمد؟

قلت: لم أجد لهم شهادة واحدة عليه لا باسمه ولا بأفعاله، فعبس وقال: لا!

قلت: لا والله! ولو وجدت لما تركتُ ما أعتز به في الدنيا وأُثاب عليه في الآخرة"[122].

وفي صياغة أخرى لنص المحاورة يرَد الحوار على هذه الصورة: " لم أر

121: يذكر د. محمد حامد البكري في دراسته عن هذه «المحاورة» أنها تمثل وجهة النظر المسيحية أصدق تمثيل، ويؤكد ناشر المحاورة باللغة السريانية (منغانا) أن غرض البطرق النسطوري الرئيس هو: أن يعرض على مخالفي دينه صورة إجاباته على أسئلة الخليفة، وربما قد أهمل في تسجيل المحاورة كل كلمات الخليفة، ولكنه اكتفى بذكر خلاصة اعتراضاته، راجع ص 43 دراسة محمد البكري لمحاورة الجاثليق مع الخليفة المهدي، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) مج 12 ج 2 ديسمبر 1950.

122: المحاورة (ص 29 نسخة قديمة منشورة بمجلة المشرق تأخذ هذه النسخة رقمين، رقمًا تسلسليا مع صفحات المجلة ورقما خاصا بالمحاورة نُحيل عليه)، تجدر الإشارة إلى أن للمحاورة أكثر من نشرة، والباحث يُحيل على هذه النشرات المتعددة؛ لأن المحاورة في الأصل كُتبت باللغة السريانية، وتختلف كل نشرة في صياغات بعض الجمل في نسختها العربية، لذا كلما وجدت النص أضبط في واحدة عند الاقتباس عنها أحلت عليها، دون الالتفات إلى عدم ضبطها لجمل أخرى.

ألبتة آية واحدة في الإنجيل أو في الأنبياء وغيرهم تشهد عن مُحمد وعن أعماله واسمه "[123].

وكذلك يرد قوله: "لم نقبل محمد من حيث ليس لنا برهان واحد عنه في كتبنا".

"لو رأيتُ نبوة واحدة في الإنجيل عن مجيء محمد لتركتُ الإنجيل وتبعت القرآن"[124].

وتأتي العلة الثانية عند الطبري: "أن القرآن خالٍ من ذكر آية أو نبوة لمن جاء به". فإذا قابلنا كلامه باعتراضات طيماثاوس على الإسلام نجده يقول: "يُعلم أن جميع ما ورد من كلام الله في التوراة والأنبياء والإنجيل لم يقبله الناس في أول وروده إلا بالآيات كما صنع موسى والأنبياء و المسيح ورسله؛ على ما تشبهها به كتبهم أعني التوراة والنبوات والإنجيل. فأما هذا الكتاب الأخير (القرآن) فلم تُذكر فيه آيات"[125].

ونأتي للعلة الثالثة التي يصوغها الطبري كالتالي:

"فإن قلتم إنا: نافرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) وجانبناه لأنه لا نبي بعد المسيح". نجد صاحب المحاورة يورد هذه العلة ويستشهد بها بما يرد في العهد القديم، فبعد قراءته لنصوص كتابية ترد عند أشعياء ويعقوب ودانيال يخلص إلى نتيجة مؤداها "جميع النبوات التي صارت انتهت بالمسيح، ومن بعد المسيح لا تكون نبوة ولا نبي. فالأنبياء جميعهم تنبأوا عن يسوع المسيح"[126].

123: المحاورة ص 23(نشرة مستقلة ط دار المشرق بيروت).

124: المحاروة ص 23، 25 النشرة السابقة.

125: المحاورة ص 31 (نسخة قديمة منشورة بمجلة المشرق).

126: المحاورة ص 30 (نشرة مستقلة ط دار المشرق بيروت).

على أنه في صياغة أخرى لنفس المحاورة يقول طيماثاوس «إن بعد المسيح لا يرد نبي، وقال دانيال: «وحتى يتم الرؤيا والأنبياء ويأتي المسيح «وفي الإنجيل قال المسيح: «إن الناموس والأنبياء إلى يوحنا»، ثم حذرنا من قبول الأنبياء والمُسحاء الواردين بعد وروده»[127]. يتأكد لدينا مما سبق من مقارنات تمثيل الطبري لوجهة نظر نصارى عصره، وأن ما يذكره ليس من قبيل الافتراضات الجدلية التي تُصاغ ويرد عليها، بل هو واقع يعيشه ويدينُ به من يوجه الطبري رده إليهم.

بقي لنا هنا أن ننظر هل أجاد الطبري في مناقشاته تلك العلل الثلاث؟ أم اكتفى بترديد عبارات وكلمات نابعة من إيمانه وعاطفته نحو الإسلام؟ هل قام بمصادرة الأقوال والرد اعتمادا على رفعة الإسلام و ضِعة النصرانية؟ أم على بناء جدلي استمده من اطلاعه على الكتابات الجدلية وعلى منهجه الخاص؟

تُظهر مناقشة الطبري المختصرة للعلل الثلاث السابقة اطلاعًا على الأعمال الجدلية الخاصة بهذه الأغراض، خاصة بعد المقارنة السابقة، وعلى الرغم من اختصاره في مناقشة العلل وظهور نصوص الكتاب المقدس وحده؛ لأن هذه العلل هي ما ستتشكل منها مناقشة الطبري وحواراته مع النصارى في كتابه عن إثبات النبوة، مما سيتعرض البحث له في حينه بالتفصيل، فإن هناك ملاحظات على تلك المناقشة المختصرة، يمكن أن نعقب هنا بها:

يبني الطبري أغلب ردوده هنا على معرفته المسبقة بالكتاب المقدس، ويقوم من خلال سرده للأمثلة باستخلاص قاعدة يحتكم إليها، ويعتبرها ملزمة له ولغيره، ويفترض أنها مانعة للخصم من الرد ونشير بالخصوص إلى ما يستخلصه من أحوال أنبياء العهد القديم؛ إذ يرى أن أغلبهم لم يتنبأ عليه أحد

127: المحاورة ص 34 (نسخة قديمة منشورة بمجلة المشرق).

من قبل، وعليه: ليس شرطا في إثبات نبوة (نبي) أن يتنبأ عليه أحد من قبله، وإلا فما علة تصديق هؤلاء الأنبياء[128] ؟!

ولا نعرف وقع هذه الردود من الطبري على النصارى المعاصرين له، ولا من أتوا بعده؛ نظرًا لندرة المصادر المسيحية التي تُمثل هذه الفترة، وإن وُجِدت بعض محاورات أو مسائل وأجوبة، فإنها خلت أو هُمِّشت فيها تلك الاعتراضات الإسلامية، وجرى الحديث فيها على صورة الشرح والبسط للمعتقدات المسيحية دون مناقشة ما ورد على سبيل المثال عند الطبري[129].

رفَضَ الطبريُّ ذلك الرأي القائل بأنه «لا نبي بعد المسيح»، وربما كان اعتماده هنا على ما ورد في محاورة طيموثاوس من اقتباسه لنص الإنجيل القائل: «فقد توالت جميع نبوات الأنبياء وآيات الشريعة حتى انتهت إلى يوحنا» ويقوم الطبري بلفتِ النظر بالمقابل إلى ما ورد في الإنجيل مشيرًا إلى أنبياء، ومن خلال ما يستشهد به يسقط اعتراض النصارى على نبوة محمد بهذه العلة، ولا نرى عند طيموثاوس أية تفاصيل تجيب على ما يورده الطبري.

لكن يؤخذ على الطبري هنا عدم توضيحه لمفهوم النبوة، وهل هناك اتفاق بين فكرة النبوة في الإسلام والمسيحية؟ لأن هذا سيطرح إشكالاً آخر، لا يرى في كلام الطبري حجة على خصمه، إذ يذكر الأب قنواتي أن "هناك اختلافًا جوهريًا بين المعتقد المسيحي للنبوة والمعتقد الإسلامي، ففي نظر المسيحية

128: انظر «الدين والدولة» ص 18.

129: أقول هذا بخصوص مؤلفات بعينها من مثل: محاورة طيموثاوس مع المهدي، وكتاب البرهان والمسائل والأجوبة لعمار البصري، بصرف النظر عما يعتري الأول من شكوك تاريخية حول صحة المحاورة ونسبتها إلى ذلك العصر، وما ينقص الثاني من فقرات خاصة بدين الإسلام سقطت من نسخة المخطوط الأصلي - حسب ما يقول الأب ميشال الحايك محقق الكتاب - ولا يعد الحديث هنا بمثابة الجزم، إذ ربما تظهر مؤلفات أو مخطوطات تمثل هذا العصر، يرد فيها ما يُجلي هذه الرؤية.

أن النبوة الكاملة النهائية قد تحققت في يسوع المسيح غير أنهم يعتقدون أن روح النبوة لا يزال يظهر من جيل إلى جيل»[130].

وإذا كانت روح النبوة لا تزال موجودة بعد ظهور شخص يسوع المسيح، فإن مجيئه على الأرض أبعد من أن يُبطل موهبة النبوة، بل قد دعا بالعكس إلى التوسع فيها، فالرؤيا والنبوة قد صارتا من الأمور العادية عند شعب الله الجديد والموهبة الروحية بالنبوات توافرت كثيرا في الكنيسة الرسولية[131].

وبذا نكون أمام احتمالين:

أولهما: أن يكون الطبري بالفعل قد ذكر علة يتعلل بها النصارى على تكذيبهم لنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد صح للطبري إسقاط هذه العلة بما أورده من وجود أنبياء ونبوات في المسيحية بعد المسيح، وتفوق حجته على حجة طيموثاوس في حواره مع المهدي.

ثانيهما: ألا تكون العلة التي ذكرها الطبري ممثلة للواقع وهي من قبيل الافتراض؛ إذ النصارى أنفسهم يؤمنون بوجود أنبياء بعد المسيح، وبتجدد ظاهرة النبوة والتعليم النبوي، لكنهم لا يؤمنون بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على نحو خاص، غير ما يفهمه الطبري من معنى النبوة وتعاليمها في الإسلام، وخاصة أن النبوة عندهم أمر عاديٌّ، دعا المسيح إلى التوسع فيها، امتثالًا لكلام موسى وتمنيه أن يصبح أبناء الله كلهم أنبياء، ويتم التعرف على النبي من خلال تمييز الأرواح، والتعليم النبوي لن ينقضي [132]!

130: الأب جورج قنواتي «المسيحية والحضارة العربية» ص 30 ط دار الثقافة مصر 1992.

131: راجع أعمال الرسل 27/11، 1/13، 10/21، معجم اللاهوت الكتابي (مادة: نبي) ص ص 796-830 ط 5 دار المشرق بيروت 2004.

132: راجع: السابق نفسه.

على عكس رؤية الإسلام للنبوة تمامًا والتي يتم فيها اصطفاء الله لشخصٍ ذي أخلاقٍ معينة، يختصه برسالة في فترة من الزمن، محدودة أو ممدودة ويؤيده بمعجزاته وبكلامه؛ ويترتب على ذلك قصور طيموثاوس في رده على المهدي واضطراب حجته، وبنفس الوقت اعتبار كلام الطبري غير مطابق لما تراه الرؤية المسيحية كما تعرضها مصادرها.

تأتي ثالث الملاحظات على أهمية ردود الطبري السابقة على علل تكذيب النصارى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ممثلة في قيمتها التاريخية من حيث مقاربتها لوجهة النظر المسيحية آنئذ، وتصويرها للرد الإسلامي؛ لأن هذه العلل سيتم ترديدها لاحقًا في أغلب المؤلفات الجدلية، ولن نعثر على ما يزيد عنها، إلا ما كان منبثقًا منها (تفريعًا) أو معتمدًا على رؤية مجتزئة لبعض ما ورد في آي القرآن مما ستشير إليه بعض المؤلفات، من مثل: أن نبوة محمد لا حاجة إليها، وأنه وإن كان نبيًا فإنه لم يُبعث إلا إلى العرب المعاصرين له في أرضه[133].

إن القراءة المتأنية لما يكتبه أهل الجدل هنا بخصوص نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، على المستويين الإسلامي والمسيحي، وتلك المناقشات الحقيقية والفرضية، تقفنا على نقطة رئيسة مهمة، وهي أن السبب الحقيقي لعدم تصديق المسيحيين بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) راجع بالأساس إلى مخالفة نبوته وأقواله وكتابه للمعتقدات الأساسية للمسيحية، فالقرآن يضع عيسى أو (يسوع المسيح) في مصاف الأنبياء، ويرى فيه الأخ والشريك في رسالة السماء، ويخبر القرآن أنه عبدٌ لله ولا يعدو أن يكون

133: راجع: بولس الأنطاكي، في رسالته إلى أحد المسلمين ص 15، 16 مجلة المشرق عدد 15عام 1904م، وابن العسال (الصفي): «الصحائح في جواب النصائح» ص 37-38 ط مطبعة عين شمس بمصر 1927م.

رسولًا ونبيًّا، ويحكم القرآن على المعتقدين بالتثليث بالكفر ويرفض بشدة عقيدة التجسد والخلاص والفداء، فكيف يتم بعد ذلك الاعتراف بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)؟!

وحتى على مستوى النظر في أخلاق محمد ودعوته وسيرته، لا يرتفع محمد إلى درجة النبوة أو الرسالة - من وجهة النظر المسيحية - وتجدر الإشارة هنا إلى نص كلام طيموثاوس الوارد في محاورته للخليفة المهدي فعلى الرغم من تلك المشتركات الكثيرة بين محمد وأنبياء العهد القديم قبله، لا يستحق محمد وصفه بالنبي «إن محمدًا يستحق المدح من جميع الناطقين وذلك لأجل سلوكه في طريق الأنبياء ومحبي الله؛ لأن سائر الأنبياء قد علموا عن وحدانية الله ومحمد علم عن ذلك، فإذن هو أيضًا سلك بطريق الأنبياء، ثم كما أن جميع الأنبياء أبعدوا الناس عن الشر والسيئات وجذبوهم إلى الصلاح والفضائل فإذًا هو أيضًا قد سلك في طريق الأنبياء»[134].

وتُمثل هذه الرؤية أفضل الرؤى في الجدل المسيحي الإسلامي، هذا إذا ما غضضنا الطرف عن أن تلك الأقوال قيلت في حضرة سلطان مسلم، وربما كان فيها بعض مجاملة، فباقي مقالة طيموثاوس لا تدعم هذه الفكرة.

وهنا يأتي دور الطبري في تثبيت فكرة أن مثل مُحمدٍ صلى الله عليه وسلم كمثل المسيح، لا يفترقان بل يشتركان في معانٍ وخصالٍ حدّها الطبري بعشرةٍ، من كنّ معه ووجدن له وجبت له النبوة ولزمت حجّة الله البالغة من كفر به، وما اجتمعت لأحد قط إلا لمحمد والمسيح عليهما السلام، وهي:

- دعاؤه صلى الله عليه وسلم إلى الفرد الدائم العلاّم العادل، الذي لا يُغالب ولا يُجار وموافقته في ذلك جميع الأنبياء.

134: المحاورة (ص 34 نسخة قديمة منشورة بمجلة المشرق).

- ما كان عليه في نسكه وعفّته وصدقه ومحمود سُننه وشرائعه.

- أنه عليه السلام أظهر آيات بيّنات لا يأتي بها إلاّ أنبياء الله ونخباؤه.

- أنه تنبأ على أشياء غائبة عنه، فصحّت في زمانه.

- أنه تنبأ على حوادث جمّة من حوادث الدنيا ودولها صحّت بعده.

- في أنّ الكتاب الذي جاء به آية من آيات النبوة، بالضرورة وبالحجج التي لا تُدفع.

- أن غلبته الأمم آية بيّنة، بالضرورة والحجج التي لا تُدفع.

- أن دعاته الذين نقلوا أخباره خيار الناس وأبرارهم لا يُظنُّ بأمثالهم الأكاذيب والإفك.

- أنه عليه السلام خاتم الأنبياء، وأنه لو لم يُبعث لبطُلت نبوات الأنبياء فيه وفي إسماعيل عليه السلام.

- أن الأنبياء عليهم السلام قد تنبأت عليه قبل ظهوره بدهرٍ طويل، ووصفت مبعثه، وبلده، ومسيره، وخضوع الأمم له والملوك لأمته[135].

لهذه المعاني العشرة سيخصص الطبري كتابه «الدين والدولة في إثبات نبوة مُحمد» ويولي كل معنى منها عناية بالشرح والمناقشة.

135: راجع: «الدين والدولة» ص 16، 17.

منهجي في التحقيق

- ضبط النص على النسخة الخطية المتاحة، مع مقارنتها بنشرة منغانا، وإثبات الصواب.

- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من القرآن الكريم.

- عزو النقول التوراتية والإنجيلية إلى مواضعها من الكتاب المقدس، مع مقارنة بعضها في ترجمات مختلفة في اللغة العربية للوصول إلى أقرب الترجمات الموازية لترجمة علي بن ربن الطبري.

- تخريج الأحاديث النبوية والآثار الواردة.

- شرح بعض المفردات اللغوية شرحًا موجزًا.

- التعريف ببعض المصطلحات الخاصة بالأديان.

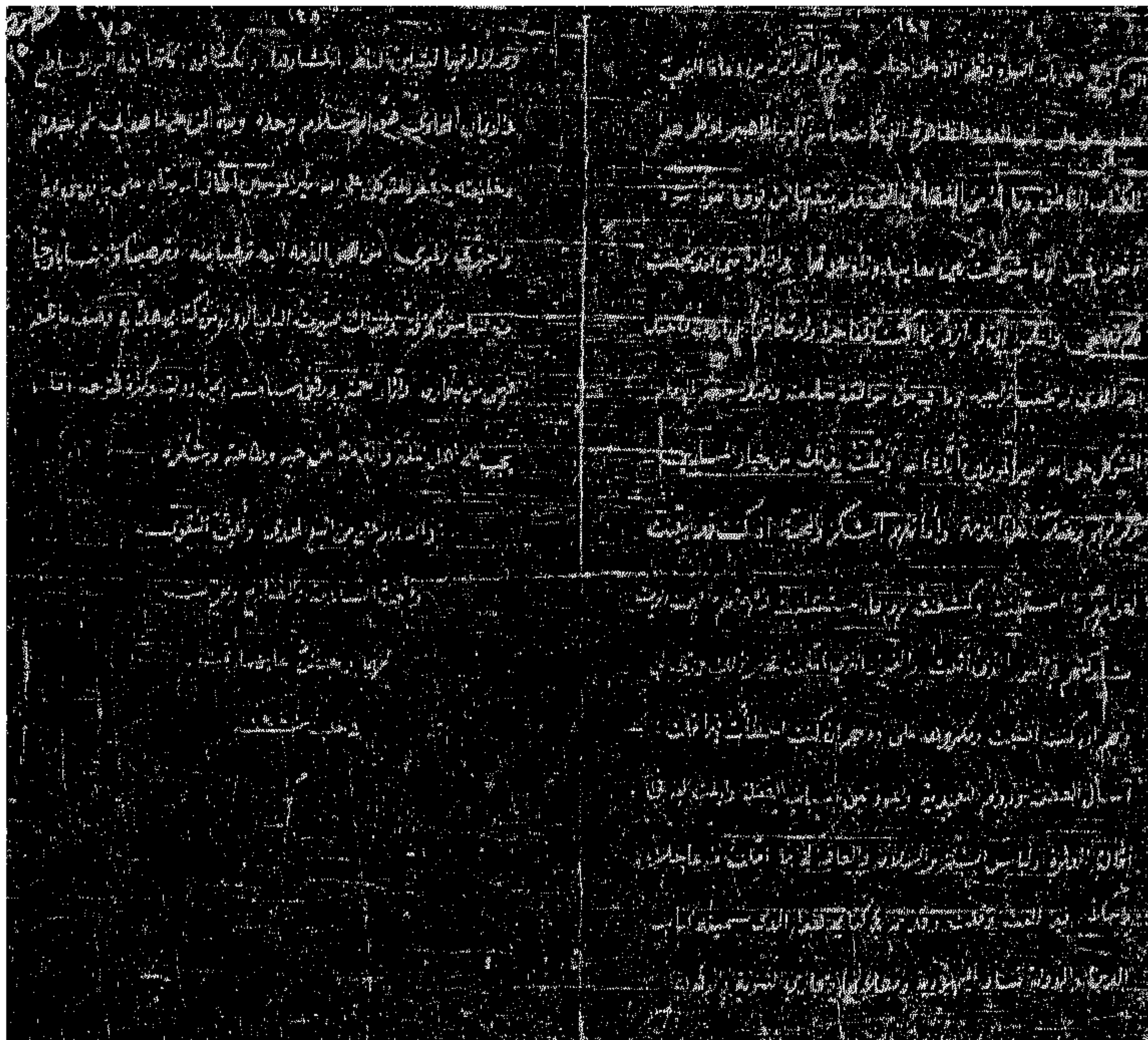
- ترجمة بعض الأعلام والتعريف ببعض البلدان والأماكن.

- وضع الفهارس التي تيسر على القارئ الإفادة من النص.

صور المخطوط

صورة الصفحة الأولى من الكتاب

الصفحة ١١٥، وفيها يذكر الطبري تصنيفه في الرد على النصارى.



الصفحة الأخيرة من الكتاب، وفيها يظهر اسم الخليفة العباسي المتوكل على الله.

النصُّ المحقّقُ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال علي بن ربَّن الطبري مولى أمير المؤمنين:

الحمد لله على دين الإسلام الذي من أَلِفَهُ فاز، ومن قام بهِ اهتدى، ومن نَصرهُ نجا، ومَن ناصَبهُ هلك. بهِ عُرِف البارئ، وعليه تحوم الأمم، وإليه تشوَّقت النفوس، وبه نَيْلُ الأملِ عاجلاً وآجلاً، لأنه النورُ المعمرُ والجسرُ المعبورُ إلى دار السلامة والخلود الذي لا كدر فيه ولا غرور، فجعلنا الله تعالى من أهل السُنَّة وجنَّبنا الباطل وما يجني على أهلهِ، وأن اللهَ حميدٌ محمودٌ[136] لا نهاية لملكه ولا مبدِّل لكلماته، إنه المنَان الحكيم الذي أظهر الحق وأناره، وفطر العباد وأرسل رسوله وحبيبهُ وخليله إلى الشاكين فيه يدعوهم إلى الفوز الدائم والنور الساطع، حتى إذا دنت واقتربت الساعة بعث الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلّم إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً، فَصَدَعَ بأمر ربه وأهب أعداءه بترغيب وترهيب وتعليم وتقويم، يحث على الملكوت ونعيمها، ويزجر عن النار والتهاون فيها، ويؤدي عن الله ما نزل به جبريل الملك إليه من التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يغادر حقًّا جاءت به الأنبياء قبله، بل يؤكده ويؤيده ويأمر بالإيمان بهم أجمعين، والصلاة على الأولين منهم والآخرين[137].

136: هذا الوصف سيعثر عليه الطبري لاحقًا في نصوص التوراة، مُتنزِّلًا على شخص النبي مُحمد بحسب تأويله للنصوص، انظر تفسيره لنصوص المزامير.

137: نجد التعريف ذاته بالإسلام من خلال الاعتماد على آيات القرآن عند كلّ من «الحسن

قال الله في محكم كتابه: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحاق وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" [سورة البقرة: آية 136].

وقال: "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ" [سورة البقرة: آية 285] الآية.

بن أيوب»، و «نصر بن يحيى» وكلاهما كان نصرانيًا تحوّل إلى الإسلام، وإن كان الثاني أسهب في ذكر الآيات القرآنية، فأورد في مقدمته أكثر من عشرين آية قرآنية [راجع:»النصيحة الإيمانية «ص 47-55]، ويقتبس الحسن بن أيوب نصّ الطبري - في استهلاله لرسالته التي كتبها إلى أخيه يذكر فيها أسباب إسلامه - هنا على النحو التالي:» وإذا فكرت في دين الإسلام الذي منّ الله عليّ به، وجدت أصوله ثابتة وفروعه مستقيمة وشرائعه جميلة. وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحد ممن عرف الله عز وجل منكم ومن غيركم، وهو الإيمان بالله، الحي القيوم السميع البصير الواحد الفرد الملك القدوس الجواد العدل، إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وإله موسى وعيسى وسائر النبيين والخلق أجمعين، الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، ولا ضد ولا ند، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، الذي خلق الأشياء كلها لا من شيء ولا على مثال، بل كيف شاء، وبأن قال لها كوني فكانت على ما قدر وأراد، وهو العليم القدير، الرؤوف الرحيم، الذي لا يشبهه شيء، وهو الغالب فلا يغلب والجواد فلا يبخل، لا يفوته مطلوب ولا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وكل مذكور أو موهوم هو منه وكل ذلك به وكل له قانت ون.
=

= ثم نؤمن بأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نفرق بين أحد منهم، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وسائر الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين، ذلك بما كسبت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد « [راجع: ابن تيمية»الجواب الصحيح» 2/ 352-353]..

وقال فيمن أشرك بالله عز وجل أو اتخذ له ولداً أو ندًّا: « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» [سورة الإخلاص].

وقال: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" [سورة آل عمران: آية64].

وقال: "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" [سورة التوبة: آية109].

فإلى هذا كان دعاؤه، وعليه أسَّس بنيان دعوتهِ، وبه افتتح شرائع دينهِ وشرائط حقهِ الذي كفر به مشركو العرب وحَملةُ الكتابِ، فإنهم كتموا اسمه وحرَّفوا رسمه الموجود في كتب أنبيائهم عليهم السلام، مما أنا مُظهره ومبيحٌ سرَّهُ وكاشفٌ سترهُ [138] حتى يراهُ القارئ عياناً ويزداد بالإسلام قوة وسروراً، وأسلُك في ذلك سبيلاً أسَدَّ وأجدى مما سلكَ غيري من مؤلفي الكتب في هذا الفن، فإنَّ منهم مَن قصَّرَ وبتر وأدغم حُجَّتهُ ولم يفسَر، ومنهم من احتجَّ على أهل الكتاب بالشعر وبما لم يعرفوه من كتبهم، ومنهم من حشَى دفَّتي كتابهِ بمخاطبة المسلمين دون المشركين ثم ترجم حججه بأوعر كلام وأبعده من الإفهام. حتى لو أراد المخالف أن يقول أنه في ذلك كحاطب ليلٍ أو حميل سيل يتعلق بكل شوكٍ وشجرٍ وغثٍ وسمين من الكلام، وأن الذي احتج به ليس ببيان بل كتمان، وليس بتبصير بل تعوير، ولا بتسهيل بل

138: يشير الطبري إلى تحريف أهل الكتاب بأيديهم اسم النبي في كتبهم؛ لكنه مؤمن أن اسمه الشريف موجودٌ في كتبهم، واستخراج النصوص التي تؤكد ذلك وتفسيرها هي المهمة التي خصص الطبري لها أغلب جهده في هذا الكتاب، وقد عثر على نصوص كثيرة، منها ما ذُكر اسم النبي فيها صراحة ومنها ما تنطبق فيها الصفات عليه وحده دون غيره.

توعير، كان ذلك له[139].

ومن ألَّفَ كتاباً في مثل هذا الفنّ الجليل الهادي المستنير العامّ المنفعة لأهل الأديان كلهم كان جديراً أن يجعله مفهوماً سهلاً وأن يخاصم نفسه وساجل خصمهُ ولا يعلو عليه ولا يربي. بل يُفهم ولا يُبهم ويُنصف ولا يظلم. ويستعمل الرفق ويُحسن سياقةَ الكلام وتنويره ويأتي بالبراهين والمعارضات التي إن ردّها المخالف[140] خرج عن نحلتهِ ودينه. فإنه إذا فعل ذلك به ركبهُ ورماه بسهمهِ واقتادهُ بزمامه. وقد تحرَّيتُ ذلك بعون الله تعالى وقرَّبتُ المعاني ليفهمها القارئ ولا يمتري، ولم أدَعْ لأهل الذمة حجة ولا مسألة صعبة ولا علاقة إلاّ حكيتُ، ثم حللتُ بتوفيق الله وعونه وبركة خليفته جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وبما اهتديتُ به واستفدت عنهُ وسمعتُ من ألفاظهِ وما هو مغرمٌ كَلِفٌ به مِن بَثِّ مثل هذا الكتاب[141]

139: يُفهم منه أن الكتابات في أدب الجدل والدفاع قبله كانت ضعيفة، وأخذت شكلًا حجاجيًا فارغًا من الأدلة والبراهين، سواءً في ذلك المنظوم أو المنثور، كما أنها تفتقر إلى المعلوماتية الكتابية (= معرفة التوراة والإنجيل) وتخلو من المرونة في الخطاب، ولا نملك إزاء ما يقوله الطبري إلا التوقف في تصديق هذه الأحكام أو تكذيبها، لأن مؤلفًا من هذه المؤلفات التي يتحدث عنها الطبري لم تصلنا، لكن ردودًا قليلة وصلت إلينا خاصة مما كتبه المعتزلة في هذا الباب، لا ينطبق عليها ما يقوله الطبري، انظر نموذجًا لذلك في نصوص أبي عيسى الوراق التي حفظها لنا يحيى بن عديّ في ردّه عليه. الورّاق (ردّ) = الرد على الثلث الفرق من النصارى، وهم اليعقوبيّة والنسطوريّة والملكيّة (العنوان في ص 119ظ). - في مخطوط باريس العربيّ رقم 167 (1228) - كتاب أعدّه للطبع أبيل: Armand Abel, Réfutation des melchites, jacobites et nestoriens sur l'union et l'incarnation, par Abu 'Isà Muhammad B. Harun al-Warraq, Traité polémique anti-chrétien du IXe siècle (الردّ على الملكيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة لأبي عيسى محمّد بن هارون الورّاق، مقالة هجوميّة على النصارى من القرن التاسع) - قدّم له وحقّقه ونقله إلى الفرنسيّة أرمان أبيل - غير مطبوع - المقدّمة (ص I-LXXXI) - النصّ والترجمة ص 1-68: رقم صفحة النصّ يوازي رقم صفحة الترجمة) - بروكسل، 1949.

140: الكلمات الثلاث المسوّدة ساقطة من نسخة «منغانا»؛ إذ لم يتمكن من قراءتها لخرم لحق النسخة التي اعتمد عليها في نشر النصّ.

141: يؤكد ذلك تاريخيًا كتابُ الفتح بن خاقان إلى الجاحظ، الذي يدعوه فيه لتأليف رسالته في الرد على النصارى «... واعكف على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجّل به إليّ وكن ممن حدا به على نفسه، لتنال مشاهرتك» عند ياقوت في «معجم الأدباء» 5/ 2114 نشرة إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م.

وتخليده إعزازاً لأسباب الدين، وإفلاجاً لحججهِ وترغيباً لمن جهل فضله فيه، وما ابتلى الله الإسلام وأهله في زمانه وتجدد لهم من كراماته، وتعرفهم من النماء والزيادة والاستعلاء برفق تدبيره. وإني وجدت جميع من خالف الإسلام إنما خالفوه لأربع علل:

1 ـ من الشك في خبر النبي صلى الله عليه وسلّم.

2 ـ الأنَفَةُ والعزّة.

3 ـ التقليد والألف.

4 ـ البلادة والغباوة[142].

فلعمري لو ميزوا الخبر وعقلوه لقبلوه ولم يدفعوه، ولما طلبوا ما عند الله بمخالفة أمر الله.

فالواجب علينا أن نقصد لتثبيت الخبر عندهم، ونفي الشك عنهم، ونبَيّنُ لهم أصولَ الأخبار وفروعها وعللها ومجاريها، والوجوه التي بها يُعرف حقُّها من باطلِها، والأسباب التي بها قبلت الأممُ أنبياءَها، وبها دانت لدعاتها. ثم نقابل أخبارنا بأخبارهم، ومَن نقلها إلينا بِمَنْ نقلَها إليهم، فإن كانت حُجتنا وحُجتهم في تصديقهم من يصدقون من أنبيائهم واحدة، فلا حجة لهم عند الله وعند أنفسهم في تكذيبهم صاحبنا وتصديق أصحابهم؛ لأنهُ إذا احتجَّ مختلفان في دعوى من الدعاوي بحُجَّةٍ واحدةٍ فهما فيها مشتركان سيَّان، يجب لأحدهما بها ما يجب للآخر لا محالة.

142: قارن أسبابَ قَبولِ النصرانية عند عمّار البصري ص 33 - 46 كتاب البرهان و المسائل والأجوبة، دار المشرق، بيروت، 1977.

في وجوه الخبر والإجماع العامي

الأخبار[143] كلها على ضربَين، إمَّا صحيح وإمَّا باطل. ولها ثلاث أوقاتٍ: خبرٌ ماضٍ، وخبرٌ مقيم، وخبرٌ مُنتظر.

ومنها ما يصدق مرة ويكذب أخرى، وهو كقولك: (جاء فلان أو شَخص)، فقد يكون ذلك حقًّا ويكون باطلاً.

ومنها: ما هو حقٌّ في كلِّ وقتٍ، كان أو يكون، ماضٍ أو مُستأنَف، لأنه خبرٌ كُلّيٌّ دائم جليٌ، وهو مثل قول لقائل: (دار الفلكُ أو هو دائرٌ غدًا)، أو قوله:(أشرقت الشمسُ أمس، وهي مشرقةٌ بعد سنة)، ومثل قوله: (إن أكثر ذوات الأرحامِ إذا وضَعْنَ أحْلَبْنَ، وأكثر ذوات الأجنحةِ إذا سافَدْن بِضْنَ،

143: ينفرد الطبري - على مستوى ما وصلنا من الردود والدفاعات الجدلية - بهذه المعالجة التفصيلية لقضية الأخبار وصحتها وثبوتها، على أن ذلك لا يعني أنه الوحيد في هذا الباب الذي طرق المسألة، فمن قبل أفرد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظّام حديثًا مطولًا للأخبار، حفظ لنا طرفًا منه نشوان الحميري في كتابه (الحور العين)، وكذلك فعل أحمد بن يحيى المرتضي في «المنية والأمل في شرح الملل»، ونأسف إذ لم نحصل على أغلب ما قاله النظّام بشأن الأخبار عمومًا، مما جعله محل اتهام دائم عند أغلب المخالفين للمعتزلة، ووُصم بالكفر؛ باعتباره طعّانًا في الأخبار، منكرًا لما ثبتت صحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. راجع الحور العين (ص 230-236)، تحقيق كمال مصطفى وتقديم محمد زاهد الكوثري، نشرة الخانجي (د.ت)، على أن الفقرة الخاصة التي يدرس فيها د. عبد الهادي أبو ريدة قضية الأخبار (ص16) غير كافية لاستجلاء حقيقة الأمر، وذلك على الرغم من أهمية كتابه عن النظام وآرائه الكلامية والفلسفية، فهو من أوائل الكتابات العربية التي أفردت جهود النظّام بدراسة مستقلة، وقد تناول بسام الجمل «مطاعن النظام في الأخبار» في بحث خاص، راجعه: في حولية الجامعة التونسية، عدد (44) سنة 2000م.

وإذا بِضْنَ فرَّخنَ. فهذا وما أشبه خبرٌ حقٌّ كُلُّه في كل وقت وهو الإجماع الأول الأعمُّ(144).

ومن الأخبار: ما هو كَذِبٌ كُلُّه في كل وقت تقدّم أو تأخّر، وهو قول القائل: (هذا أنورُ من الشمس وأحلى من الشَّهْدِ)، (وهذا الفرَسُ أسرعُ مِن البرق أو أقطف من قُرَادٍ)، وقولُهُ: (اجتمع الناسُ كلُّهُم حتى لم يبقَ أحدٌ)، (وأن فلاناً خير البشر وأعلمهم كلهم)، وأن عنده عَلْقًا يُساوي كل شيءٍ، وأن بلادهُ أعمر بلادِ الله كلها. فهذا وما أشبهُ من الكلام كذِبٌ كلُّه، لكنه مستعمَلٌ بين أكثرَ الناسِ في مجاز كلامهم غير مُستنكر.

وبعد الإجماع الأول الأعم الذي ذَكرتُ، إجماعٌ ثانٍ، هو دون الأول في الكثرة والعموم، مثل خبر آدم وحواء، وأنهما أبوَا البشر. فإنهُ صحيحٌ عندنا لا شكَّ فيه؛ لإجماع أكثر الناسِ عليه وشهادات الأنبياء على صحتهِ(145)، وهو

144: قارن موقف الجاحظ في «حجج النبوة» حيث يشير إلى تأكيد أمر الإجماع باعتباره أصلا من أصول الشريعة، وبه يثبت الخبر.[«حجج النبوة» ضمن مجموعة الرسائل الكلامية ص 132، 133 تقديم علي أبو ملحم، منشورات دار الهلال بيروت 1987م].

145: يروي سفر التكوين خلق آدم في الإصحاح الثاني. ويخالف جبير فيروي أثراً لا سند له يقول: «كان قبل خلق آدم نبي بعثه الله إلى أرض اليمن» البدء والتاريخ (6،7/3)، ويروي البلخي تلك الآثار التي تقول بأوادم قبل آدم بصيغة التضعيف (وزعم)، راجع البدء والتاريخ (69/2) وما بعدها.

عند خَلْقٍ كثيرٍ كذبٌ وزورٌ، مثل الهند[146] والصابئة أو أشباههم[147].

146: زعمت فرقة من الهند أن أول ما كان من ظهور الإنسان: أن السماء ذكر والأرض أنثى، وأنه مطرت السماء فقبلت الأرض ماءها بمنزلة قبول المرأة ماء الرجل في رحمها وأجلها الفلك بسرعة جريه ودورانه فبدا أول ما بدا هذا النبت الشبيه بالإنسان الذي يسمى: يبروح الصنمي (السابق 76/2)، وحكي عن بعض أهل الهند أنهم يزعمون أن آدم خرج من عندهم هارباً(97/2).

وفي كتاب الفرس: وخلق الإنسان في سبعين يوماً وسماه (كيومرث) ثم طعنه الشيطان، ثم تخمرت طينة في الأرض خرج منها نبات، ظهر في وسط النبات صورتان ملتفتان بورق من ذلك النبات، أحدها ذكر والآخر أنثى، واسم الذكر: ميشي، والأنثى: ميشانه، ومرتبة هذين عند الفرس مرتبة آدم وحواء عند أهل الكتاب وسائر الأمم (77/2).وحكي عن أهل بابل أن هرمس الأول قبل آدم بزمان طويل (97/2). وهذه كلها أخبار (لا يصح الوثوق بها) والأصح من ذلك ما كان عن أمين صادق، ولا أصدق من كتاب الله ولا آمن من رسوله صلى الله عليه وسلم (98/2).

147: كون آدم أبي البشر بمثابة مسلمة عند المسلمين، وأهل الكتاب، ويعتبر الإمام محمد عبده أن تسليم المسلمين في ذلك اعتمد على ظاهر النصوص؛ من مثل قوله تعالى في مخاطبة الناس:»يا بَنِي آدَمَ» [الأعراف35]، كما اعتمد على سلسلة النسب الواردة في التوراة، ويعلق الأستاذ الإمام على ذلك بقوله: ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود، وإن عزوه إلى موسى عليه السلام؛ فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة، وأشار إلى اختلاف طوائف من المسلمين على كون آدم أبو البشر وأنه سبقه خلق كثير (الإمامية والصوفية)، ويعقب رشيد رضا على المسألة بأن القرآن قد خلا من نص قاطع يؤيد هذا الاعتقاد الشائع «راجع تفسير المنار [سورة النساء آية 1]ص-264 268». هذا وقد انتقد محمد البشر النيفر التونسي هذا التفسير للإمام محمد عبده في [مجلة المنارمجلد 13 - جزء (1) (ص22)]، وفي ذلك مقالات كثيرة على صفحات مجلة المنار مثل مقالة: محمد توفيق صدقي -الباحث المتخصص في الأديان آنذاك- والواردة في مجموعة مقالاته «الدين في نظر العقل الصحيح» والتي جمعها فيما بعد في كتاب وطبعت في المنار، ومقالة: مسألة خلق أبينا آدم لمحمد رشيد رضا، (المنار - مجلد 8/ج 24) (ص947). جدير بالذكر أن الإمامية والصوفية بالفعل يعتقدون بعدم أولية آدم في الخلق، لكن ما ذكره مؤرخ إمامي لا يقطع بقولهم بآدميين كثيرين قبله بل غاية ما ذكره «أن أول ما خلق الله نور محمد وعلي» البدء والتاريخ (150/1) ط باريس، خلافاً لما يذكره الألوسي في روح المعاني عن صاحب جامع الأخبار من الإمامية، ويعتقد الصوفية بأن الحقيقة المحمدية أو نور النبي هو أول المخلوقات؛ اعتماداً على حديث رواه عبد الرزاق بسنده «أول ما خلق الله نور بيك يا جابر»(كشف الخفاء للعجلوني(311/1) ط مؤسسة الرسالة - بيروت 1405هـ) وانظر هذا الحديث أيضاً في القطعة المكتشفة حديثاً من مصنف عبد الرزاق، والمنشورة في الإمارات بعناية عيسى الحميري 2005م.

وبعد الإجماع الثاني إجماع ثالث: وهو دون الثاني في الكثرة والعموم، وذلك مثل خبر الروم والهند والصين فإنهُ وإن كان أكثر من يجوع به سُوَقُ الناس وعوامتُهم فإنهُ حق لا شك فيهِ للإجماع القائم والشواهد الموجودة عليه.

وبعد هذا الإجماع الثالث إجماع رابع، وهو دون الثالث في الكثرة والعموم، وهو مثل خبر ظهور الإسكندر[148] والتبابعة وجَم المِلِكِ وأمثالهم. فإنهُ مقبولٌ صحيح لإجماع خلق كثير عليه. وغيرَ أنَّ مَنْ يُجْمع على خَبر هذه الأقاليم أكثر ممن يُجمع على خبر التبابعة والإسكندر.

وإجماع خامس يتوارثهُ أهلهُ منذ دهر طويل، مثل خبر البِدَدة والزنادقة والمجوس وهو حق عندهم لا يشكون فيه، وباطل عندنا لا يرتاب به، إنَّما ظهر بالمخرقَةِ والأغاليط، ثم صار عندهم ديناً بالتوارث والتقليد، ثم بالإلف والعادة.

فهذا من خاصيات الأخبار ولطيف مداخلها على الأنفس والعقول موجود غير مدفوع.

وإن منها ما إذا سمعه السامع طابت به نفسه، فطار في وجهه دمه، وذرفت عيناه ضحكاً واهتزت استغراباً، ومنها ما يُذري دمع السامع ويضني جسمه ويُذبل وجهه مثل أخبار الرزايا والنكبات، ومنها إذا سمعه السامع اهتز للجود ودر للمستحلب المستميح مثل مدح الأسخياء ووصف ما يعتاضون بجودهم من المدائح والجوائز في الدنيا والآخرة، ومنها ما يُبخل السامع ويؤيسهُ الخير

148: يذكر مؤرخو الإفرنج نقلًا عن فلوطرخس وأريائس اللذين كتبا تاريخ الأسكنر أنه ولد سنة 356 قبل المسيح، في العام الثالث من ملك أبيه فيليبس على مقدونيا، وعمر أرسطوطاليس 28 سنة، ولد في مدينة (بلا) التي بناها أبوه، وجعلها عاصمة مقدونيا وتلقى تعليمه على يد أرسطو وهو ابن الثالثة عشرة، راجع المقتطف مجلد سنة 1899م ص665 وما بعدها.

مثل ذكر من أفقرهُ التبذير واضطره إلى المسكنة والاستكفاف، ومنها: ما يغريه ويغضبه ويبسط يده بالضرب ولسانهُ بالشتم، ومنا ما يلهب شهوته ويحرك ساكنه ويغلب غرامه مثل ذكر الغواني ونعت محاسنهن وطيب نشرهن ولين ملمسهن وحسن مبتسمهن لا سيما إذا صيغ ذلك الخبر بجوابر النغمات الملهبة الشجية، ومنها ما يحمل على تقحمه الأهوال والاستقتال بعد انقراض المُخْبِرِ الأول بألف عام بل يزيد مثل ما ذكرنا من بَدَدَةِ الهند والمجوس وأشباههم، فإن من الهند من يحرق نفسه بضروب من الإحراق، ومنهم من يرمي ببدنه لسباع الطير حتى تأكله، ومنهم من يهيم على وجهه في الأرض الفلاةِ حتى يتلف فيها، ومنهم من يرمي نفسه من جبل عالٍ فيتردى على شجرةٍ منصوبة من حديد ذات شعب مشحوذة مؤلّلةٍ كالصوارم والشقار، اعتزازاً منهم بأخبارٍ أدَّاها لهم قوم من الكذابين العُتاة عن نفر من الخبثَةِ الدُّهاة.

وإنما ذكرتُ ذلك، ليعلم من يقرأهُ بأن قد يجب التحرر والهرب منها إلى ملاجئ الحكمة ومحال الفكرة والاعتبار، فإنها أضر بالأنفس وأسرع فيها من السهام القاتلة والاستهام، ومدخلها على القلوب من بابين طال ما عرا وكذبا بما يعروهما من التخاييل والظن، وهما حاسَّتا السمع والبصر اللتان بهما تدرك سوانح الأخبار، أما البصر فربما خيّل الشيء الواحد شيئين ورأى المستوى كالمعوج مثل المرادي في الأنهار، وربما صور المعدوم كالموجود مثل اليلمع والسراب. وأما السمع فربما سمع إنسان دويًّا فظن أنه الرعد، أو يسمع من تخيل كلباً أو أسداً أو قمريا فيرى أن ذلك هرير أو بديل أو زئير[149].

149: قارن ما يقوله الجاحظ عن أنواع المعارف في «الحيوان» 207/1، 115/2-116؛ وراجع تفصيل ذلك عند علي بوملحم في «المناحي الفلسفية عند الجاحظ» ص 140، كما يمكن مقارنة ذلك

في الدلائل على تصحيح الأخبار

قد قدمت القول في تفصيل الأخبار وعجيب ما تُورث النفس والأبدان من الحوادث والآثار. فأما ما أطبقت عليه الأمم في تثبيتها ورأته استقصاء وتحرُّزاً فيها، فهو أنه إذا ادّعى مدّعٍ حقًّا أو جاء بنبأ من الأنباء،ثم أحضر رجلين من أهل القناعة والعفو أو ثلاثةً ثبت بهم الحق وزال الشك والشبهة عن الحاكم والمحكوم عليه.

فأما خبر الأنبياء فلأنه يؤدي إما إلى الجنة أو إلى النار، فلن نكتفي فيه بشاهدين ولا بقسامة ولا بأمة دون أن يكون معهم شهادات الحق ومقياس العبر التي أنا ذاكرها، لأنا قد رأينا أممًا كثيرة العدد، عظيمة القدر، موصوفة بالأفهام والأحلام، يشهدون لعدة من الخَبثَةِ الكذابين بجميع ما ادعوه، مثل الزنادقة والمجوس[150]، إما تقليداً وإلفاً كما بيّنا، أو محكًا وغباوة، وإما إجباراً أو كرهاً كما فعل زرادشت متنبئ المجوس فإنه لم يزل يتأتى ليستأسف

بما أورده الغزالي في روايته لرحلته من الشك إلى اليقين «لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسات [...] من أين الثقة بالحواس، وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير مُتحرك وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحركٌ [...] قد بطلت الثقة بالمحسات. «المنقذ من الضلال» ص 331 نشرة عبد الحليم محمود، ط دار المعارف، القاهرة 1960 م.

150 : يتوافق رأي الجاحظ مع الطبري في «أن الكثرة الجامعة على أمر لا تدل على صدق الخبر» يقول: «ولم نقل إن العدد الكثير لا يجتمعون على الخبر الباطل كالتكذيب والتصديق،ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية وعبدة البددة يكذّبون النبي وينكرون آياته وأعلامه ويقولون لم يأت بشيء [....] وليس قول جمعهم أنه كان كاذبًا معارضة لهذا الخبر». راجع: «حجج النبوة» ص 141، 142.

الملك حتى وصل إليه وزرع من وساوسه في صدره، ثم لم يزل يختلهُ بذكر الله والدعاء إليه ويفتل في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولواه إلى رأيه، ثم أظهر له ما كان يضمر من الشرك، وزين له نكاح الأمهات والبنات وأكل القذر المذر من النجاسات، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره مملكته على دينه.

وفعل ماني شبيهاً بذلك، فإنه ظهر في زمانٍ كان الغالب فيه دينان، النصرانية والمجوسية، فاختدع النصارى بأن قال لهم أنه رسول المسيح عليه السّلام، وخلب المجوس بأن وافقهم على الأصلين.

فلما وجدنا من الإجماع ما هو هكذا، ووجدنا منه ما هو كالإسلام، علمنا أن قبول كل إجماع فتنة، ورد كل إجماع ضلالة، وأن الإجماع وحده ليس بكاف في تثبيت النبوة دون شهادات الحق واماراته التي جمعها الله تعالى للنبي صلّى الله عليه وسلّم، فمن أراد حقائق مثل هذه الأخبار وتعديلها احتاج إلى أن يتفهم الخبر الوارد عليه، ويتدبر غرضه وغوره فإن وجد مُكذِبه فيه ومبطله معه لم يحتج إلى برهان غيره، وذلك كخبر مسيلمة الكذاب[151]، فإنه لما ادعى النبوة سُئل عن النبي صلّى الله عليه وسلّم فصدق به وآمن بنبوته، وسئل النبي صلّى الله عليه وسلّم عنه فكذبه؛ فكان في تصديق مسيلمة من يكذبه، تكذيب منه لنفسه ودليل على مناقضته وسخفه. ولذلك قالت العلماء إنه إذا انتحل النبوة منتحل مبطل لم يمهله الله حتى يجري التناقض

151: مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي، ولد باليمامة، ويتلقب برحمن اليمامة، وهو أحد من وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة 9هـ، من بني حنيفة، وبعد عودة الوفد ارتد مسيلمة وادعى النبوة، فأرسل إليه أبو بكر الصّدّيق بقيادة خالد بن الوليد فهزموا جيش مسيلمة وقتله وحشي بن حرب قاتل حمزة، وذلك سنة 11هـ. (الكامل 361/2، 362، الأعلام 125/8).

على لسانه ليحتج به على من صدق به، كما أجرى الله على لسان زرادشت وماني[152] ونظرائهما فإنهما قد تناقضا وكذبًا وتذبذبًا[153].

قال زرادشت أن أهرمن ـ هو اسم معبودهم ـ قديم رحيم تام العلم والقدرة، ثم لم يلبث أن وصفه بما يوصف به الفجرة الجهال في قوله: إن الشيطان تولد عن فكرته وإن الله يعجز عن إبطاله. وكذلك فعل ماني في قوله: إن الله قديم عزيز لا يشبهه شيء، ثم قال: (إن الظلمة قديمة وأن الله مقهور وحزبه مقهورون ومأسورون). ومن آمن بمن يكذب نفسه فقد ضل ضلالاً بعيداً.

152: ظهر ماني في أواخر القرن الثالث الميلادي.أصله من بلاد فارس. حاول إيجاد ديانة توفّق بين الديانات الفارسية والبوذية واليهودية والمسيحية. وأعلن أنه المسيح المنتظر، رحب به سابور الأوّل ملك الفرس في بداية أمره؛ ولكن كهنة المجوس ثاروا ضده فاضطر إلى الهرب. ولما عاد تبعه جمع كثير. ولكن الملك فاراسن الأوّل حكم عليه بالإعدام سنة 276م. وقد انتشرت شيعته التي نسبت إليه باسم المانيكيين (MANICHEANS) في غربي آسيا وشمالي أفريقيا ونظريتها الأساسية الاعتقاد بوجود إلهين: إله للخير (النور) وإله للشّر (الظلمة). (تاريخ الكنيسة ص 386، موجز تاريخ المسيحية ص 154-156، قصة الحضارة 295/11).

153: قارن ذلك بما يورده ابن تيمية في « النبوات» : «فالكهانة مثلاً، وهو الإخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عند الناس، وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام ويوجدون كثيرًا عند النصارى، ويُوجدون كثيرًا في بلاد المسلمين، حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول؛ لأن هؤلاء أعداء الأنبياء، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبياء فقال: «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون» فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذبٌ وفجورٌ، وذلك يناقض النبوة فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقًا للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقًا لعادة جنسه من الكهان، وهم إذا جعلوا ذلك آيةً لنبوته كان ذلك لجهلهم بوجود هذا الجنس لغير الأنبياء، كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين، وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي فمن صدقهم ظنّ أن هذا مختصٌّ بالأنبياء، وكان ذلك من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة » انظر ص 12 نشرة دار الفتح. القاهرة.

وكذلك النصارى، فإنهم لما قالوا في أول شريعة دينهم أنا نؤمن بأن الله خالق كل ما يرى وما لا يرى، ثم اتبعوا قولهم ذلك بأن المسيح خالق غير مخلوق فبدا التناقض في قولهم.

وإذا رجعنا إلى كتب دينهم وجدناها مخالفة لاعتقادهم فكلما تثبت أن الله هو الصانع وما سواهُ مصنوعٌ، وقد بيَّنت ذلك في الجزء الذي يتلو هذا الجزء، وشرحت فيه ما يلزم أصناف النصارى كلهم، واحتججت عليهم بمائة وثلاثين حجة من كتب الأنبياء، سوى الحجج البرهانية والأمثال المضروبة والمقاييس الباهرة، وتوخيت بذلك تبصرهم رشدهم وتأدية م أوجب الله على بعض الخلق لبعضهم من المحبة والشفقة[154].

فأما ما يلزم اليهود وغيرهم فقد بينت في الجزء الرابع وأوجزت القول فيه ولم أقصر[155].

فهذا باب لطيف وردٌّ موجز ونقض يسير غير عسير، وهو أنه إذا ورد على ذي الفهم واللب خبر من الأخبار تدبره نغماً وقلبهُ ظهراً لبطن، فإن وجد مبطله فيه ومكذبه معه، أو وجده مخالفاً لكتب ديانة القوم لم يحتج في تكذيبه

154: يشير الطبري إلى كتابه «الرد على النصارى» وقد نال هذا الكتاب اهتمامًا في العصر الحديث، فقام كل من «غليوم كوتش»، و»إغناطيوس عبده خليفة» بنشر هذا الكتاب في مجلة الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف ببيروت سنة 1959م، معتمدين النسخة المخطوطة منه، الكائنة في «شهيد علي» باسطنبول، وقد أتت هذه النسخة ناقصة الآخر، وربما لا يوجد غيرها في المكتبات الخاصة بالمخطوطات؛ لأنه لم ترد إليها إشارة بحسب ما تيسر لي من مراجعة فهارس المخطوطات والسؤال عنها في مظان وجودها، كما أنه لم يشر أي دارس من المستشرقين ممن اعتنوا بشخص الطبري ومؤلفاته إلى نسخ أخرى للكتاب.

155: هذا الكتاب من جملة كتب الطبري التي لم تصلنا بعد، وبحسب إشارته هو، فقد ألّفه اعتبارية لتقسيم ارتأه، فكتاب للدفاع عن الإسلام وإثبات نبوة النبي، وكتاب للرد على النصارى، وكتاب للرد على اليهود.

وكشف عورته وعواره إلى غيره، وكان في سرعة وجدان الحق شفاءٌ للقلب، كما صنع معاوية برجل من أهل البصرة سأله أَلْفَي جذع لبناء داره. فقال له معاوية: "على كم دارك؟ قال: "على فرسخين في فرسخين". قال: "هي في البصرة أو البصرة فيها؟ قال: "بل هي في البصرة". قال معاوية: "فالبصرة كلها أقل من فرسخين".

فكان في نفس خبره ما يشهد ببطلانه. وكالرجل الذي بلغنا أنه قال وهو بالعراق: لنا بقومس باغ في غربي المدينة على ثلاثمائة فرسخ.

فقال المحدث: إن كان الخبر حقا فنحن الساعة في وسط ذلك الباغ، فليس بين قومس والعراق إلا دون ذلك «. ومثل قول الفاخر في كتابه [156] الذي فضل فيه قحطان على عدنان، فإنه ذكر ابناً لعدي بن حاتم وقال: فأين لكم مثله؟ أمره أبوه أن يذود الناس عن وليمته فأبى الصبي وقال: « يا أبتي مُر بهذا غيري». قال الفاخر: «فهذا جوادٌ ابن جوادٍ ابن جواد ومطبوعٌ ابن مطبوعٍ ابن مطبوعٍ».

---

156 :يذكر الجاحظ في «رسالة الحجاب» : (وقيل لعروة بن عدي بن حاتم وهو صبيٌّ، في وليمة كانت لهم: قِف بالباب فاحجُب من لا تعرف وائذن لمن تعرف. فقال: لا يكون - والله - أول شيء استكفيته منع الناس من الطعام) راجع: الرسائل السياسية للجاحظ بتحقيق علي بوملحم، ط منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت 1987م.وفي رسالة فضل هاشم على عبد شمس ص 444 يقول الجاحظ: «عُرف حاتم بالجود» . وفي رسالة فخر السودان على البيضان ص 549 يقول: «وليست قحطان من عدنان في شيء، ونحن بالحبشة أشبه، وأرحامنا بهم أمسُّ من عدنان بقحطان، وإن ذكرتم اختلاف اللُّغات فإن لغة عجُز هوازن، وقد تختلف = =اللغات والأصل واحد وقد تتَّفق والنَّجْر مختلف» . وفي الحيوان، ج 1 ص 4، 5 يقول: «وعبتني بكتاب القحطانية، وزعمت أني تجاوزت الحمية إلى حد العصبية، وأني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقّص القحطانية» ويشتهر الجاحظ بتأليفه في المفاخرات (مفاخر هاشم – مفاخر الخراسانيين – مفاخر العرب – مفاخر الموالي- مفاخرة الجواري والغلمان – افتخار الشتاء والصيف) لذا لا يُستبعد أن يكون هو المعنيُّ بإشارة الطبري، وعليه فإن الجاحظ ربما يكون مصدرًا من مصادر الطبري في تأليفه هنا، وفي تأليفه في الأدب والأمثال.

فوجدت هذا الخبر نفسه يكذب قوله، وذلك أن أبا الصبي قد أمره أن يذود الناس عن طعامهِ وذلك هو الذي كرهه الصبي واستعفى منه فهو إذاً جواد ابن بخيل، ومطبوع ابن غير مطبوع.

فهكذا فليفعل من أحبّ تصفية أخبار الأنبياء وتمييزها. فليبحث عن شهادات الحق ومقاييس العبر التي وجدتها متوافرة مجتمعة النبي صلّى الله عليه وسلّم في عشرة معان لم يجتمع مثلها لأحد قط إلا للمسيح عليه السّلام[157] وأنا مفسر ذلك وكاشف للعيان ليعلم الناظر فيه أن من كن تلك الخصال معه ووجدن له وجبت له النبوة، ولزمت حجة الله البالغة من كفر به:

أولها: دعاؤه صلّى الله عليه وسلّم إلى الفرّد الدائم العلام العدل الذي لا يُغالب، وموافقته في ذلك جميع الأنبياء.

الثاني: ما كان عليه في نسكه وعفته وصدقه ومحمود سننه وشرائعه.

الثالث: أنه عليه السلام أظهر آيات بينات لا يأتي بها إلا أنبياء الله ونجباؤه.

الرابع: أنه تنبأ على أشياء غائبة عنه فصحّت في زمانه.

الخامس: أنه تنبأ على حوادث جمّة من حوادث الدنيا ودولها صحّت بعده.

السادس: في أن الكتاب الذي جاء به آية من آيات النبوة بالضرورة وبالحجج التي لا تدفع.

السابع: أن غلبته الأمم آية بيّنة بالضرورة والحجج التي لا تُدفع.

الثامن: أن دعاته الذين نقلوا أخباره خيار الناس وأبرارهم ومن لا يُظنُّ بأمثالهم الأكاذيب والإفك.

157: يُشرك الطبري هنا المسيح مع محمد -عليهما السلام- في هذه المعاني العشرة، ولاحقًا سيُخرجه بمناقشته لهذه المعاني وأنها لا تتنزل إلاّ على شخص النبي محمد وأصحابه وشريعته.

التاسع: في أنه عليه السلام خاتم الأنبياء، وأنه لو لم يُبعث لبطلت نبوات الأنبياء فيه وفي إسماعيل عليهما السلام.

العاشر: أن الأنبياء عليهم السلام قد تنبأوا عليه قبل ظهوره بدهر طويل ووصفوا مبعثه وبلده ومسيره وخضوع الأمم له والملوك لأمته.

فهذه خصالٌ نيّرةٌ وشواهدٌ كافية من أدلى بها ووجبت له فاز قِدْحُه وأفلح حقّه ووجب تصديقه، ومن ردّها وجحدها خاب سعيه وخسر دنياه وآخرته. وأنا ملخص ذلك باباً باباً ومستشهد عليه الأنبياء، وغير مقتصر فيه على نبي واحد بل على جماعة، ولا على نبوة واحدة بل على ستين نبوة أو تزيد. وأقدّم ما أرجو أن يجعل الله فيه تقريباً وتفريجاً ومخرجاً من العمى لمن لم يكن جباراً عتيًّا ولا غويًّا شقيا.

وهو أنا إذا سألنا النصارى خاصة عن علّة تكذيبهم بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، قالوا: إن ذلك لثلاث خصال:

أولاهن: أنّا لم نجد أحداً من الأنبياء تنبأ عليه قبل مجيئه.

والثانية: أنّا لم نجد في القرآن ذكر آية ولا نبوة لمن جاء به.

والثالثة: أن المسيح أنبأنا أنه لا نبي بعدهُ.

فهذه أقوى ما يحتجون به عندهم. وأنا مطلق ذلك بتوفيق الله، فإذا قررت عندهم أن الأمر على خلاف ذلك ولا حاجة في تصديق الأنبياء إلى ما ذكروا، لم يبق لهم عذر فيما بين الله وبينهم. وكان المتعلل بتلك الحجج المتعلق بها على سبيل فتنة وهلاك.

فجواب قولهم أنه لم يتبنأ عليه نبي أنه إن كانت نبوة الأنبياء لا تثبت ولا يجب قبولها إلا بتقديم النبؤات عليها، فإن صدق بنبي من الأنبياء لم يتقدمه نبوة نبي عليه فقد ضلَّ وفتن، فليخبرونا عن موسى النبي نفسه صلّى الله عليه وسلّم من ذا الذي كان تنبأ عليه أو على داود أو أشعيا أو أرميا وهم عندهم من أفاضل الأنبياء عليهم السلام ولا نبوة متقدمة عليهم، فمن آمن بهم فقد خالف الحق إلى الباطل بقبوله إياهم وباء بسخط من رب العالمين.

فأمّا جواب قولهم إنه ليس في القرآن ذكر آية للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وإن من يكن في كتابه ذكر آية ونبوة لم يجب التصديق به، فليخبرونا بالآية الموجودة لداود النبي في زبوره، فإن لم يوجدونا ذلك، فلم وبأية حجة سموه نبياً ولم يتنبأ عليه نبي قبله، ولا وجد في كتابه ذكر آية؟

فقد بان بما شرحت، أنه لا حاجة في تصحيح خبر الأنبياء إلى نبوة متقدمه عليهم، ولا إلى أن يكون ذكر آياتهم وأعلام براهينهم مقيدة في كتبهم. فقد كان من الأنبياء من له آية مذكورة ونبوة ناطقة في كتابه، لكنه لم يتنبأ عليه نبيٌّ قبله كما قد بينّا آنفاً، فلم يُدفع بذلك حقه، مثل موسى ودانيال وأشعيا ونظرائهم عليهم السلام.

وكان منهم من جمع الله له ذلك كله، مثل المسيح عليه السّلام، فإنه أظهر آياتٍ باهراتٍ، وتنبأ على الغائبات المستورات، وتظاهرت عليه نبوات قبل ظهوره.

وكان منهم من له آية وليست له نبوة مذكورة في كتابه، مثل أليسع، فإنه أحيا ميتين ولم يتنبأ نبوّةً رأساً.

ومنهم مثل حزقيال النبي ويوشاع وذويهما ممن لم يكن له آية وكانت لهم نبوة، ولكن نبوته التي تنبأ بها إنما صحّت بعد دهرٍ طويل، فلا حجة له فيها على من شاهده ولا لمن قبله حجة في تصديقه إياه من غير آية أظهرها لأهل زمانه.

ومنهم من لم تكن له آيةٌ ولا نبوّةٌ ولا خبرٌ مقنعٌ في كتابه، وهو معدود في زمرة الأنبياء، مثل مالاخي وحجي وناحوم، وإنما كتاب النبي منهم في ثلاث ورقات أو أربع فقط.

ومنهم مريم النبيّةُ أختُ موسى، وحنّةُ النبيّةُ، فإن هاتين خاصة، ليس لهما كتاب، ولا نبوة، ولا آية، ولا دلالة، وقد عدّوهما من الأنبياء، كيف وبأي حُجّة يا بني عمي سميتم هؤلاء أنبياء، وهذه حالهم؟

ولِم كُفرهم بنبوة النبي عليه السلام، وله تلك الخصال المعدودة التي بعضها مُخلّد في القرآن، وبعضها في الآثار التي تقوم مقام القرآن، وإن فيما في القرآن منها أوكد حجة وأوضح محجّةً وأصدق نبوّةً؟

فكيف ومعها ما أنا موضِّحه من نبوّات الأنبياء البررة عليه، وإشارة أكثرهم إلى نبوته وزمانه عليهم جميعاً سلام الله وبركاتهُ ؟

فإن قلتم: إنّا نافرنا النبي صلّى الله عليه وسلّم وجانبناه لأنه لا نبي بعد المسيح أوضحت لكم من كتبكم أن من نفث ذلك في أسماعكم وأجراه على ألسنتكم غير ناصح لكم بل غاش ولا موثوق به بل متهم.

فمن ذلك: ما في كتاب فراكسيس، وهو رسائل الحواريين، في الفصل الحادي عشر «أنه قدّم في تلك الأيام أنبياء من بيت المقدس، وقام أحد

منهم، وكان يُسمى أغابوس، فتنبأ لهم، وقال: إنه سيكون في هذه البلاد مجاعة وقحط شديد»[158].

وقال في هذا الفصل: "أنه كان في بيعة أنطاكية أنبياء وعلماء منهم برنابا وشمعون ولوقيوس من مدينة قورينا ومانايل وشاول" [159].

فهؤلاء الخمسة من الأنبياء بأنطاكية فيما ذكر.

فأما متنبئات النساء، فمذكورة أيضاً، قال في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب: "أنه كان لفيلفوس المفسر أربع بنات متنبئات"[160].

وقال لوقا في كتاب فراكسيس: "إن النفر المتوجِّهين إلى أنطاكية كان نزولهم على بيت يهوذا وشيلا" [161]؛ لأنهم كانوا أيضاً أنبياء.

فهذا بابٌ منقطعٌ، وقولٌ قد هذر وحُججٌ لهم قد انحلّت وانفسخت.

158: انظر: أعمال الرسل 27،28/11: (وفي تلك الأيام نزل بعض الأنبياء من أورشليم إلى أنطاكية، فقام أحدهم، واسمه أغابُس، فأخبر بوحي من الروح: أن ستكون مجاعة شديدة في المعمور كله، وهي التي حدثت في أيام قلوديوس).

159: انظر: أعمال الرسل 1/13: (وكانَ في الكَنيسةِ الَّتي في أَنطاكية بَعضُ الأَنبِياء والمُعَلِّمين، هم: بَرنابا وسِمْعانُ الَّذي يُدعى نيجر، ولوقيوسُ القيرينيّ، ومَنَاينُ الَّذي رُبِّيَ مع أَميرِ الرُّبعِ هيرودُس، وشاوُل).

160: انظر: أعمال الرسل 9/21: (وكان له أربع بناتٍ عذارى يتنبّأن).

161: سفر أعمال الرسل 27/11.

ووضّح بأن قد كان بعد المسيح قومٌ يسمُّونهم رُسلاً وأنبياء، مِثل فولس نفسه[162]، وأنا مفسِّرٌ تلك الخصال العشر التي فسرتها بعون الله وتوفيقه ومقدِّمٌ في كُلِّ بابٍ ما هو مخلّدٌ في القرآن؛ توبيخاً لمن زعم أنه ليس في القرآن ذِكرُ آيةٍ، وتوخِّياً لأن يعلم الناظرُ في هذا الكتاب فضله ومزية قدره، وأنّ الذين وُلدوا على الفطرة، ورسخوا في الإسلام، وأطنبوا في هذا الباب لم يبلغوا منه إلا دُون ما بلغت.

فمن اختلج في صدره شكٌّ فَلْيَقِس كتابي هذا وما فيه من النبوات والحُججِ التامات الشافيات، وما تتبعت من قلائدِ القوم ومعاناتهم، بجميع ما ألّفه المؤلفون منه منذ ظهر الإسلام إلى زماننا هذا، وذلك بتوفيق الله وعونه وبركة أمير المؤمنين أيده الله وما يوجب الله فيه لأوليائه ومواليه فهو الذي بعثني عليه، مدّ اللهُ في عمره وسدّدني له وعرضني لعظيم الأجر وجميل الذكر فيه. وكنت من قبل أن أُسْلِم غافلاً عنه هائمًا لا أبصر رشداً ولا أهتدي لشيءٍ مما انكشف لي من بعد، ولله المنُّ والحمدُ، فلقد رفع الحُجب عن الأبصارِ، وفتح الأقفال، وأخرج من ظلمات الضلال.

162: رفَض الطبريُّ ذلك الرأي القائل بأنه «لا نبي بعد المسيح»، وربما كان اعتماده هنا على ما ورد في محاورة طيموثاوس من اقتباسه لنص الإنجيل القائل: «فقد توالت جميع نبوات الأنبياء وآيات الشريعة حتى انتهت إلى يوحنا» ويقوم الطبري بلفتِ النظر بالمقابل إلى ما ورد في الإنجيل مشيرًا إلى أنبياء ومن خلال ما يستشهد به يسقط اعتراض النصارى على نبوة محمد بهذه العلة، ولا نرى عند طيموثاوس أية تفاصيل تجيب على ما يورده الطبري. لكن يؤخذ على الطبري هنا عدم توضيحه لمفهوم النبوة، وهل هناك اتفاق بين فكرة النبوة في الإسلام والمسيحية ؟ لأن هذا سيطرح إشكالًا آخر، لا يرى في كلام الطبري حجة على خصمه، إذ يذكر الأب قنواتي أن «هناك اختلافًا جوهريًّا بين المعتقد المسيحي للنبوة والمعتقد الإسلامي، ففي نظر المسيحية أن النبوة الكاملة النهائية قد تحققت في يسوع المسيح غير أنهم يعتقدون أن روح النبوة لا يزال يظهر من جيل إلى جيل» راجع: الأب = =جورج قنواتي «المسيحية والحضارة العربية» ص30 ط دار الثقافة مصر 1992، و راجع: أعمال الرسل 27/11، 1/13، 10/21، ومعجم اللاهوت الكتابي (مادة: نبي) ص 796-830 ط 5 دار المشرق بيروت 2004.

في توحيده عليه السلام، ودعائه إلى ما دعا إليه إبراهيم، وجميع الأنبياء عليهم السلام

فأصحُ الشهودِ على ذلك القرآن، فإنه ينطقُ بأن دعاء النبي عليه السلام لم يكن إلاّ إلى إلهِ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وإلى التوحيد المجرد، وإلى ما دعت إليه الأنبياء البررة، ودلّت عليه العقول الصحيحة، فمن ذلك قول الله تعالى في القرآن: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ" [سورة الإخلاص]. وقال: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [سورة آل عمران: آية 18].

وقال: «قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [سورة آل عمران: آية 26].

وقال: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [سورة البقرة: آية 28].

وقال في فضل الله ورحمته وعدله: "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ" [سورة فصلت: آية46].

وقال: "وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ" [سورة الشورى؛ الآية: 23].

وقال: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه" [سورة الزلزلة:آية 7،8].

وقال: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ" [سورة النساء:آية 79].

وقال: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ" [سورة البقرة :آية 286].

وقال يُعدِّدُ فضل الله ورأفته بعباده: "إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً" [سورة النساء: آية40].

وقال: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [سورة النحل :آية ١١٨].

وقال: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [سورة الصف :آية5].

وقال: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ" [سورة المنافقون: آية3].

وقال: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ"[سورة الأنعام:آية160].

وقال: "فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" [سورة آل عمران :آية25].

فهذا هو إيمان آدم ونوح وإبراهيم، وجميع الأنبياء والأصفياء، صلوات الله عليهم لا يشكّون فيه ولا يمترون.

الباب الثاني:
في فضائلِ سننِه وشرائعه

فأمَّا أمورُه وشرائع دينه، فحبُّ الله تعالى، وحبُّ الوالدين، وصلةُ الرحم، والجودُ بالمصُونِ، والبذلُ للماعون، والزهدُ في الدنيا، والصَّومُ، والصلاةُ، والصدقةُ، والزكاةُ، والعفو عن المذنبِ، والوفاءُ بالعهدِ، ومجانبةُ الغدرِ والكذب، ودفعُ السَّيئةِ بالتي هي أحسن، وتحريم المُسْكِرِ والفجورِ والزنا والربا، والأمرُ بإفشاءِ السلامِ والطعامِ، وضربُ هامِ الكفرةِ الطّغامِ، وغير ذلك من الأمور التي لا يقوم دين ولا دنيا إلا بها.

من ذلك قول الله عز وجل: "الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [سورة آل عمران: آية 134].

وقوله: "الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[سورة البقرة:آية274].

وقال: "خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [سورة الأعراف 199- 200].

وقال: "وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" [سورة لقمان19-18].

وقال: "لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ" [سورة البقرة:225].

وقال: "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ" [سورة يونس: آية 49].

وقال: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" [سورة البقرة:آية 185].

وقال: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [سورة الأحزاب:آية 35].

وقال: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [سورة النحل:آية90].

وقال: "وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ" [سورة القلم:13-10].

فما ترك أمرًا مُقوِّمًا مُصلحًا لعباده وموعظةً جامعةً لمرضاته إلاّ وقد نطق به(163).

163: قارن ما يقوله الجعفري في «تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل»216/2: «فالفارقليط هو: محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله بعد المسيح، وهو الذي علّم الناس كلّ شيء، قال يهودي لرجل من الصحابة: علمكم نبيّكم كلّ شيء حتى الخراة؟ فقال أجل: «لقد نهى أن يستقبل أحدنا القبلة ببول أو غائط»[أخرجه مسلم 223/1، 224، وأحمد 438/5].

ومن فضيلة دعوته عليه السلام أنه عمَّ الناس كلهم بالدعاء، ولم يدعهم إلاّ للتقوى[164]، ولا خصَّ بها طائفة دون أخرى كما فعل سائر الأنبياء، ما خلا المسيح عليه السلام، فإنه عمَّ بالدعوة ووعد بالغفران والجنَّة، فأمَّا الباقون فإنهم كانوا يخبطون من حولهم بالسيف خبطًا وينتسفون أموالهم انتسافًا من غير دعاء ولا إبقاءٍ ولا إعذارٍ ولا إنذارٍ، كما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

فأمَّا زهدُ النبي صلّى الله عليه وسلّم وتورُّعُه واستخفافُه بزخارف الدنيا وغرورها، فإني ذاكرٌ منه ما يستدل به على أن من كان في مثل تألّهه وعفافه لم يظن به الاختراع والبطل.

فإنه رُوي عنه عليه السلام أنه لم يشبع قط من خبزٍ ولا لحمٍ إلا على ضيقٍ وشدةٍ.

وأنه صلّى الله عليه وسلّم زوّج ابنته فاطمة من عليّ رضوان الله عليهما فكان ما جهزها به سريرٌ مزمّل بشريطٍ ووسادة من أدَمٍ حشوها ليف وقدر وقربة وسلة فيها شيء من زبيب وتمر.

وأن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن كنا لنمكث أربعين يومًا ما لنا مصباح، قيل لها ففيما كنتم تعيشون؟ قالت بالأسودين الماء والتمر.

وإن فاطمة عليها السلام كانت تطحن الطحين بنفسها حتى نحلت يداها ورُئي أثر قطب الرحى في يديها، وأنها شكت ذلك إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وسألته خادمًا يخدمها فقال لها أي بنية ما عندي ما يسع نساء المسلمين كلهن وأنت امرأة منهن، فأكثري ذكر الله وشكره.

164: في نشرة (منغانا): «ولم يدعهم للنقرى».

وكان عليه السلام كثيرًا ما يشد الحجر على بطنه جوعًا، ويأكل إذا أكل على الأرض، ويتوسد يدهٔ إذا نام، ويلبس العباء ويقول: "أنا عبد آكل وأنام مثل العبد".

وأنه كان صلّى الله عليه وسلّم إذا صلى سمع له أزيز كأزيز المرجل من البكاء. (والأزيز غليان الجوف كأنه صرير المرجل).

[أخلاقه صلّى اللّه عليه وسلّم]

ومما رُوي عنه عليه السلام من مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، أن جبرائيل عليه السلام أتاه فقال له: «يا محمد جئتك بمكارم أخلاق الدنيا والآخرة وهي أن تصل من قطعك، وتُعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. وقال: "عُودوا المرضى، وأطعموا الجياع، وفكُّوا العُناة" يعني الأسرى.

ومنه نهْيُه صلّى الله عليه وسلّم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. وقال عليه السلام وهو يأمر بالقصد والقنوع: "ان روح القدس نفث في روعي انَّ نفْسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها". وقال عليه السلام: "ما أنا من دَدٍ ولا الدّدُ مني" يعني اللهو والعب[165].

وقال تزهيدًا في الدنيا: "من جمع الأموال فإنه يجيء يوم القيامة وفوق عينيه شُجاعٌ أقرعُ له نُكْتتان سوداوان". وقال عليه السلام: "اتقوا النار ولو بشق تمرة". وقال: "قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبوسون" (والجدُّ: الحظُّ في الدنيا).

وكان يقول عليه السلام: "رحم الله عبدًا سكت فسلم أو تكلم فغنم".

ويروى عنه عليه السلام أنه لم يغضب قط، ولم يسأل أحدًا شيئًا إلا لسبيل الله، ولم يسأله أحد قط شيئًا إلا أعطاه، وابتغى به وجه الله.

فأمّا ما سنّ وفرض الله تعالى على أمته من الصلوات والطهارة والتهيؤ

165: والمعنى لستُ مِنَ البَاطِلِ ولا الباطِلُ منّي.

لها والتقدُّم فيها من الاستنجاء والإستياك والتمضمض والإسباغ، الذي معناه الإنقاء والابتدار إلى الجماعات، وحُسْن الخشوع والصمت ولزوم الصفوف والسّكْت وتجديد السجود والركوع وما يُقال في كل ركعةٍ وسجدةٍ، حتى يستوي في علم ذلك كل صغيرٍ وكبير عبدًا أو أمة، فإن ذلك على ما يجب للخالق في جلاله وكبريائه إذا ما قام العبد بين يديه والتمس ما لديه.

ولقد رُوي عنه عليه السلام أنه قال لمن حضره يومًا وقد استراث الوحي: "وكيف لا يحتبس الوحي وأنتم لا تقلمون أظافركم ولا تقصون شواربكم ولا تُنقشُون برَاجِمَكُم". وكان يقول عليه السلام: إن الصلاة لا يصلحُ فيها شيء من كلام البشر، إنما هي للتسبيح والتكبير وقراءة القرآن، وذلك خلاف فعل من يدخل فيها وهو شهك[166] أو جنُبٌ، ومن يقطع صلواته بالأحاديث واللعب والتبزُّق والتزداد.

ورُوي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال عن الله عز وجل: "أعددت لعبادي ما عين رأت وأذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه"، يعني فكيف.

ومن رُخَصِ دينه وتيسّره ما أمر الله به على لسانه في السحور، وتقصير الصلاة لمن كان مريضًا أو على سفر، وقوله أن: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وبعال"».

ومما يُعْرَف به فضيلة دينه وحسن مخارج أمور القرآن أنّا نجد التوراة التي في أيدي أهل الكتاب تقول أن كل قاتل يُقتل[167].

166: كذا بالأصل.

167: ورد في سفر العدد 30/35: «كُلُّ مَن قَتَلَ نَفْسًا، فبِشَهادةِ شُهودٍ يُقتَلُ القاتِلِ».

وقد كان موسى عليه السلام نفسه وداود وغيرهما من الأنبياء قد قتلوا، وقتل ملوك بني إسرائيل خلقًا كثيرًا فلم يستحقوا بذلك القتل.

فأمَّا القرآن فإنه يحدد ذلك ويحظره فيقول: "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا" [سورة النساء:آية93]. ورُوِي عنه عليه السلام أنه قال: "من قتل نفسًا مُعاهدة بغير حقها لم يُرِحْ رائحة الجنة" أي لم يجد ريحها. فهذا أمر مذموم مخطوم مُقَّوم مهذّب.

وقال موسى وعيسى عليهما السلام كل دعوى فإنها تثبت بشاهدين أو ثلاثة وذلك في قول النصارى واليهود[168]. وقد يجوز أن يكون الشاهدان فاجرين كاذبين.

وقال الله على لسان النبي صلّى الله عليه وسلّم "وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ" [سورة الطلاق: آية2]. فحدّد ذلك ونوره بقول وجيز حريز غير مهمل ولا مغمور.

وأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يلعنوا كل من أخل وقصر في شيء من نواميس التوراة وشرائعها لعنًا مصرحًا على لسان الأمة[169]، وقد يكون أن يفرط الرجل في بعضها أو يهفو أو يزل فيها ثم يندم وينيب فلا يستحق اللعنة.

فأمَّا القرآن فإنه يقول: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا

168: ورد في سفر التثنية 15/19: (لا تَثبُتُ شَهادةُ شاهدٍ واحدٍ على أحدٍ في شيءٍ مِنَ الذُّنوبِ والجناياتِ التي يرتكِبُها، لكِنْ بِشَهادةِ شاهِدَين أو ثَلاثةِ شُهودٍ تَثبُتُ الشَّهادةُ)، وانظر تثنية 6/17.

169: ورد في سفر التثنية26/27: (ملعون من لا يحفظ الشريعة كلمات هذه الشريعة غير عامل بها).

وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» [سورة آل عمران:135-136]. فهذه أنباءٌ وأمورٌ تدلُّ على أن من أدّاها مسدّدٌ معصومٌ خائفٌ خاشعٌ ليس بمنتحلٍ مستحلٍّ ولا مستخفٍّ بالأمر هازل.

في آيات النبي صلّى الله عليه وسلّم التي ردها وجحدها أهل الكتاب

وأنا ذاكر من آياته عليه السلام ما فيه برهان لقوم ينصفون، وأبدأ في هذا الباب بما في القرآن منه لئلا يقول المخالف إنه لو كان للنبي صلّى الله عليه وسلّم آية لذكرت فيه كما ذُكر في التوراة والإنجيل موسى وعيسى عليهما السلام.

فمن آياته التي ظهرت في أيامه عليه السلام وشهد به القرآن أن أُسري به في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو قول الله عز وجل: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا" [سورة الإسراء: آية1].

وقد كانت العرب أنكرت ذلك أنّى وكيف قطع مسافة شهرين ذاهبًا وجائيًا في ليلة واحدة فأتاه أبو بكر رضوان الله عليه وسأله عن ذلك، فقال عليه السلام: "نعم ولقد مررت بعير بني فلان وهم نيام فشربت من إناء لهم وأن عيرهم الآن تردُ يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء".

فابتدر القومُ الثنية، فإذا البعير قد أقبلت، والجمل الأورق يقدُمها. فلم يجدوا لآيته مدفعًا. وهي لعمري آيةٌ صريحةٌ كافيةٌ موجودةٌ في القرآن تجمّع عليها أهلُ الإسلامِ طرّا.

ومن آياته التي ذكرها اللهُ في كتابه: أنه لما آذاه المشركون واستهزأوا به قال له: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" [سورة الحجر:آية 95-94]. فهذا في القرآن أيضًا لا يختلفُ فيه اثنان ولا في تفسيره.

وهو أن خمسة نفر من رؤساء المشركين كانوا يستهزءون به ويؤذونه، فنزل عليه جبرائيل عليه السلام وقال له: إذا طافوا بالبيت فسل الله فيهم ما أحببْتَ فإني فاعله بهم ومنزله عليهم. فمر به أحدهم وهو لَهَب بن أبي لَهَب في الطواف، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم أكلك كلب الله فأكله الأسد. ثم مر به الوليد بن المغيرة فأومأ النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى جُرْحٍ كان في بطن رجله فانتقض عليه وقتله. ومر به الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى بطنه فَسُقي ومات. ثم مر به الأسود بن المُطلب فرمَى في وجههِ ورقةً وقال اللهم اعم بصره وأثكله ولده، فابتُلي بذلك كله. ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فدخلت في أخمصه شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأومأ غليه فتفقأ قيحا وهلك.وكفى النبي صلّى الله عليه وسلّم أمر المستهزئين، وكانوا أجِلْةَ القوم وأعلامهم[170].

170: يُلاحظ أن رواية الطبري بها بعض اضطراب , فهو إذ يذكر (خمسة نفر) في بداية الرواية يسرد أخبار (ستة) لا خمسة, وتتطابق الرواية مع ما يذكره ابن هشام [«السيرة» 1 / 410] مع اختزال الطبري لبعض الألفاظ، إلا أن نهاية الخمسة باستثناء لهب بن أبي لهب المذكور عند الطبري واحدة عندهما، فقد كفى الله نبيه استهزاءهم من خلال نزول الملاك جبريل كتسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم. ويذكر عبد المعطي قلعجي في تعليقه على الرواية عند البيهقي أن الجمهور ومنهم ابن عباس في أكثر الروايات عنه على أن «المستهزئين كانوا خمسة وقال في رواية كانوا ثمانية» [البيهقي «دلائل النبوة» 2/ 319 نشرة قلعجي].

أما عن شخص «لهب بن أبي لهب» الذي يذكره الطبري مخالفًا رواية غيره ممن نصّ على أنهم خمسة نفر، فهناك خلاف حول اسمه فالبعض يذكره بـ(عُتبة - عُتيْبة - عبد العُزّى) [يضبط عبد السلام

وَرُوِيَ عن آمنة أم النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه حين وقع من البطن خرج معه نورٌ وأنه وقع على أربع قوائم وهو رافع وجههُ وبصرهُ إلى السماء[171].

ومن آياته التي بهرت وبانت لجميع من شاهدهُ يوم بدر: أنه حثًا في وجوه المشركين التراب وقال: «شاهَتِ الوجوه» أي قُبحتْ فانهزموا وقُتِلوا[172].

ورُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه سمع نداءَ رجُلٍ وهو يقول: «يا رسول الله تهدمت البيوت من شدة المطر»، فقال عليه السلام «حوالَيْنا ولا علينا». وقال أنس: «فنظرت بعيني السحابة انجابت عن المدينة[173].

وأنه قال عليه السلام لمن حضره من المشركين: «مَنْ لفظ منكم باسم أبيه أو أخيه فإنه كاذب، فما قدر أحدٌ منهم أن يلفظ بذلك.

هارون الاسم (عُتْبة) ويستبدله عن الأصل «يا لهب» الوارد في رواية الجاحظ: «إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعُتبة بن أبي لهب «أكلك كلب الله» فأكله الأسد «؛ويشير هارون إلى رواية الثعلبي»عُتيبة «الجاحظ «الحيوان» 181/2نشرة هارون]، وربما أورد الطبري ذكره تماشياً مع سيرة الرجل، وأنه كان من صناديد الكفر المعارضين للنبي صلى الله عليه وسلم.

وثمة ملمح آخر يمكن استنباطه بمراجعة كتب الدلائل ذات الصبغة الدفاعية والجدالية؛ إذ نعثر عند القاضي عبد الجبار [تثبيت دلائل النبوة 36/1 – 38]. على ذكر قصة أبي لهب ضمن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأعلامها، لكنه لا يسردها ضمن الآيات التي ذكرها القرآن، كما فعل الطبري، بل ضمن الإنباء بالغيوب، والإخبار عن أمور ستكون فكانت، مما سيعد لاحقاً وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

171: قارن الرواية المذكورة عند ابن هشام في السيرة 1/ 158.

172: قارن البيهقي في الدلائل 137/5-139.

173 :يورد البيهقي نصّ الرواية في الدلائل[6 / 140] كالتالي: «عن أنس: قد أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فبينا هو يخطبنا يوم جمعة، إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكُراع، هلك الشاء، فادع الله أن يسقينا، فمد يد ودعا، قال أنس: و إن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ريح، ثم أنشأت سحابًا، ثم اجتمعت، ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم نزل نُمطر إلى يوم الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله أن يحبسه، فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال:»حوالينا ولا علينا، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل».

وأنه أتى بقبضتين من تمر يوم الخندق فأمر أن يُصب بين يديه، ونادى مناديه في الجيش فأكلوا وشبعوا[174].

وأنه انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر، فقال: يا رسول الله انكسر سيفي، فأخذ عليه السلام جذلا من حطبٍ وأعطاه إياه وقال له هُزَّهُ، فهزهُ عكاشة، فصار سيفًا وتقدم وجالدَ به ولم يزل بعد ذلك معه[175].

وأنه صلّى الله عليه وسلّم أخذ حصاة فحركها بيده فسبحت ثم وضعها في يد أبي بكر فسبحت، ثم في يد عمر ثم في يد عثمان فسبحت في أيديهم.

ورُوي عن ابن عباس رحمة الله عليه، أن رجلًا أخذ فراخ طير في غزاةٍ، فجاء الطائر إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ورفرف عند رأسه ثم وقع بين

174: وترد الرواية في سيرة ابن هشام 218/3،على النحو التالي:» قال ابن إسحاق:وحدثني سعيد بن مينا أنه حدث: أن ابنة لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية. اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: فقلت: يا رسول الله هذا تمر، بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب».

175: ترد «قصة سيف عكاشة» على نحو تفصيلي عند ابن هشام، يتم فيها وصف سيفه المُتحول عن جذعٍ إلى سيف، ويورد مناقب عكاشة نفسه:» قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن بن حُرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف يوم بدر بسيفه، حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزّه، فعاد سيفًا في يده، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: العون. ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُتل في الرّدة، وهو عنده [السيرة 637/2].

يديه، فقال عليه السلام: من أخذ فراخ هذا الطائر أطلبوها وردوها عليه، فوجدوها عند بعض المسلمين فردوها عليه.

ورُوي أنه استناخ بعير بين يديه ثم رَغا فدعا النبي صلّى الله عليه وسلّم بصاحبه وقال: إن هذا البعير شكا وذكر أنه لم يزل عندكم صغيرًا تعملون عليه حتى إذا كبر أردتم قتله، فقل الرجل: صدقَ يا رسول الله، وأنا ممسك عنه.

ورُوي أن بني غفار أرادوا أن ينحروا عجلًا لهم، فنطق العجل وقال: يا بني غفار أمرٌ نجيحٌ، صائح يصيحُ بمكة لا إله إلا الله، فتركوه وأتوا مكة فوجدوا النبي صلّى الله عليه وسلّم قد ظهر، فآمنوا به.

ورُوي أن ذئبًا سد على غنم، فقال الرعاة: أما تعجبون من هذا الذئب؟ فنطق الذئب وقال: أنتم أعجب مني، قد ظهر نبي بمكة يدعو إلى الله ولا تجيبونه فهذه كلها أخبار مشهورة عند المسلمين كلهم لا ينكرون شيئًا منها لأنها ظهرت على رؤوس الملأ. ومن صحة آية الذئب أن ولد الرجل الذي كلمه الذئب يسمّون إلى يومنا هذا بني مُكلم الذئب، يتوارثون ذلك وينسبون لئلا ينسى ولا يجد أحد مساغًا إلى ابطاله.

ودعا عليه السلام على العرب فاحتبس عنهم القطر وأجدبت عنهم.

وروي عنه عليه السلام أنه أخبر أبا سفيان بأمر جرى بينه وبين امرأته هند فعجب أبو سفيان من ذلك وقال: أخرجت سري لأدقن يدها على رجلها، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: لا تظلم هندًا فما أخرجت سرًا، فقال أبو سفيان لقد اتهمتها وهممت بها، فأمّا إذ حدثتني بما حدثت أنا به نفسي فقد علمت أنها بريئة مما ظننت.

ومن آياته عليه السلام التي زهرت، ما روي عن أنس بن مالك، قال: اتخذت أمي حَيسًا وبعثت به إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم تسأله أن يطعم منه، فقام النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال لأصحابه: قوموا بنا، فلما رأت أمي الجماعة قالت: يا رسول الله، أعْدَدت لك شيئًا بمقدار ما تأكله وحدك، قال: فدعا النبي صلّى الله عليه وسلّم بالبركة وقال لي: أدخِل عليّ عشرة عشرة، فكانوا يشبعون ويخرجون، وأكلنا معهم وشبعنا.

وروي عن يَعْلَى بن أمية أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أراد الوضوءَ وهو بسفر له فقال: اذهب إلى تَيْنِكَ الشجرتين وقل لهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأمركما أن تجتمعا، فأقبلتا تخدان الأرض خدًا حتى اجتمعتا، وتوضأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينهما ثم أمرهما بالرجوع إلى مكانهما فرجعتا.

ورُوي أن يهوديًا دعاه إلى طعام وقرّب إليه شاةً مسمومة فقال عليه السلام: إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة، فأقرّ اليهودي، بذلك وقال: أردت امتحانك بها، وقلت إن كان نبيًا لم يخف ذلك عنه، وإن كان مَلكًا أكل منها وأرحت الناس منه.

ورُوي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنّا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في سفر فأصابنا عطش شديد فجهشنا إليه وبين يديه تَوْرٌ فيه ماء فوضع يده فيه، وجعل الماء يتخلل من بين أصابعه كأنها عيون فشربنا وروينا منه ونحن أربعمائة رجل وتوضأنا.

فهذا في هذا الكتاب كافٍ، ولو أردنا الاستقصاء لطال الكتاب، وفي هذا شفاءٌ لمن أراد الله هدايته وإنقاذه، فإن منه ما هو مأخوذ وموجود في القرآن

نفسه، ومنه ما هو مأخوذ عمن أخذ المسلمون عنه القرآن وأتُمِن على ما أُدّي إلى الأمة منه.

ومثلهم في ذلك مثَل حواريي المسيح عليه السلام الذين أدّوا إلى النصارى أسفارًا من الإنجيل ونقلوا إليهم أخبار المسيح. فإن كانوا ثقات مؤتمنين على ما نقلوا وأدّوا من خبره فإنهم في جميع ما أخبروا عنه غير متهمين. وإن كانوا غير ثقات فهم في جميع ما أدّوا متهمون غاشُّون لأنفسهم أولا ثم الناس أجمعين[176].

176: هذا الموقف من الطّبري مماثل لما يفعله صاحب كتاب البرهان المسيحي (عمّار البصري)، إذ يزكّي حواريّ السيد المسيح، فهم لم يقهروا الناس بالسيف، ولم يستعملوه في إثبات دينهم، وكانوا صيادين فقراء، ولم يقبلوا الرشى والمصانعة، وهم من أجناس مختلفة لم تحملهم عصبيتهم على الإيمان بدين المسيح، ودعوا إلى أمور لا يتوهمها عقل ولا يخترعها فكر، ولا يقوى عليها أحد، ولم يُرخّصوا للناس في الشرائع، ومع ذلك آمن الكثيرون بدين المسيح، راجع البرهان ص 34- 40.

في نبؤاته عليه السلام
على أمور غائبة عنه تمت في أيامه

ونبدأ في هذا الباب بما في القرآن لتأكيد الحجة وإبطال العلة. قال الله عز وجل لرسوله صلّى الله عليه وسلّم: "لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ" [سورة الفتح:آية 27] فدخلوها على ما قال الله في حياته.

وقال: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [سورة الأنفال: آية 30]. فكان كما قال الله، وأرادوا أن يمكروا به فردّ الله مكرهم وبطل كيدهم.

وقال الله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا" [سورة الأحزاب: آية 9] فضرب الله بذلك وجوه الكفار، فكان كما قال.

وقال: "سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ" [سورة الأنفال: آية 12]. فكان كما أخبره الله به وفعل بهم كما أمر.

وقال: "أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ

لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ" [سورة الحشر:آية 11-12].

فكان الأمر كما قال لنبيه صلّى الله عليه وسلّم، فإن أولئك أخرجوا فلم يخرج إخوانهم هؤلاء معهم وقوتلوا فلم ينصروهم. فما عسى يقول القائل في هذه الآيات والقرآن ينطق بها والأمة تشهد بحقيقتها؟ وإنما كانت تتوقع صحتها وتتحدث النساء والرجال بها، فإن ساغ في مثلها التمويه والبهت وتقييده في القرآن، فما نؤمنهم أن يكون قُيد في التوراة والإنجيل أيضًا أباطيل مقيدة تجافي عنها من شاهد الأمر وأغضى عليها، فإن لم يسغ ذلك في التوراة والإنجيل وفيمن حضرهما؛ فذلك غير سائغ في القرآن وحملته أيضًا(177).

وقال الله عز وجل في الناكثين من مشركي قريش: "قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ"[سورة التوبة:آية14]. فكان كما قال.

فأمّا ما جاءت به الأخبار الصادقة فمن ذلك، عن سعد بن عبادة الساعدي أنه قال: كنا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في غزاة ومعنا رجل لا يبارز رجلا من المشركين إلا قتله، فذكرنا ذلك للنبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

قال سعد: فما زلت أتبعه لأعرف عاقبة أمره، فأصابتهُ جراحةٌ واستبطأ

177: فصّل الحديث في هذه الآيات القاضي عبد الجبار المعتزلي في: «تثبيت دلائل النبوة» بالشرح والمناقشة، انظر المجلد الأول ص 44- 65.

الموت فوضع سيفه على سرتِهِ وتحامل عليه حتى قتل نفسه[178].

وروي عنه عليه السلام أنه قال لخالد بن الوليد وأصحابه حين وجههم إلى أكيدر دومه الجندل[179] أنكم ستأتونه فتجدونه على سطحه يتصيد البقر فوجدوه كذلك[180].

ورُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه ضلَت ناقة، فجعل يسأل عنها، فقال المنافقون هذا محمد يدّعي خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته. فعلم ما يتناجون به فجاء وخطب وقال: "ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني ربي وقد خبرني ربي أن ناقتي بوادي كذا متعلق زمامها بشجرة" فطلبوها فوجدوها كذلك[181].

ورُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه جمع الناس يومًا ونعى إليهم النجاشي ملك الحبشة وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات. فورد الخبر بوفاته في ذلك اليوم. وكان بينه وبين أرض الحبشة البحر ولم تكن مكة مدرَجة مثل مدارج الشرق والغرب.

178: قارن ما أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (38). وفتح الباري 471/7، ومسلم 106/1.

179: أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكوفي، ملك دومة الجندل- وهي بين الشام والحجاز - واختُلف في إسلامه، راجع: الإصابة 129/1-131.

180: قارن البيهقي في الدلائل 250/5، 251.

181: قارن البيهقي في الدلائل60/4،59.

في نبؤات النبي عليه السلام التي تمت بعد وفاته

ونبدأ في هذا الباب أيضًا بما في القرآن الكريم من نبؤات النبي صلّى الله عليه وسلّم

لئلا يبقى لأهل الفتنة والعناد حجة يستندون إليها ولا علقة يتمسكون بها، فمن ذلك:

قوله عز وجل: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» [سورة الشرح، الآيات 1- 4].أي أنه يكون مذكورًا مقدمًا اسمه بعد اسم الله في كل خطبة ومنافثة ومناظرة ونكاح وصلاة.

ومن ذلك قول الله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» [سورة النصر]. فنعى بهذه السورة نفسه إلى أمته، وأنبأهم بما هو كائن بعده من دخول الناس أفواجًا وأرسالًا في دينه، فكان ذلك كذلك، يرونه ظاهرًا بعد دهر ولا يدفعونه.

وقال الله تعالى: «الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ» [سورة الروم، الآيات 1- 4]فكان ذلك في حرب كانت بين كسرى وقيصر، وتبين للعرب أن الوحي قد صدق، وما زال ذلك

حديثهم وحديث صبيانهم ونسائهم في البيوتات يتوقعونه ويستخبرون عنه حتى صح ذلك للجميع.

ومن ذلك قول الله عز وجل: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا» [سورة النور :آية 55]. فهذه أيضًا نبؤة قد تمت وظهرت لا يجد أحد إلى إنكارها سبيلًا، فقد استخلف المسلمين ومكن لهم دينهم وأبدلهم بالخوف أمنًا، فأية نبوة وآية أصح وأبين من هذه.

ومنه قوله: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» [سورة الصف: آية 9]. فقد صدق الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم وظهر دينه على كل دين وأذعن له أهل كل ملة.

ومنه قوله: "قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" [سورة الفتح: آية 16]. وكان هؤلاء قوم تخلفوا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم فأنبأهم أنهم يقاتلون الروم والفرس ويُسلمون، فكان كذلك كما في القرآن يشهد بصحته العِيان[182].

182: نالت أخبار الغيب في القرآن عناية خاصة منذ عهد مبكر لدى العلماء المسلمين، فاعتبروها وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكثيرة، فيخبر ابن الخياط عن النظام أنه قال:» اعلم – علّمك الله الخير – أن القرآن حجّة للنبي عليه السلام على نبوته، من غير وجه، فأحدها ما فيه من الإخبار عن الغيوب مثل قوله: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض» الآية، ومثل قوله:

فما عسى يقول المخالفون في هذه النبوات، وما عسى يسوغ لهم فيها من الرد والحجة وقد برت وتمست وانتشرت شرقًا وغربًا وأشرقت، وإن غمط ذلك غامط ولم يكتف به وصمم في رده وتكذيبه لم يوبق إلا نفسه، ولم يسخط إلا ربه، ولم يُغبن إلا حظه، ولم يَقدر أن يوجدنا في كُتبِه إلا مثلَه.

فأمّا ما جاءت به الروايات التي لا شك فيها فقول النبي صلّى اللّٰه عليه وسلّم: "إن لي خمسة أسماءٍ، أنا محمدٌ، وأحمدُ، والماحي يمحو اللّٰه بي الكفرَ، والحاشرُ أحشر الناس، والعاقب أي أني آخر الأنبياء، فقد صدق حديثه عليه السلام، وختم اللّٰه به النبؤات، ومحي به الكفْرَ، أي ذلْله وقلْله ومحاه عن سرةِ الأرض وقلبها، وبقي رسْمُه في أطرافها وحواشيها.

ورُوي أنه كان على جبل فتحرك الجبل فقال: "اسكن فما عليك إلا نبي أو صديقٌ أو شهيدٌ وكان معه أبو بكر فسُمّي صديقًا وعمر وعثمان فاستشهدا بعْدَه.

«قل للمخلّفين من الأعراب» الآية، ومثل قوله: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون «، وقوله: «إنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» ثم قال: «ولا يتمنونه أبدًا بما قدّمت أيديهم «فما تمناه منهم أحد، ومثل قوله: «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم» الآية، ومثل إخباره بما في نفوس قومٍ وبما سيقولونه، وهذا وما أشبهه في القرآن كثيرٌ» . وتابع الرمّاني - في رسالته عن إعجاز القرآن - النظّام في عدّ الإخبار الغيوب وصدقها وجهًا من وجوه إعجازه، ثم توسّع القاضي عبد الجبار في نقاش هذا الوجه وبسط الكلام فيه بشكل وافٍ في كتابه «المُغني» . وفعل ذلك الإمام الباقلاني رابطًا بين كون هذا الوجه مُعجزًا وبين أمّية النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، فمن المعلوم من حال النبي أنه كان أُمّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ، ولم يكُن يعرف شيئًا من كتب المتقدّمين، فأتى القرآن يُجمل ما وقع من عظيمات الأمور ومهمّات السير، من حين خلق اللّٰه آدم إلى حين مبعث مُحمد صلى اللّٰه عليه وسلم. راجع: ابن الخياط المعتزلي «الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد» ص 62 - 63، تحقيق نيبرج، ط بيروت 1988 م، «النكت في إعجاز القرآن» للرمّاني ضمن «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» ص 110-111 ط دار المعارف، القاهرة 1956م. «المغني في أبواب التوحيد والعدل» الجزء السادس عشر «إعجاز القرآن» ص 330-336، تحقيق أمين الخولي، ط1 دار الكتب، القاهرة، 1380هـ- 1960م.»إعجاز القرآن» للباقلاني ص 34 ط دار المعارف، القاهرة 1977.

وأنه عليه السلام كان يقول لأصحابه: «أنا فَرَطُكُم على الحَوْض» أي أتقدمُكم، والفارط المتقدم، فقبضه الله قبلهم.

وقال عليه السلام لفاطمه، رضي الله عنها، في مرضه التي مات فيها: «إنك أسرَعُ أهلي لحُوقًا بي» فكانت أول من مات من أهله بعده.

وقال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: «لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذا»، وأشار إلى لحُيَتِه ورأسه، وأن عليًا اعتلْ من بعده علةٍ شديدة، فقال له أهله: قد تخوفنا عليك من مَرْضتك هذه، وقال: لكني لا أخافُها لأن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذا» فكان كذلك، عُوفي مِن مرضتِه تلك ثم ضُرب على رأسه بالسيف فقُتل.

وقال عليه السلام لعثمان «إن الله سيُقمْصك قميصًا وإنهم حاملوك على خلْعِه فلا تفعل» فلما حُوصِر عثمان وقالوا له اخْلَع الخلافةَ، قال لهم إن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لي كَيْتَ وكَيْتَ ولستُ فاعلا ما تقولون، فقِتل[183].

وقال صلّى الله عليه وسلّم لعمار بن ياسر " تقْتلك الفِئَة الباغية، فقتل في حرب بين علي ومعاوية، فكان معاوية لا ينكر الحديث، لكنه يقول ليس أجنادي الذين قتلوه وإنما قتله مَن غره وأخرجه إلى القتال.

وقال صلّى الله عليه وسلّم للزبير بن العوام: " إنك تقاتل عليًا وأنت ظالمْ

183: خُصصت أكثر من دراسة لهذه النبوءات، نذكر منها على سبيل المثال: إزالة اللثام عما تنبأ به سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة 1409 هـ - 1988 م. كما خصص الباحث محمد ولي الله الندوي أطروحته للماجستير عن دراسته لنبوءات الرسول ما تحقق منها وما يتحقق جمع فيها 188 نبوءة، منها نبوءات تتعلق بالصحابة رضي الله عنهم، ومنها ما يتعلق بالتابعين، ومن بعدهم، وبما بعد عصر الصحابة، ومن هذه النبوءات ما توجد لها مادة وإشارات في كتب المُحدّثين، ومنها نبوءات معنوية تتصل بالعصور والأجيال، والمجتمع المسلم، وتغيّر في الأخلاق والسيرة وتطور الزمان، وتليها نبوءات لم تتحقق بعد. نُشرت هذه الدراسة في «دار السلام» بالقاهرة، وقد اعتمدنا على الطبعة السابعة 2004م.

له ففَعَل، وقرَعَه علي بذلك.

وقال صلّى الله عليه وسلّم لامرأته عائشة رضي الله عنها: «إنك ستنبح عليك كلاب الحَوْءِبِ»، فلما سارت إلى البصرة سمعت نباحًا وهي تسير ليلًا فسألت عن الموضع فقالوا ماءٌ يقال له الحوءب، فذكرت قوله عليه السلام فاسترجعت وندمت على م كان من خروجِها.

وكان صلّى الله عليه وسلّم يقول في الحسَن بن علي عليهما السلام: «إنَ ابني هذا سيدٌ وسيصلح الله به بين فئتين مِن المسلمين».

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «زويت لي الأرض حتى رأيت مشارقَها ومغاربَها وسيبلغ ملك أمتي إلى حيث زوي لي منها» ومعنى زوي أي جُمع.

وإنه أخذ يوم الخندق المعول وضرب به كدْية كانت استعصيت على من يحفر فخرجت منها نارٌ فقال عليه السلام: «لقد رأيت من بين هذه النار مدائن كسرى. ثم ضرب ضربةً أخرى فخرجت نارٌ فقال لقد رأيت من بينها مدائن قيصر ليفتحنها الله على أمتي من بعدي».

ويروى أنه عليه السلام كان إذا رجع من غزوة أو سَفْرةٍ بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم أتي فاطمةَ رضي الله عنها، فأتاها عند مُنْصرَفِه من الخندق فجعلت تبكي وتَلْثِم فاه، فقال لها: " ما لك يا فاطمة تبكين؟ فقالت: "يا رسول الله أراك شَعِثًا نَصبًا قد اخلولقتْ ثيابك. قال: "يا فاطمة إنّ الله بعث إياك بأمر لاَ يُبقي على وجه الأرض بيتَ مَدَر أو شَعْر إلا أدْخَلَ فيه عزًا أو ذلًا حتى يبلغ حيث بلغَ الليل.

وروي عن أنس بن مالك أنه قال لي: كنت مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في حائط فسمعت قرعَ الباب، فقال لي: «قم يا أنس افتح له البابَ وبشره

بالجنة، وأخبره أنه يَلي أمْرَ أمتي من بعدي»، فذهبت فإذا أنا بأبي بكر رضي الله عنه فبشرته وأعلمته ما سمعته وانصرفت، فَقَرَعَ الباب قارعٌ آخر، فقال: قم وافتح له البابَ وبشره بالجنة وبأنه يلي أمر أمتي من بعد أبي بكر، ففتحت، فإذا أنا بعمر رضي الله عنه، فقلت ما أُمرت به. ثم سمعت قرْعَ الباب، فقال لي عليه السلام: قم فافتح له الباب وبشره بالجنة وبلاية أمر الأمة من بعد عمر، فقمت وإذا أنا بعثمان رضي الله عنه».

وروي عنه عليه السلام أنه كان يقول: "لا تقوم الساعة حتى ترو أقوامًا كأن وجوههم المَجَانُّ المُطرقة، وأنه صلّى الله عليه وسلّم يقول: أيُّ بلدانكم حُرسة فقيل له: خُراسان، فقال: «ستفتح عليكم من بعدي» وما يشك أحدٌ من أبناءِ هذه الدولة العباسية وغيرهم أن أبا مُسلم خرجَ وهو غير شاكٍ في أنَّ الغلبة والخلافة لأهلِ هذا البيت، وأنه لما قرب من الحيرَةِ، وجه مَن يَسألُ عمن كان فيها من بني العباس، فلما رآهم الرسولُ قال: «أيكم ابن الحارثية؟ وهو أبو العباس، أمير المؤمنين غَفَرَ الله له، لأنه كان في الحديث أنه أول من يُستخلف ابن الحارثية لا يشكون فيه. وأعجب من هذا أن بني أمية لم يكونوا يشكون في أن الخلافة صائرة إلى أهلها من أهلِ هذا البيت، فكانوا يقتلونهم ويطلبونهم تحت كب حجر. وكان أهل خرسان يُرسلون إليهم الرسل وهم بالشَّراة تأميلًا لهم، ويدعون إليهم ولا يشكون في أمْرِهم حتى قُتل منهم مَن قُتل. ثم ظهر الأمر في الوقت الذي قدر الله أن يظهرَ بأحاديثَ مأثورةٍ، ولقد بلغَنا أنه ورد على أبي العباس رحمه الله فتْح اليمن والسّنْدِ في يوم واحد. فأظهر اغتمامًا شديدًا بذلك، فقال له أهل بيته: يا أمير المؤمنين أنه يومُ سرور، فما هذا الحزنُ؟ فقال لهم: أنَسيتُم الحديثَ المأثور عن النبي

صلّى الله عليه وسلّم إن من أتته مفاتيح اليمن والسند في يوم واحدٍ فقد حضر أجلهُ». فحم من يومه ومات بعد أيامٍ.

وروي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه كَتَبَ إلى كسرى وقيصر كتابين دعاهما إلى الإسلام وبَدَأ بنفسه. فوضع قيصر كتابه على الوسادة وأجابهُ بجواب حَسَن. وأمّا كسرى فإنه مزق كتابَه وكتب إلى فيروزَ الدُيْلَمي وهو باليمن يأمُره بالمسير إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وأخْذِه وقتلِه، فقال: «اللهم مزّق ملكه: فتمزق مُلكُه كما ترون. وسار إليه فيروز وأعلَم النبي صلّى الله عليه وسلّم بما قد امر به فيه، فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم : «إن ربي أعْلَمنِي أنه قد قُتل ربُّك فأمسك عني حتى يَصح عندك الخبر. فأتاهم الخبر بذلك وأسلم فيروز لما رأى وسَمع، ودعا من كان باليمن من أبناء الفرس إلى الإسلام فأسلموا. فلما خرج باليمن الكذّاب العَنْسي يدعي النبوة كتب إليه النبي صلّى الله عليه وسلّم يأمره بقتلهِ، فدخل عليه فيروز وهو نائم ولوى عنقه ودقها فقتله. وقال عليه السلام: «إن هذا الأمرَ لا يزال في قريش» يعني الخلافة.

وقال صلّى الله عليه وسلّم للعباس عمّه وقد أتاه بعبد الله رحمةُ الله عليهما صغيرًا: «إن هذا سيكون مِن أفقه أمتي وأعْلمهم بالتأويل والتنزيل» ودعا له وتفَل في فِيه وقال: اللهم فقّهه في الدين وعَلِّمه التأويل. فكان كما قال، وسمِّي لذلك الحَبْر.

ومن الدلائل على ما يوجب الله للنبي عليه السلام وللمؤمنين به ما جاءَ في الأحاديث المشهورة الشائعة من استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المُطلب رضي الله عنهما عام الرمادة، فإنه أخذ بيده وتقدم وقال: اللهم

إنَّا جئناك لنستسقيك ونستشفعُ إليك بعم نبيك، فما برِحوا حتى ارتفعت سحابةٌ ثم أرسلت مطرًا جوْدًا. وكان يقول لأصحابه: "والذي بعثني بالحق لإن كنتم أمسيتُم وُضعاء لتشرفن حتى تصيروا نجومًا يهتدي بكم المهتدون". ويقال أن فلانًا حدَّث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال عنه كذا وكذا، فقد ترون ذلك كما قال.

وروي أن عكرمه بن أبي جهل قَتل في حرب رجلًا من الأنصار وعكرمه يومئذ مشرك فتبسم النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال له رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله تبسمت أن قتل رجل من قومك يعني عكرمه رجلا منا؟ قال: "لا، ولكن تبسمت لأنهما يجتمعان في درجة واحدةٍ في الجنة" فأسلم عكرمه بعد ذلك واستشهد في وقعةِ أجنادين بالروم.

وقال عليه السلام لعدي بن حاتم: أسْلِم يا عدي تَسْلَم، أظنُّ الذي يمنعك يا عدي من ذلك يا عدي خصاصة تراها بمن حولي وإنك ترى الناس علينا إلبًا واحدًا، هل رأيت الحيرة ؟ قال: لا، قال: يُوشك الظَّعينةُ أن ترحل بلا جِوارٍ حتى تَطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز ثلاث مرات".

قال عدي: فلقد رأيت جميع ما قال عليه السلام. وقال أبو بكر رضي الله عنه حين ارتدت العرب ووجه إليهم بالجيوش: إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد وعد المسلمين بالنصر والفتح من الله، وإن الله يُظهر دينه على كل دين ولن يخلف الله وعده. فقد صدق الله ظنه وحقق قول النبي صلّى الله عليه وسلّم وارتفع الشك.

في أمية النبي صلى الله عليه وسلم وأن الكتاب الذي أنزله الله عليه وأنطقه به آية للنبوة

ومن آيات النبي صلّى الله عليه وسلّم هذا القرآن، وإنما صار آية لمَعانٍ لم أر أحدًا مِن مؤلفي الكتب في هذا الفنّ فسَّرها بل أطلق القول والدعوى فيه. وما زلت وأنا نصراني. أقول ويقول عمٌّ لي -كان من علماء القوم وبُلَغائهم: إن البلاغات ليست مِن آيات النبوة لأنَّها مشتركة في الأمم كلها، حتى إذا اعتزلتُ التقليدَ والألفَ وفارقتُ لزازَ العادةِ والتربية، وتدبرتُ معاني القرآن علمتُ أن الأمْرَ فيه كما قال أهْلُه، وذلك أني لم أجدُ لأحدٍ عربيّ ولا عجمي، هندي ولا رومي كتابًا جَمَعَ من التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق بالرُّسل والأنبياء، والحث على الصالحات الباقيات، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، والترغيب في الجنة والتزهيد في النار بلغ مبلغ هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءَنا بكتاب هذه نسبته ونعته وله من القلوب هذا المحلُّ والجلالة والحلاوة ومعه هذا النصر واليُمن والغلَبة، وكان صاحبه الذي نزل عليه أُمِّيًا لم يعرف كتابة ولا بلاغة قط، فهو مِن آيات النبوة لا شك فيه ولا مِرية.

وأيضًا فإني رأيت جميع الكتبِ المخلدة لا تعدو من أن تكون إمَّا في آداب الدنيا وأخبار أهلها وإمَّا في الدين. فأمَّا كتب الآدابِ والفلسفة والطب

فإن غَرضَهَا مَغْزاها غير هذا الغرض ولن تذكر مع كتب التنزيل وأمَّا ما كان منها في الدين فأول مسمياتها وموجوداتها التوراة التي في أيدي أهل الكتاب. ونجد عامتها في أنساب بني إسرائيل ومسيرها من مصر وحطها وترحالها وأسماء المنازل التي نزلوها، وفيها مع ذلك سنن وشرائع تبهر العقول ويعجز عنها حول الرجال طاقاتهم فأمَّا ما في القرآن من تلك الأخبار فإنما هي تذكير بأيام الله وتمثيل وتحذير وتنذير. وأمَّا الإنجيل الذي في أيدي النصارى فإن جله خبر المسيح ومولده وتصرفه؛ وآدابٌ مع ذلك حسنةٌ ومواعظ كريمة وحِكمٌ جسيمة وأمثال رائقة وليس فيها من السُنَن والشرائع والأخبار إلا اليسير القليل.

أمَّا كتاب الزبور ففيه أخبارٌ وتسابيح ومزامير بارعة الحسْنِ فائقة الحلاوة وليس فيها شيء من السُنَن والشرائع. وأمَّا كتاب أشعيا وأرميا وغيرهما من الأنبياء فجُلُّها لَعنٌ لبني إسرائيل وبشارات بالخزي المعد لهم وإزالة النعم عنهم وإنزال النقم والسطوات بهم وهنات سوى ذلك، قد تجناها وطَعَن عليها الزنادقة والخبثة، وقالوا إنَ الحكيم الرحيم يتعالى عن أن يُوحي بمثلها ويأمر بما فيها مِن رش الدماء على المذابح وعلى ثياب الكهنة والأثمة وإحراق العظام وذِكر الرفوث والفُروث وما أشبهه وتتابع الغضب والسخطات والاستنَان بالجلاءِ عن البيوت إذا تلمعت جدرانها بالبياض، لأن ذلك بَرَص يعتري البيوت.

وما أُمر به قومٌ منهم بأن يمشي بعضهم إلى بعضٍ مُصْلتِين وأن يتجلدوا صابرين حتى يتفانوا ضربًا، ففعل القوم ذلك ولم يعصوا وأجابوا إلى التفاني والاستقتال ولم يمتنعوا، ومن سارع إلى مثلها فهو مطيعٌ وليس بعاص وولِيّ

وليس بعدو، ولا يستحق الأولياء وأهل الطاعة أن يؤمروا بالتفاني والتقتيل.

ثم أمرهم موسى عليه السلام، أن يأتوا جبلين متقاربين، ويصعد أحد الجبلين ستة أحياء منهم ويصعد ستة أحياء الجبل الآخر، وأن يقرأ قومٌ منهم نواميس التوراة التي لا يحملها الرجال ولا الجبل ناموسًا ناموسًا وسنَّةً سنَّةً ويقولون إن من خالف هذه النواميس وقصر فيها وأضاع شيئًا منها فهو ملعون وتجاوبهم القبائل التي على الجبل الآخر بالتأمين لأولئك اللاعنين بأعلى أصواتهم فلم يدَع أحدًا منهم إلا عمّه باللعنة.

وحملهم على أن يلعنوا أعقابهم من بعدهم مجتهدين طائعين في ذلك كله غير مخالفين، فساروا إلى البَوار من قبل أن يستقر بهم الدار، وإلى اللعنة الشاملة من قبل أن يريحوا رائحة الغلبة والسعة[184].

وفي مثل قول حزقيال النبي، أن الله أمره أن يحلق رأسه ولحيته بسيف صارم حاد[185].

ومثل قول هوشع النبي إن الله أمره أن يتزوج بامرأة مشهورة بالزناء فولدت له ابنين وأمره أن يسمِّي أحدهما «لا أرحم» والثاني «ليسوا حزبي» ليعلم بني إسرائيل أني لا أرحمهم ولا اعتدُّ بهم أولياء وحزبا[186].

184 : راجع سفر التثنية، الفصل 27 ط دار المشرق بيروت.

185 : حزقيال 1/5 (وأنت يا ابن الإنسان، فخذ لك سيفا ماضيا كموسى حلاق، وأمررها على رأسك وعلى لحيتك، وخذ لك ميزانا تزن به الشعر وتقسمه).

186 : هوشع 1/ 2-6 (قالَ الرَّبُّ لِهوشعَ: إنطَلِقْ فاتَخِذْ لَكَ امرَأةَ زِنًى وأَولادَ زِنىً، فإِنَّ الأَرضَ تَزني زِنًى بِآريدادِها عنِ الرَّبّ؛فآنطلَقَ وآتَّخَذَ جومَر، بِنتَ دِبْلائيم. فحَبِلَت ووَلَدَت لَه آبناً. فقالَ لَه الرَّبّ: سَمِّه يِزْرَعيل، فإِنِّي بَعدَ قَليلٍ أُعاقِبُ بَيتَ ياهو على دِماءَ يِزرَعيل، وأُزيلُ مُلكَ بَيتِ إِسْرائيل.وفي ذلك اليَومِ أَكسِرُ قَوسَ إِسْرائيلَ في وادي يِزرَعيل؛ثُمَّ حَبِلَت ثانِيَةً ووَلَدَت بِنتاً، فقالَ لَه الرَّبّ: سَمِّها غَيرَ مَرْحومة، فإِنِّي لا أَعودُ أَرحَمُ بَيتَ إِسْرائيل، صافِحاً عنهم صَفحاً).

وقال هوشع عن الله في اليهود: إن أمهم زانية وأنهم ولدوا لغير رشدةٍ.

وقول بعض الأنبياء لليهود عن الله إن أُمَّكم أعجبها ذكور أهل مصر.

وقال أشعيا وخطب على بني إسرائيل بخطبة ثم قال: إنَّ قائل ذلك هو الرب الذي نوره بصهيون وتسوره ببيت المقدس.

فأمَّا القرآن فلن يوجد فيه حرف مما يشبه ذلك، بل منسوج بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسُّنن والشرائع والخبر والأثر والوعد والوعيد والرغبة والرهبة والنبوات والبشارات بالأمور الجميلة التي تليق بجلال الله وحكمته وطَوْلِهِ وبسط الأمل في الغفران والرأفة وقبول التوبة والمعاني التي ترتاح لها الأنفس وتستريح إليها الآمال فلا تقنط. بل يقول الله فيه: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ). ويقول: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[سورة الزمر: آية53].

ولذلك استحق أن يُقال إن هذا الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له نظير منذ خلق الخلق وخط في الرِّقّ. وإنه ليشتمل على فضائل أخرى باهرة ذات أنوار وأسرار وهي: إن تلك الكتب، بل هذه التي للحكماء خاصة، إنما ألفها قوم أدباء علماء بعد تفكّر وارتياض، وبعد أن نشأوا في المدن وسمعوا الأخبار وثافنوا العلماء.

وأمَّا النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلم يكن كذلك، بل أمِّيٌّ أبْطَحيٌّ لم يسمع من مصري ولا رومي ولا هندي ولا فارسي، ولا اختلف إلى مجالس الأدباء لطلب أدب وقراءة كتاب، وجاء بكلام بهر أهل اللغة وغمر أهل الفصاحة

والسلاطة، وخضعتْ له رقاب الأمَّة، فإنه قال عن الله تعالى « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ «[سورة هود :آية 13]. وقال: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»[سورة البقرة: آية 23]. فما كان من القوم من تزمزم ونطق، بل بَصْبَصوا وأذعنوا ودانوا.

وقد يحتجّ علماء أهل الذمة بأن النبي عليه السلام كان أُمِّيًّا وأن الله لا يبخل على أنبيائه برسم الكتابة إذ كان أَخَسَّ ما اختصهم به وأقل ما علمهم من غيبة وآياتهِ.

فالجواب فيه: أن الله تعالى خصّ كلا منهم بما رأى عزّ وجلّ، فمنهم الخطيب البارع مثل داود، ومنهم التمتام والألثغ مثل موسى[187]، ومنهم من أحيا الميت دون غيره، ومنهم من فلق البحر وفجر من الصخر ينابيع المياه ولم يُعْط ذلك غيره.

187: يقول الجاحظ: «وقد زعم ناسٌ من العوامّ أن موسى عليه السلام كان ألثَغ ولم يقِفوا من الحروف التي كانت تعرِض له على شيء بعينه، فمنهم مَن جعل ذلك خِلقة، ومنهم من زعَم أنَّه إنما اعتراه حين قالت آسيةُ بنتُ مُزاحِمٍ امرأةُ فرعون لفرعون: لا تَقْتُلْ طفلاً لا يعرف التَّمر من الجمر، فلمَّا دعا له فرعونُ بهما جميعًا تناول جَمرةً فأهوى بها إلى فِيه فاعتراه من ذلك ما اعتراه [...]، قال: وكان الواقديُّ يروي عن بعض رجالِه أنّ لسان موسَى كانت عليه شأْمة فيها شَعَرات وليس يدلُّ القرآنُ على شيءٍ من هذا لأنّه ليس في قوله: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي»[طه: 72] دليلٌ على شيءٍ دونَ شيء «.[البيان والتبيين 36/1، 37].

«ومن الدَّليل على أنّ الله تعالى حَلّ تلك العقدة وأطلق ذلك التعقيد والحُبْسة قولُه: » رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّر لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» [طه: 52 – 23] إلى قوله: «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» [طه: 63] فلم تقع الاستجابة على شيءٍ من دعائه دون شيء لعُموم الخبر» [البيان والتبيين 8/1] تحقيق عبد السلام هارون، ط 2 الخانجي، القاهرة.

ومنهم حكيم كاتب مثل سليمان، ومنهم أُمّيّ مثل داؤد، فإنه قال في زبوره: "من أجل إني لم أعرف الكتابة" فلم يُزْر ذلك به كما أنه لم يُزْر بالمسيح أن لا يكون ملاعب الأسنة أو من رُماةِ الحَدَق أو لا يكون ماسحًا ولا مُهندِسًا.

وكما أنه لم يُزْر بموسى أن لا يكون لسِنًا خطيبًا أو ماشيا على الهواء أو أن لا يكون إبراء الأكمه والأبرص، وأن لم يُزْر به وبداود ونُظَرائِهما عليهم السلام أن لا يكون الله رفعهم إلى السماء كما رفع غيرهما. فليس لقائل أن يقول بخل على فلان النبي بما جاد به لفلان النبي بل قائل ذلك معاند مارد.

أما ترى أن لم يُعَب شمعون الصفا ولا متى ولوقا تلامذةُ المسيح عليه السلام بأن لم يكونوا بلغوا مدى فولوس في بلاغته وبيانه، وكذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يشِنْه أنه أميّ مثل داود، بل جعل الله ذلك آيةً باهرة وحجة على من كفر به من قومه إذ كان قد صح عند الأمم وأهل الذمة أنه لم يجئ بهذا القرآن بفضل بيان و حكمة أرضية.

ولقد كان عليه السلام مُوجزًا في كلامه نَزْورًا يذمُّ المِكثارَ المِهذارَ ويترسَّل في القول، بلغنا أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إنه لم يكن النبي صلّى الله عليه وسلّم يسرد الكلام سردكم، كان كلامه نَزْورًا وأنتم تنثرونه نثرًا. ولقد ذهب يومًا يتكلم فضاق به فسكت ثم قال: "إن هذا البِكاءَ أمرٌ يكون في الأنبياء". والبِكاءُ الإقلالُ، مِن قولهم بِئرٌ بَكِيَّةٌ أي قليلةُ الماءِ، وشاةٌ بكيةٌ إذا كانت منقطعة اللبن.

وسمع عليه السلام رجلًا يَتَشدَّقُ ويُشقق الكلام، فقال له اسكت، ثم أقبل على من حضر فقال: "قولوا بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان إنَّ أحبَّكم إليَّ

وأقربَكم مني يوم القيامةِ أحسنُكم عملًا، وإنَّ أبغضكم إليّ وأبعدَكم مني يوم القيامة أسوأكم عملا، وإني أبغضُ الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين". فالأمية التي عابه بها أهل الذمة غير مزرية به ولا عائبة بل حجة وبرهان منير. فلو جاءَ بمثل هذا الكتاب الذي قد وصفتُهُ رجلٌ أديبٌ خطيبٌ لكان كذلك آيةً من الآيات، فكيف إذا جاء به رجلٌ بَدَويٌّ أُمِّيٌ[188]. فإن ذلك يشهد له بأن الله أنطقه وروح القدس سدده له وأعانه عليه.

188: تتحدث كارين أرمسترونج عن تاريخية هذا الموقف من الأمية قائلة: «إن التأويل الشائع للفظ (أمي) هو تأويل مبكر جدًا، وهو أيضًا من الأهمية بمكان لدى المسلمين، فإن له نفس أهمية الميلاد العذري في المسيحية، والتي تؤكد على النقاء اللازم للرجل أو المرأة، كلما يأتي بكلمة إلى الناس؛ لأن التنزيل لايجب أن يشوبه أو تتدخل فيه إضافة إنسانية خالصة» وربما نجد لكلامها بعضًا من الوجاهة إذا ما قارناه بما يقوله السلمي في تفسير لفظة الأمي «الأمي: من لا يعلم من الدنيا شيئا ولا في الآخرة إلا ما علمه ربه، حالته مع الله حالة واحدة، وهي الطهارة بالافتقار إليه والاستغناء عما سواه» انظر تفسير السلمي ص 246 ط دار الكتب العلمية، بيروت 2001، وراجع كتابها (محمد رسول الله) ص 135، 136 الترجمة العربية ط 2 سطور، القاهرة... ويؤيد هذا الموقف كثرة من المستشرقين من أمثال: (أماري، وكازيميرسكي، ومونتيه، نيكيتا إيليسف، ويل ديورانت، كارليل، جان ديون يورث، كونستان ورزيل كيوركيو، غوستاف لوبون)، راجع: لخضر شايب: « نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر» ص 389، ط1 العبيكان، الرياض 2002م، و مرتضى المطهري «النبي الأمي» [7 9-]، ترجمة محمد علي التسخيري، ط مركز الإعلام للثورة الإيرانية - طهران- 1980م. جديرٌ بالذّكرِ أن موقف النصارى اليوم من أمية النبي مختلفٌ، فإذا كانوا في عصر الطّبري يعيبون النبيّ بها، فهم اليوم يرون أن النبي كان يقرأ ويكتب؛ ويأكدون على ذلك من باب نفي الإلهية عن القرآن.

الباب السابع:
في أن غلبة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم آية من آيات النبوة

ومن آيات النبي عليه السّلام هذه الغلبة التي احتج بها المسلمون كافة، وقد كنت أقول فيها مثل الذي قال غيري من النصارى، أن الغلبة أمر مشترك بين الأمم وما كان مشتركًا فليس بآية من آيات النبوة، حتى إذ فَقْتُ من سكرة التيه، وهببت من سنة الحيرة، وانجابت عني فتنةُ التقليد عَرَفْتُ أن ليس كما علمت وأنه كما قالوا. وذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم خرج وحيدًا فريدًا يتيمًا عائلا كما قال الله عز وجل: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى» [سورة الضحى: آية8-6].

ودعا العرب قاطبة والأمم عامة إلى الإيمان بالله عز وجل، والناسُ يرمونه عن قوسٍ واحدةٍ ويزدرون به ويتشاوشون(189) له، فما نَهْنَهه ذلك ولا فلَّه، بل باح بالدين ولم ينكفِئْ ومضى قدمًا لِما أمره الله به ولم يلتفت. فلما رآهم ينبذون أمره ويتهمونه ولا يدهلون في دين الله ونعمته طوعًا أدخلهم فيه كرها، حتى ظهرت الدعوة ودانت العرب قاطبة، وتتابعت فيهم الآيات والنبوات واخْلَوْلي لهم الدين وسطع اليقين، فبلغ من حبهم له بعد البغضة وانقيادهم بعد العداوة ما قد يرون ويسمعون.

189: كذا بالأصل وصوابه: يتشاوسون، وقد التفت إلى هذا الخطأ عيسى اسكندر المعلوف في قراءته لنشرة منغانا، ونوّه عليه في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع، محرم 1343هـ، ج 8، ص382.

فمن ادعى غلبة كانت باسم الله منذ خلق الله الدنيا، لها من الشرائط والمحاسن والدعاء إلى خالق السماء والأرض، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والنهي عن الشُّركاء والأنداد والفواحش والنجاسات، ثم ظهرت هذا الظهور والاستعلاء في أقطار الدنيا وآفاقها وبرها وبحرها، من لدُن السُّوسِ الأقصى إلى فيافي الترك والتبّت بالبكائين والبهاليل، والإشارة باسم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء.

وكان لدُعاته من الزهد في الدنيا والإطراح لأسبابها ورفع الهمم وحسم النفوس عن كل لذة وشهوة، والقنوع بالقوت الممسك، والأمر بالتسوية في القسم والعدل في الحكم، حتى لو أن مسلمًا مؤمنًا قَتَل ذميًا كافرًا قتل المسلم به قودًا وعدلا(190)، علمنا علمًا يقينًا أن تلك الغلبة تقوم مقام آيات النبوات لا محالة.

فأمّا ما عارضونا به من غلبات الأمم فإنهم إذا فارقوا الأهواء التي تُعمي وتُصم، وميزوا العلل، علموا أن غلبة الإسكندر وأذوشير بن بابك وغيرهما

190 : قال تعالى «ولكم في القصاص حياة» وتحقيق معنى الحياة في قتل المسلم بالذّمي أبلغ منه فى قتل المسلم بالمسلم لأن العداوة الدينية تحمله على القتل، وثانيًا:عموم قوله عليه السلام «العمدُ قودٌ» قد صحّ عن عبد الرحمن ابن البيلمان ومحمد بن المنكدر أن رسول الله صلى الله عليه أتى برجل من المسلمين قد قتل معاهدًا من أهل الذمة فأمر به فقتل وقال»أنا أولى من وفى بذمته»، وثالثا: أن القصاص يعتمد المساواة في العصمة والكافر بعقد الذمة صار معصوم الدّم نظرًا إلى الدار وإلى التكليف لأن شرط التكليف القدرة على ما كلف به من القيام بما يوجبه عقد الذمة ولا يتمكن من إقامة ما كلف به إلا بدفع أسباب الهلاك عنه وذلك بأن يكون محرّم الدم.

ورابعًا: بأن الذميّ لو قتل ذميًا ثم أسلم القاتل قبل أن يقتل قُتل به بالأجماع وهذا قتل مسلم بكافر فلولا أن المسلم يجب عليه القتل بقتل الذميّ ابتداء لما دام وجوب قتل القاتل الذميّ إلى ما بعد الاسلام لأن حالة البقاء في مثل هذا معتبرة بالابتداء تعظيمًا لأمر الدم. راجع الشيخ عبد الله المراغي في مقاله:»روح التشريع الإسلامي» مجلة المحاماة الشرعية، السنة الثامنة، محرّم 1356هـ - ص 35.

لم تكن في الله ولا للدعاء إلى الله ولا إلى أنبيائه، بل لطلب الغلبة والعز والسمعة، وهم مِن بين دهري أوثنوي أو وثني فهذه لا تقاس بغلبة الإسلام وجلالته و إشراقه.

ولهذه الغلبة بيّنةٌ أخرى كافية شافية وهي: أنها لن تخلو من أن تكون من الله أو من الشيطان، فإن أقرُّوا أنها من الله فالإسلام إذًا حقٌّ يجب عليهم قبوله والدخول فيه، وإن زعموا أنها من الشيطان، فالشيطانُ إذًا موافق لله وأنبيائه غير مخالف، ومطيعٌ غيرُ عاصٍ، إذ كان ينصر من دعا إلى الله الفرد الدائم، ويُظهر دين من أمر بالصوم والصلاة، وينهى عن الفجور والكفر والفحشاء والمنكر، ومن جعل تكبير الله وتمجيده وشعاره عند اللقاء ومقدمته عند الزحف وجُنّته عند المداعسة والجلاد.

وإن من ظنّ بالشيطان أن يعين على إظهار مثل هذا الدين وتأييده فقد أحسن به الظن وقال فيه الجميل وكذّب ما قال الله وأنبياؤه فيه. وكيف يعين الشيطان من دعا إلى مثل هذا الدين، وفيه اجتثاث أصله، وانبتاتُ أسبابه، وإبادة جميع عبدته ودعاته.

وقد ظن قوم من الفسقة بالمسيح عليه السّلام مثل ذلك، وقال فيه ربّانيو اليهود: إن هذا إنما يخرج الشيطان برئيس الشياطين، فقال لهم المسيح: إن كل مملكة تُعينُ على نفسها فإنها تهلك ولا تقوم، وكل مدينة يقع فيها التشتت والخلاف فإنها لا تدوم ولا تثبت، قال: فإن كان الشيطان هو الذي يخرج الشيطان فكيف يدوم ملكه وعزه؟ فبهت اليهود عند ذلك[191].

191: في إنجيل متّى «12/24-26»: «وسَمِعَ الفِرِّيسيُّونَ كَلامَهم فقالوا: (إنَّ هذا لا يَطرُدُ الشَّياطينَ إلاَّ بِبَعلَ زَبولَ سيِّدِ الشَّياطين). فَعَلِمَ يسوعُ أفكارَهم فقال لهم: كُلُّ مَملكةٍ تَنقَسِمُ على نَفْسِها تَخرَب، وكُلُّ مَدينةٍ أَو بَيتٍ يَنقَسِمُ على نَفْسِه لا يَثبُت. فإن كانَ الشَّيطانُ يَطرُدُ الشَّيطان، فقدِ انقَسَمَ على نَفْسِه، فكيفَ تَثبُتُ مَملكتُه؟

فهذه حجتنا على من قال في النبي صلّى الله عليه وسلّم ما قالت اليهود في المسيح عليه السّلام، فإن مما أدى النبي عليه السّلام عن الله عز وجل في الشيطان قوله: "أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ" [سورة المجادلة، آية: 19] وقوله: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [سورة فاطر، آية: 6] وقوله: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»[سورة ص، آية: 78-77] وقوله: "لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ" وقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"

وقوله: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ" [سورة الناس]. ولقد أمر النبي عليه السّلام بالاستعاذة منه في كل صلاة ووقت في قوله: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

فإن كان الشيطان ينصر من يلعنه وينذر الناس شره، لم نأمن أن يكون جميع ما ظهر من الأديان باسم الله الفرد الواحد هو موافق للشيطان ومن عنده. وقد أجمعت الأمم كلها على أن الشيطان إنما يأمرك بالشرك بالله وعبادة الأوثان والنيران، ويزين الزنا والفجور والغدر، وفيه محبته ووسوسته، وأنه عدو لله وعدو لأنبيائه الذين يأمرون بخلاف ذلك كله. فالله إذًا بريء من جزب الشيطان والشيطان بريء من حزب الله وأوليائه، وهذه الغلبة من الله لا من غيره.

الباب الثامن:
في أن الد ّاعين إلى دينه والشاهدين بحقيقة أمره كانوا خيار الناس وأبرارهم[192]

وقد ظنّ قومٌ بحواريي النبيَ صلّى الله عليه وسلّم الزور والزيغ وقالوا فيهم فأثموا وحادوا عن سبيلهم فضلّوا. وأنا ذاكرٌ من فضائلهم وزهدهم وتورّعهم ما يدعو إلى حسن الظن بهم ويكفُّ عن تنقيصهم.

في زهدِ أبي بكر رضوان الله عليه:

فأولهم: أبو بكر، بلغ من زهده في الدنيا واستهانته بها وتنزهه عنها أنه دعي إلى الخلافة وهي أرفع أمور الدنيا قدرًا وأعظمها شأنًا وأجمعها لكل عزٍ ورفعة وقهر ولذة عاجلة وآجلة وأجلها لكل أمنية، فامتنع منها وتأباها حتى أكرهوه عليها فطاف على الناس بعد أيام وهو يقول بأعلى صوته: هل من مُقيل؟ هل من مُقيل؟ فلمّا لم يجبه أحد خطب الناس وقال:(إن بيعتي هذه كانت فلته وإنما قبلتها أني خشيت التفنة، والله ما حرصت عليها يوما ولا ليلة

192: قارن الجعفري في «التخجيل» 888/2 إذ يستحضر نص الطبري في القرن السابع الهجري «ومن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم أيضاً أن الداعين إلى دينه من بعده والشاهدين بحقيقة أمره كانوا خيار الناس وأبرارهم كأبي بكر الصّدّيق وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم من الصحابة - رضوان الله عليهم - المبسوطة أخبارهم في كتب التاريخ مما يشهد بزهدهم وورعهم وكمال أخلاقهم - كيف لا يكونوا كذلك وقد تربوا في مدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم - وقد أقبلت عليهم الدنيا بزهرتها فأدبروا عنها، فمن كانوا كذلك لم يظن بهم الأباطيل والكذب».

ولا سألتها الله سرا ولا علانية وما لي من هذا نبلًا وأبلس ورعًا وأرفع همة إلى الأمور السماوية)[193].

وقد بلغ من عفته وتوقّيه أنه قدّر لنفسه في كل شهر من الرزق ستين درهمًا من مال المسلمين. ويُقال أنه سأل أن يُؤخذ منه ماله ويدخل في بيت مال المسلمين وينفق من رزقه كما ينفق غيره فأبى المسلمون ذلك، فقال لهم: (هذه خلافتكم ردٌّ عليكم، لا والله لا أليها إلا على هذا) فأجابوه إلى ذلك.

وبلغنا أنه رضوان الله عليه رأى بعد أن استخلف بأيام وهو يرفع قميصه لمن زاد.

وقيل له في مرضه: ندعو لك الطبيب ؟ فقال: "قد رآني الطبيب" قالوا: فما قال لك ؟ قال: "إنه يفعل ما يشاء" يعني الله، فلما اشتدت علّته قال: أين طبيبكم هذا ليردّها إن كان صادقًا ؟ والذي أكرم وجه أبي القاسم ما في الأرض نفسٌ تخرج أحب إليّ من نفسي ولا نفسُ هذا الذباب الطائر، أو تعلمون مِمّ ذلك ؟ قالوا: لا. قال :لأني خشيت والله أن يجيء أمرٌ يحول بيني وبين الإسلام، ويريد هفوة أو خطيّةٌ.

وعهد إلى عمر بن الخطاب عند وفاته فقال: إن حفظت وصيتي يا عمر فإنه لا غائب خير لك أن تلقاه من الموت وأنت لاقيه لا محالة، وإن ضيّعت عهدي لا غائب شر لك أن تلقاه ولن تعجزه.

ولما حضرته الوفاة أوصى إلى عمر فقال: إني لم أُصِبْ من مال المسلمين شيئًا إلا هذا البكر كنت احمل عليه الماء فأشرب ويشربون منه، وهذه

193: وصف عمر بن الخطاب بيعة أبي بكر في اجتماع السقيفة بقوله: «إن بيعة أبى بكر كانت فلتة فتمّت،وأنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها»ويشير ابن جرير الطّبري إلى أنها :»كانت فلتة كفلتات الجاهلية». راجع ابن هشام في السيرة، ص 658، والطبرى في تاريخه،جـ 4 ص 1845.

الجارية كانت تخدمني وتخدمكم، وهذه القطيفة ونبذها برجله، ثم قال: «وقد رددت ذلك كله وأنا حيٌّ سويٌّ».

وبلغ من خشيته ومن عدله أنه اختصم إليه رجلان فكان أحدهما يدخل في حجة الآخر، فنهاه أبو بكر مرارًا فلم ينته، فرفع الدِرة واتّقاها الرجل بيده فأصاب اليد وانكسرت ومضى الرجل كذلك، فاغتم أبو بكر عنه غمًّا شديدًا وقال لعمر: "لا وليتُ هذا الأمر أبدًا وما أوقعني فيه غيرك" فقال عمر: والله إن هذا الأمر ألزم لك من أذُنِك، إي والله يُضرب بالخشب وبالسيف.

ثم قام ومعه عمر حتى صار إلى الرجل ودفع أبو بكر الدرة إليه وبرك بين يديه وقال له استقد فلان، يكن ذلك عاجلًا أحبُّ إليَّ من أن يكون آجلًا "فأبى الرجل وقال: لقد كنت على أن أروح إليك وأسألك أن تستغفر لي لأني أغضبتك".

فقال عمر للرجل: "لتفعلن ولتجعلنه في حلٍّ" قال الرجل: "فأنت في حِلٍّ يا خليفة رسول الله غفر الله لك". فقام أبو بكر وه ويقول: "غفر الله لك كما غفرت لي، وعفى عنك كما عفوت عني".

وخطب رضي الله عنه فقال: "إني وليتكم ولست بخيركم فإن استقمت فأعينوني وإن ضعفت فقوّوني، الضعيف عندكم هو القوي عندي حتى آخذ له بالحق، والقوي عندكم هو الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، الصدقُ أمانة والكذب خيانة، ما أطعت الله أطيعوني فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم".فمن كان هذا زهده في الدنيا وقد ملكها، وهذا قوله في الخلافة وقد أكره عليها لِمَ يُظَنُّ به قبول الباطل والقول به.

في زهد عمر بن الخطاب وفي فضائله رحمة الله عليه ورضوانه:

إنه لا شيء من أمر الدنيا أجلّ من الخلافة ولا أقلّ من القُوت والبلغة، فمن أتته الخلافة صفوًا عفوًا فعفّ عنها، ورضي بالقُوت منها، واقتنع بالعري والبؤس، وافترش الحصى وتوسد الذراع وحسم نفسه عن كل شهوة ولذة، وأتى بخزائن كسرى المصونة منذ آلاف السنين فحقرها وقذّرها ولم يمد يده إلى درهم ولا دينار ولا درة ولا آنية ولا جوهرة ولا حُلّةٍ ولا وصيفة منها، فما في الأرض أزهد منه ولا أعف ولا أكف.

وكان إذا وجّه جيشًا قال: "يا أيها الناس إن عليّ لكم ما ضمنته يوم وليتكم، لا آخذ من مالكم درهمًا إلا بحقه، وإذا صار إليّ لم أخرجه إلا في وجهِهِ؛ ولا أجهزكم في البُعوث، ولا أكلفكم فوق طاقتكم، وأكون أبا العيال حتى تنصرفوا".

فكان يختلف إلى المنازل المغيبات فيسلّم عليهن ويشتري حوائجهن بنفسه وهو أمير المؤمنين ويأتيهن بكتب أزواجهن وينفذ إليهم كتبهن.

ويقال: إنه رأى امرأة مغيبة قد حملت جرة فأخذ عمر رضي الله عنه الجرة منها، وحملها على رأسه حتى أتى بها منزلها.

وأنه مرّ بشيخ نصراني وهو يسأل ويقول: "اللهم احكم بيني وبين المسلمين جبوني شابًا وأسلموني كبيرًا" فقال عمر: هلك عمر، ومضى مبادرًا حتى ملأ غرارةً من دقيقٍ ودعا بحمّال ليحملها ثم قال للحمّال: لا أنا أولى بحملها؛ فحملها على رأسه، وأتى بها الشيخ مع دراهم دفعها إليه وأجرى له في كل شهر قوته.

وَبُعِثَ إليه بسلَّة من حلوى فقال: هل أهدي لجميع المسلمين مثلها؟ قالوا: لا، قال: "فلا حاجة بي إلى مرفق أو مطعم لا يعمُّ جميع المسلمين" وأمر برفعها من بين يديه.

وقيل له في مرضته: نأتيك بالطبيب ؟ قال: لو كان شفائي في مسح أذني ما مسحتها، نعم المذهوب إليه ربي.

ونظر إليه أهل الشام وقد نزل عن بعيره وهو يقوده وانتهى إلى نهر فجلس وخلع خفَّهُ بيده وخاض النهر فقالوا: "ما رأينا ملكًا في رهبانية غير هذا".

ويقال: إن عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان في حائطٍ له يعمل، فسمع صوتًا عاليًا، فقال له الحسن بن علي عليهما السلام: "يا أبتي اصعد ترى عجبًا « فإذا هو بعمر يعدو خلف بعير قد ندّ من مال الصدقات وهو يتصبب عرقًا فقال علي رضي الله عنه:»هذا الأحوذي بن حنتمة الذي لانَ في غير ضعف واشتد في غير عُنف»[194].

ولما أتي بالهرمزان ملك الأهواز وعليه هيئته ولباسه والناس يتعجبون منه قال لهم: أين أمير المؤمنين؟ قالوا: "هو ذاك النائم" قال: فأين حجبته؟ قالوا ليس له حجبة. قال: فأين شرَطُه؟ قالوا: «هو شرطي نفسه» قال: فأين مجلس مُلكه ووساده؟ قالوا: «مجلسه الأرض والتراب وفرشه الحصى ووساده يده» قال لهم: إنما قويتم علينا بهذا، هانت عليكم الدنيا والحياة ورغبنا فيهما».

ولما أتى بخزائن كسرى وجواهره صُبّ ذلك في المسجد صبًّا، فأظهر اغتمامًا، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه يوم سرور، فقال: إنه لم يُفتح مثل هذا الفتح على أحد إلا صار بأسُهم بينهم.

194: الأحوذيُ: الرجل الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها. وحنتمة: أم عمر بن الخطاب.

وجلس فكان يقسم المال بالكفّ وابنه جالس ناحية كأنه شاة كسيرٌ، فلما رآه لا يُعطيه شيئًا قال: "يا أبتِ كأنك لا ترى لي في هذا المال حقًّا" قال: «بلى يا بني، ولكني أخاف أن يتسع كفّي لك. فقال بعض من حضر فإني أدفع إليه ما حفنت لي واحفن لي غيره، ففعل ذلك.

وتناولت بُنِيَّةٌ له درهما من المال فصاح بها فلم تلقه، فقام إليها عمر رضي الله عنه، فألقته الصبية في فيها، فلم يزل يعصر حلقها حتى رمت به.

وأهدى له رجل حلتين فباعهما واشترى بثمنهما خمسة رؤوس وأعتقهم وقال: إن رجلًا آثر قشرين يلبسهما على عتق هؤلاء لغبينُ الرأي.

زهد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه

يُقال: إنه لما استخلف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شوهد يرفع سيفه بعد أيام لمن زاد وهو يقول: "لو كان لنا عشاء ليلة ما بعناه". وكان من أحوج الناس إليه فاضطرته الحاجة إلى بيعه وهو يستغل من ضيعةٍ له في كل سنةٍ مالًا عظيمًا وكان يخلي بيت المال في كل يوم ويرشه وينام فيه وهو يقول: "يا صفراء غُرّي غيري خلا لك الجو فبيضي واصفري".

ويُقال: إنه كانت له قطيفة متجردة بالية فألقت عليه وعلى عياله الجارية قطيفة من قطَفِ الصدقةِ فأنكر خملها وقال: ما هذه ؟ قالت: قطيفة من مال الصدقة، فألقاها عن نفسه وقال: "لقد أصردتمونا بقية ليلتنا" [195]. وناداه رجل وهو في بيته فخرج إليه مسرعًا وهو يقول: والبيكاه.

195: قارن: أنساب الاشراف ج2 ص117 رقم /68.

زهد عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعدة من خيار المسلمين رضي الله عنهم أجمعين:

فإن قال قائل: إن هؤلاء قد كانوا معتادين للبؤس، وأنه لم يسغ لهم غير ما فعلوا فقد يكون الرجل معتادًا للبؤس فإذا صار إلى السعة اتسع وتحرّق في اللذات واستدرك منها ما فات في خوالي الأزمنة.

فهذا معاوية وابنه يزيد ومن بعده من خلفاء بني أمية قد تمتعوا ونالوا لذاتهم من كل مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومحبوب ومعشوق، فما انتطح فيه عنزان ولا امتنع عليهم اثنان، ما خلا الوليد بن يزيد بن عبد الملك فإنه كشف القناع وخلع العذار وأهمل الأمر وبُلي بالإنتان والعذر الجاري.

وهذا عمر بن عبد العزيز، رحمة الله عليه، وقد تقدّمه عدة ممن ذكرنا من أصحاب الملاهي وإخوان الدنيا، فلم يلتفت إلى شيء من ذلك، فلقد بلغ من نسكه واستهانته بالدنيا بعد أن كان أنعم أهل دهره بدنًا، وأطيبهم ريحًا، وأحسنهم زينة، وأشدهم تأنقًا في كل شيء، أنه صعد المنبر بعد أن استُخلف فقال: "والله ما تمنيت هذا الأمر قط، ولا سألت الله فيه في سر ولا علانية فمن كان كارهًا لنا فالآن".

وإن مما حقق به قوله هذا أنه تهدّمت درجة في داره فرمّها بعض أهله، فقال عمرُ رضي الله عنه: سبحان الله، كأن الذي صنع نفس على أن أخرج من الدنيا ولما أضع لبنة على لبنة. ثم أمر بهدمها.

وأنه أتى في يوم بارد بماء مسخن فقال للجارية: من أين لكم هذا؟ فقالت: سختّاه حيث يُطبخ طعام المسلمين فقال: "لو أنك أتيتيها بجهالة لم تخدميني بعدها، أردّدي عليهم ثمن الحطب".

واشترى له غلامُه ثوبًا بعشرة دراهم فقال: "هذا لينٌ جدًّا أريد أدون من هذا" فقال الغلامُ: لقد اشتريت له قبل الخلافة ثوب وشي بسبعمائة دينار، فقال: أريد أرفع من هذا. وأنه قيل له يومًا أن بني أمية قد اشتد عليهم ردُّك المظالم فقال: بوُدِّي أن الله قد ردَّ لي كلَّ مَظلمةٍ على أني كلما رددت مظلمة قطع من جسدي أنملةً فيكون آخر مظلمة أردها مع خروج نفسي.

وكان يقول: ما كذبت منذ عقلت، إن الكذب يشين أهله.

وكتب إليه عامل حمص يسأله أن يزيد في ثمن قراطيسه ودهن مصباحه ويستأذنه في مرمّة سور المدينة، فكتب إليه: ارق القلم وأوجز الكلام وأجمع حاجتين في حاجة، وأمّا دهن المصباح فإن عهدي بك وأنت تخرج في الليلة الظلماء إلى المسجد لا مصباح معك، وأمَّا سور المدينة فحصّن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الجور.

وكتب إليه والي العراق بأن قد اجتمعت عنده أموال عظيمة، فأمره أن يوسع على المسلمين وذراريهم في أرزاقهم، فكتب إليه أنه قد فعل وحصلت أموال، فأمره أن يزوج أبكار الرجال من أبكار النساء، فكتب إليه أنه قد فعل وحصل مال، فكتب إليه أن يقوي أهل الذمة على العمارة ويجعله سلفًا عليهم فلا حاجة لعمر وآل عمر في شيء من ذلك.

- وبلغنا أن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رحمة الله عليهما- اشتهى في مرضه عنبًا فوجدوا عنقودا واشتروه له بدرهم، وجاء سائل فأمر بدفعه إليه، فذهبوا فاشتروه من السائل وردوه إليه، فجاء سائل آخر فدفعه إليه وأبى أن يذوق منه.

- وبلغنا أن الربيع بن خيثم رحمة الله عليه لما مرض قالوا: لو دعوت بطبيب، قال: قد أردت ذلك، ثم قصرت، فقلت: أين عاد وثمود وقارون، بين ذلك، كان فيهم أطباء فلم يبق المداوون ولا الذي داووه، فما معنى الطبيب والموت لا مدفع له؟

وولي البصرة رجلٌ من أهل الشام وكان يستدرج القراء ويتأتىّ لهم حتى يقبلوا أرزاقه وصلاته، فعرض ذلك على امرأة ناسكة فقالت: يا فاضح القرّاء، والله اني لأستحيي أن أسأل مالك الدنيا شيئًا من أمر الدنيا فكيف أسأل ذلك مملوكًا مثلي فقيرًا؟

- وبلغ بعضُ ولاة الكوفة من الهاشميين عن رجلٍ مستور زهد ورع فبعث إليه بمال عظيم، وامتنع الرجل من قبوله، وظن الهاشمي أنه مِمَّن يبغض دولتهم ولا يستحل مالهم فهمّ به، وبلغ ذلك الرجل فقام وصلّى ركعات وقال: " يا رب انهم رغبوني فيما زهدتني فيه وأرادوني على ما نهيتني عنه، فاقبضني إليك"، فوجدوه ميتًا في محرابه.

- وحجّ بعضُ الخلفاءِ فأتي زاهدًا من زهّاد مكة فما رفع إليه رأسه وأحضره مالًا عظيمًا ليفرقه فيمن يرى، لأبى أن يقبله وسأله أن يوصيه فقال: اتق الله فيما استرعاك من أمور المسلمين واكتف بالقرآن هاديًا ومؤدبًا.

فهذا زهدُ عدّة من الملوك وأبناء ملوك وخيار الأمة الذين لا يُوجد لهم شبيه ولا شروى في ملوك الأرض وأمم الأنبياء مذ كانت الدنيا. فمن كانوا كذلك لم يظن بهم الأباطيل والكذب. ولقد اعتنقتهم الدنيا فهربوا منها، وأقبلت عليهم بمحاسن وجهها فأدبروا عنها، وألقت إليهم أفلاذ كبدها ودفائن كنوزها ونصبت لهم غرائب فخاخها وبدائع خدعها وفتنها فما دانوا منها، وقنعوا بالأطمار

والأسمال وبالمطعم الجشب العلث، وقد كانوا قبل الإسلام أصحاب عزٍّ ونخوة وسعة وماشية ونعم وأرباح وتجارات.

أقولُ ذلك بالحق الذي لا أحبُّ شيئًا إلا فيه، ولا أنصر قولاً إلا له، ولا أؤمل فوزًا إلا به. فإن كان من صبر هذا الصبر وغلب الدنيا هذه الغلبة يظن به الكذب والمخرقة فلم يسلم من هذه الظنة والتهمة غيره.

لأن تلامذة موسى والمسيح، عليهما السلام، وإن كانوا أبرارًا أطهارًا، فإن الحقّ لا يُستحي منه ويستحقُّ تقديمه، ومتى أتهم أمثال من سمّينا فبالحريّ أن نتهم من لم يبلغ درجة زهدهم ولا أبتلي بمثل محنتهم وخلاصهم، لأنه إن كان من ترك مصيدة أو فارق مصلحة أو خرج عن مهنته أو مزرعته من حواريّ موسى والمسيح عليهما السلام يجب قبول قوله وتصديق خبره، فبالحريّ أن يصدّق من ملك الخلافة بأسرها، فكانت أدق في عينه من تفلة في نهر، بل بعرة في بحر.

فإن قال قائل: إنما أصحابكم صبروا على ما ذكرت طلبًا للعزِّ عارضناهم بمثله وقلنا: فكذلك يظن بأصحابكم، إنهم لما انتقلوا من حال السوقة والقلة إلى أن أطاعهم المطيعون، وتبرّك بهم المتبركون، واجتمع إليهم أهل الأموال والأقدار، ونفذت أوامرهم في الأهل والمال، تاقت أنفسهم إلى الرياسة فصبروا في حسنها على الجفاء والخشونة.

فقد بلغكم ما فعل شمعون الصفا برجل باع ضيعته وأتاه بثمنها متقربًا إليه به فكان جزاؤه عنده أن غضب عليه وسأل الله أن يميته وأهله من ساعته، لأنه البائس فلم يكن أتاه بالثمن كله بل ذخر لنفسه وأهله بعضه. فإن الحرص مما لا يظن بحواريي المسيح، فكذلك ظنوا بحواريي محمد عليه السلام.

فإن قالوا: إن أصحابكم هؤلاء وإن كانوا خيارًا في أنفسهم أبرارًا، فإنه لما كانت شهادتهم لابن عمهم وفي استمالة الناس إلى دينهم شككنا فيهم، قلنا: وكذلك أصحابكم أيضًا، فما شهد لموسى وعيسى إلا بنو أعمامهم.

فإن قالوا: وما حاجتنا إلى شهادات أممنا لنا مع إيمان صاحبكم بأنبيائنا؟

قلنا: فما تقولون فيمن قِبل قولهم قبل ظهور النبي صلّى الله عليه وسلّم، أهو مصيب أم مخطئ؟ رشيد أو غوي؟ على أن بين نعت المسيح الذي يؤمن به أهل الإسلام وبين مسيحكم بونًا بعيدًا جدًا.

فإن النصارى يقولون إنه قديمٌ، وهو عندنا حديث، ويذكرون أنه خالق وهو عندنا مخلوق، وأنه قُتل وهو عندنا حيٌّ؛ فهذه نعوت متضادة وغير متشابهة.

وأيضًا فإن الواجب لله على الناس كافة طلب الحق واتباعه في كلِّ دهرٍ، والواجب للناس على الله جل ذكره تأييد الحق وإظهاره وقطع حجج الشاكين فيه.

ولسنا نشك في أن كثيرًا من الأمم المحيطين بأرض مصر والشامات قد كان يبلغهم خبر موسى عليه السلام وسائر الأنبياء، وتتوق أنفسهم إليه وإلى أخبار المسيح، قبل ظهور محمد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم جميعًا، ويسألون عنه من طرأ عليهم، فهل كان يجب عليهم قبول ما يبلغهم عنهما والتصديق به أو لا؟

فإن لم توجبوا قبوله كفرتم بكل نبيّ، وإن أوجبتم ذلك قلنا ولِم وجب؟

فإنما كان الذين يخبرون بذلك ويشهدون به يهودًا ونصارى، ومن قبِل قول أمثالهم واغترّ به فهو مخالفٌ للحقِّ في قولكم، راكنٌ إلى الأباطيل والزُّور،

لأنه صدق فيهما قول أمتهما وبني عمهما الذين لم توجد عندهم آية ولا دلالة؛ فإن كان قبول ذلك واجبًا على تلك الأمم قبل أن يشهد لهم به محمد النبي صلّى الله عليه وسلّم فقبول خبر أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم أيضًا واجبٌ لا سيّما وقد شهدت الأنبياء له، ووصفوا مخرجه وزمانه، وذكروا من تصحيح ذلك ما ليس لأحد أن يدعيه سوى المسلمين، لأنه إذ ادعت اليهود تلك النبوات التي أنا ذاكرها، مكابرة وجهلاً، فما عسى يقول النصارى وهم يشهدون بأن الله قطع دابر اليهود، ومحا دينهم عن جريد الأرض، وأخبر أنه غير موجب لهم نعمة، ولا مُقيل لهم عثرة، ولا قابلٌ منهم صرفًا ولا عدلاً إلا بالرّجوع عنها ومفارقة أسبابها.

الباب التاسع:
في أنه لو لم يظهر النبي صلّى الله عليه وسلّم لبطلت نبوات الأنبياء[196]

في أنه لو لم يظهر النبي صلّى الله عليه وسلّم لبطلت نبوات الأنبياء في إسماعيل عليه السلام وفي النبي عليه السلام خاتم الأنبياء بالضرورة، لأن الله عز وجل لا يخلف وعده، ولا يكذب خبره، ولا يخيب راجيه. ولقد كان بشّر إبراهيم عليه السلام، وهاجر رحمة الله عليهما، ببشارات بينات ساراتٍ، لم نرها تمّت وظهرت إلا بظهور النبي صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد بُشِّرت هاجرُ من ذلك بما لم نر امرأة من نساء الماضين بُشِّرت بأكثر منه بعد مريم الطاهرة والبتول أم المسيح عليه السلام؛ على أن مريم عليها السلام بُشِّرت بالمسيح مرة واحدة، وبُشِّرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبُشِّر أبوه عليه السلام مرارًا.

ثم ذكر الله عز وجلّ هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء مرارًا، وأنا موضح ذلك في أبوابه إن شاء الله.

196: إذا كان من عيوب التصانيف في البشارات بالنبيّ محمد في الكتاب المقدّس انعدام ملاحقة النصوص التوراتية والإنجيلية في الترجمات الأساسية (آرامية - سريانية - عبرانية - إغريقية وغيرها)؛ فإنّ عليّ الطبري لم يقع في هذا بصورة كاملة، وقام بملاحقة النصوص المستشهد به في ترجمات عدّة، بل ربما كان عماده على النسخ غير العربية للعهدين، خاصة العهد الجديد، فهناك أكثر من إشارة إلى اعتماده نسخة سريانية؛ سيظهر ذلك في النقول المقتبسة فيما يلي.

فأمّا ما أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام في إسماعيل وحده، فهو قوله على لسان موسى عليه السلام في السفر الأول من التوراة في الفصل العاشر منه، أن الله قال لإبراهيم عليه السلام: (قد أجبت دعاءك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته وعظمته جدًا جدًا وسيلد ابنًا عظيمًا وأجعله لأمة عظيمة)، فهذا في ترجمة مارقس الترجمان.

فأمّا في التوراة التي فسرها الإثنان وسبعون حبرًا من أحبار اليهود، فإنه يقول: (إنه سيلد اثنتى عشرة أمة من الأمم)، فليس يكون من المواعيد والبشارات في أحد أكثر من قول الله عز وجل: (إني قد باركت فيه وكثرته وعظمته جدًا جدًا)[197] .

وأقل من هذا عن الله عز وجل كبيرٌ وأصغره جليلٌ، لأن القدر الذي يراه الله كبيرًا عظيمًا جدًا جدًا، فلا قدر أعظم منه، فهذا تبكيت وتكذيب لذلك الجلف الجافي الذي وقع في إسماعيل وعابه بقول الله فيه أنه يكون (عير الناس)، وأنا مفسر ذلك في هذا الباب توبيخًا لذلك المائق المشعوف.

قد كان موسى عليه السلام تنبأ بمثل هذه النبوة في السفر الأول والفصل التاسع وقال: أنه لما هربت هاجر من سارة تراءى لها ملك الله وقال: يا هاجر أمة سارة، من أين أقبلت وأن تريدين؟ قالت هاجر مجيبة له: أهرب من سيدتي سارة. قال لها ملك الرب: ارجعي إلى سيدتك واخضعي لها فإني

197: يرد النص الموازي لنصّ الطبري في ترجمة عام1811م على النحو التالي: وقد سمعت قولك في إسماعيل وها أنا مبارك فيه وأثمره وأكثره جدًّا جدًّا ويولد اثنى عشر شريفًا وأجعل منه أمة عظيمةً. وفي ترجمة 1831م: وعلى إسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكثره جدًّا فسيلد اثنى عشر رئيسًا وأجعله لشعب كبير. وفي الترجمة الحالية: فقد سمعت فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا اثنى عشر رئيسًا يلد وأجعله أمة كبيرة.

سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه إسماعيل، لأن الله قد سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون عير الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه، ويكون مسكنه على تخوم جميع اخوته»[198].

فهذه بشارة ثانية شافه بها الملك هاجر عليها السلام عن الله عز وجل مشافهة، وأخبر أن الله جاعل يد ابنها العليا وأيدي جميع الناس عنده السفلى، ولم نر ذلك في نبوة موسى عليه السلام تمت وظهرت إلا بعد ظهور محمد صلّى الله عليه وسلّم.

وقال موسى في السفر الأول والفصل الثالث عشر: إن الله قال لإبراهيم عليه السلام: «إني جاعل ابن أمتك أيضًا لأمة عظيمة لأنه من زرعك»[199]. فهذه بشارة ثالثة في إسماعيل عليه السلام.

وقال موسى بعقب هذا القول: إنه لما أصبح إبراهيم أخرج هاجر وولده عن منزله طلبًا لمسرة سارة، وانتهى إلى ما أمره الله به فيها، وأنه دفع إليها زادًا ومزادًا، وحمل الصبي على كتفها ووجهها لطيتها، فشخصت هاجر وضلت في البرية التي يقال لها بئر سبع ونفد ماؤها فوضعت الصبي تحت الشيح وانتبذت بقدر مرمى حجر لئلا ترى موت ابنها، وإنها لكذلك باكية حزينة وسمع الله صوت الصبي ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال: ما بالك يا هاجر ؟ ليفرح روعك، فقد سمع الله صوت الصبي، قومي احمليه وتمسكي به فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وإن الله فتح عينيها فإذا هي ببئر ماء ودببت

198: قارن سفر التكوين 16/ 10-12.

199: قارن سفر التكوين 13/21.

فملأت المزأرة وسقت الصبي منه، وكان الله معها ومع الصبي حتى تربى، وكان مسكنه في برية فاران، وأقبل على الرّمْي يتعلمه[200].

فهذا من نبوة موسى النبي عليه السلام في إسماعيل وفي أمه هاجر، شبيه بقول جبريل الملك لمريم البتول: "إن ربنا معك يا أيتها المباركة في النساء"[201]، ففتن النصارى بذلك وقالوا: إن الله كان حالاً فيها[202] بقول جبريل لها: إن ربنا معك، وقال موسى النبي عليه السلام في هاجر مثل ذلك، وهو أن الله كان معها ومع الصبي حتى تربى.

فهذه أربع بشارات خالصة في إسماعيل عليه السلام، نزل اثْنتان منها على إبراهيم واثْنتان على هاجر، فليوجدنا ذلك الغمر الغافل بشارات من الله تعالى تتابعت في مولود على والديه منذ كانت الدنيا بأكثر وأشهر وأصح من هذه.

فأمَّا ما بشّر الله به إبراهيم في جميع ذريته وولده، فإنه أيضًا بشارتان، إحداهما: قول الله عزّ وجلّ لإبراهيم حين قرب ابنه للذبيحة: (من أجل أنك فعلت هذا الفعل ولم تشفق على ولدك وفردك، فها أنا أقسم بنفسي لأباركن عليك، ولأكثرن ذريتك، ولأجعلنهم في عدد نجوم السماء ورمل سواحل

200: قارن سفر التكوين 14/21 -21.

201: لوقا 28/1.

202: اعتبر القس إبراهيم سعيد أن سلام الملاك على مريم متضمن لثلاث هِبَات -1 نعمة «أيتها المنعم عليها» -2شركة مجيدة: «الرب معك» فأدخلتها هذه الكلمة في المعية الملكية -3 بركة: «مباركة أنت في النساء» [إبراهيم سعيد، شرح بشارة لوقا، ص 36 ط 1 النيل المسيحية، مصر 1929م.] في حين يصرح الأب أوغسطين دوبره لاتور حين تناوله لنفس النص أن مريم « ستكون موضوع هذا التظليل لها، أي حضور الله فوقها، ومعناه سمو رب المجد، وحضوره في داخلها « [خلاصة اللاهوت المريمي ص 52 ط 3 دار المشرق بيروت 1990].

البحار، ويرث ولدك بلدان أعدائهم ويتبرك بهم جميع أمم الأرض)[203].

وتقول التوراة أيضًا إن إبراهيم قال: (ها أنا ميت وما لي ولدٌ ولا عقب، ويرثني عبدي وتلادُ بيتي). فقال له الرب: (كلا لن يرثك هذا بل يرثك ابنك الذي يخرج من صلبك فاخرج وانظر إلى نجوم السماء، فإن كنت محصيًا لها فإنك لها فإنك ستحصي ولدك أيضًا)[204].

فتلك البشارات الأربع المتقدمات خالصة لإسماعيل وحده، ويشارك إسماعيل إسحاق وغيره من إخوته في هاتين، فتلك ست نبوات وبشارات قاهرات فيهم.

ويزعم ذلك الجلف الجرمقاني الخبيث الغبي[205] أن إسماعيل غير معدود في ولد إبراهيم عليه السلام، وإنما تمت هذه الكلمات وظهرت بظهور النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأما قبل ذلك فقد علمت النصارى واليهود كافة أنه لم يزل بنو إبراهيم المعرفون به المنسوبون إليه في طائفة من طوائف الدنيا، فريق منهم بمصر خول للفراعنة والقبط ممتهنون مقهورون، وفريق في ناحية البوادي وأرض الحجاز بالجفاء والحروب.

ثم انتقل من كان منهم بمصر إلى الشام، يغاديهم ويراوحهم فيها من

203: تكوين 22/16-18.

204: تكوين 15 / 2-5.

205: يظهر في خلافة المعتصم شخص يُسمى: «يحيى الجرمقاني» أي الآرامي أو السرياني؛ لكن للأسف ليس بوسعنا أن نعرف الدور الذي قام به في الخلافة، غير أنه كان كاتبًا، كما ينفرد الطبري -بحسب ما وصلت إليه يد المحقق- بذكر ذلك عنه، حيث قال: «ذُكر أن الفضل بن مروان، وهو رجل من أهل= البردان كان متصلا برجل من العمال يكتب له، وكان حسن الخط، ثم صار مع كاتب كان للمعتصم، يقال له: يحيى الجرمقاني، وكان الفضل بن مروان يخطّ بين يديه، فلما مات الجرمقانى صار الفضل في موضعه». [تاريخ الطبري 18/9 ط 2 دار المعارف] فربما كان هذا الشخص هو المُشار إليه من قِبل علي بن ربّن الطبري، خاصة وأنه لا يظهر غيره في هذه الحقبة.

حولهم بالحرب، ثم لم يلبثوا أن صاروا مشردين مطرودين، مسلوبًا عزهم، زائلاً ملكهم، منتشرًا جمعهم في آفاق الدنيا وأقطارها، قد ضربت فيهم فوائج السودان وأمواج الحمران، حتى إذا ظهر النبي صلّى الله عليه وسلّم، تمت تلك النبوات وظهرت البشارات بعد دهر طويل.

وغلب بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشمًا وذروهم في الهواء ذرًّا، كما قالت الأنبياء عليهم السلام، وطحنوهم طحنًا، وانتشروا في آفاق الدنيا كالدبّا، ومازجوا الأمم كالدماء والأرواح، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشان والسوس الأقصى وبلاد الترك والخزر، وملكوا ما بين الخافقين وحيث يصطك موج البحرين.

وظهر ذكر إبراهيم على أفواه الأمم كلها صباح ومساء، فليس من رجل وامرأة، عبد أو أمة، غني أو فقير، مسرور أو مكروب، في بر أو بحر، إلا وهو يوحّد الله ويكبّر إله إبراهيم ويعوذ به.

فأمَّا اليهودية فإنما كانت ظهرت في طائفة من الناس.

وأمَّا المسيحية فإنها وإن كانت قد ظهرت في أمة كبيرة جليلة، فإنه لم يكن له في بلد إبراهيم وزوجته سارة، ولا في بلاد آبائهما وأجدادهما، ولا في بلد هاجر وآبائها وسلطان ولا عز ظاهر كما جعل الله لهم بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، وسيأتي بشهادات الأنبياء على ما ادعيت.

وأبدأ بالرّد[206] على ذلك الجلف الجرمقاني الذي انتقص إسماعيل وعابه

206: أراد الطبري أن ينزّه إسماعيل (جد النبي صلى الله عليه وسلم) عن هذه الشائنة، فقام بالرد على مثيرها، وهو في رده معتبرٌ صحة اللفظ المطلق على إسماعيل، ولم يُشر ولو مرة في كلامه إلى أن هذا من قبيل تحريف أو تبديل أصاب النص التوراتي، بل قام بتثبيت اللفظ كوصف خاص بإسماعيل، بيد أنه نحا به منحىً تأويليًا يتفق ولغة العرب، ويمكن إبراز ردّه في النقاط التالية:

بما وصفه الله به، فلولا غباوته وسخفه لعلم أن الألفاظ التنزيل وجوهًا وأسرارًا لا يعرفها إلا الراسخون في العلم. فقد قالت التوراة: إن الله صار أسدا وافترس بني إسرائيل، وقيل فيها إن الله نار محرقة، وليس الله بنار ولا سبع ضار وإنما ضرب به مثلا للغضب والاحتدام والمعاقبة والانتقام.

وسمّي المسيح رئيس حواريه الذي استرعاه أمر أمته شمعون الحجر،

* الله عظّم إسماعيل وباركه وجعله أمة عظيمة، ولا يجوز أن يعظّم اللهُ الوضيع، وإذا عظّم شخصًا لا يصح لأحدٍ أن يقوم بتصغيره «وكفى بمن فعل ذلك خزيًا وتوبيخًا».

* لا يعني وصف إسماعيل بالحمار الوحشي التقليل من شأنه، فقد وُصِف الله (يهوه) بـ(الأسد - المفترس - النار المحرقة) وسمّى المسيح أحد حواريه بـ(الحجر) وسمى أمته (نعاجًا) وسُمي المسيح نفسه بـ(حمل الله - خروف الله).

* إطلاقُ لفظ (عير الناس) على إسماعيل هو من قبيل المجاز، وتشبيهه بالعير وجيهٌ؛ إذ العير هو الذي يحفظ القطيع من إغارة الغير عليه، ويقودهم إلى بر النجاة ويعضد الطبري كلامه، مستشهدًا بالثقافات الأخرى قائلًا: «وللعير معنى أيضًا كان يستعمله العجم وسائر الأمم، فإنهم كانوا يسمون من كان فاتكًا نهيكًا نجدًا جؤرٍ، ولذلك سمى بهرام جور والجور هو العير، وبه سمى أهل طبرستان الجورية، ولهذا سمي الرجل الشجاع جور مَزدان أي عير الرجال، كقول العرب للرجل للشجاع: فلان كبش العشيرة وتشبيههم إياه بفحولة الإبل وقرومها وبغير ذلك من الحيوان « .

* في تسمية الله له بهذا الاسم إشارة إلى سكنه الأماكن القفرة التي تخلو من الماء، وتؤثر في بُنيانه فيصبح قويًا، بل تسميته بذلك إشارة إلى حفظه من السبي.

ويظهر لنا من دفاع الطبري مدى تمسّكه بالنصوص المنسوبة إلى التوراة؛ لما تحمله من تباشير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وينافح عنها، مما يجعله يلجأ إلى التأويل المجازي للألفاظ،والذي لا يرضى عنه الموقف الإسلامي العام؛ إذ الرؤية الإسلامية ترفض أن يوصف الله بوصف حيوان أو غيره « ليس كمثله شيء» فلا يصح أن يُشخّص وهو بعيد عن التكييف[قارن موقف الجاحظ من مصطلح ابن الله «المختار في الرد على النصارى» ص100وما بعدها نشرة محمد عبد الله الشرقاوي ط11 دار الصحوة سنة 1984]. كما بدا الحس اللغوي عند الطبري حين مقارنته بين اللفظة في بيئتها العربية، وما يقابلها في موطنه «طبرستان» من اللسان الأعجمي. قارن أحد العلماء المُحدثين من مسلمة أهل الكتاب نفي عن إسماعيل هذا الوصف واعتبره من تحريفات التوراة «عبد الأحد داود» محمد في الكتاب المقدس. ص61 ط. قطر 1985.

وسمى أمته كلها النعاج؛ وسمى المسيح نفسه حمل الله وخروفه، فلو عارض معارض ذلك السفيه المائق بذلك لكان له أن يقول: إن العير أعز وأمنع من الحمل الذي يأكله الذئب ويطمع فيه الكلب والثعلب، فلا شيء في ذوات الأربع أقل وأضعف منه، فإن رجع ذلك الجاهل الأنوك ومن يقول بقوله إلى تأويل هذه الأسماء، رجعنا نحن أيضًا إلى التأويل وقلنا:

إن تأويل العير يشتمل على عدة معان منها: أن الله تبارك وتعالى أشار بهذا الاسم أن إسماعيل عليه السلام يأوى المعاطش والفلوات، ويمنع جانبه، ويكون مغوارًا غيورًا كالعير الذي يأوي البراري ويخصي الذكر من جُحشانه للغيرة ويغير على قطعان غيره من الفحولة، فلا يزال يحارب الفحل ويراكله ويكادمه حتى يغلب على عانته وقطيعه، فإذا حازهُنّ حرسهُنّ وذبّ عنهن وطلب نتاجهن ولم يأكلهن كما تفعل الأسد والذئاب، فإن تلك إنما تطلب الغلبة للأكل والاستراط وتطلب الأعيار الغلبة للنشاط والانبساط.

وسمّاه الله بهذا الاسم أيضًا؛ لئلا يجد الجاحدون سبيلاً إلى إنكار مسكن إسماعيل عليه السلام من البراري، وأن الله صيّره في تلك البراري لمعنى جليل القدر لطيف، وهو أنه جلّ وعزّ أحبّ أن يصون نسبه ويحفظ حريته من أن ينال بمثل ما نيل به غيره من الاسترقاق في الأمم كما سُبي ومزّق غيره.

فليفهم ذلك الخيّاب الخاسر هذه المعاني، ولا يتمرّس بمن أخبر الله تبارك وتعالى أنه قد بارك عليه وعظمه جدًا جدًا، فإن من صغّر من عظّم الله كان كمن عظم من صغره الله، وكفى بمن فعل ذلك خزيًا وتوبيخًا.

وللعير معنى أيضًا كان يستعمله العجم وسائر الأمم، فإنهم كانوا يسمُّون من كان فاتكًا نهيكًا نجدًا (جوْز)؛ ولذلك سمى بهرام (جور) والجور: هو العير، وبه سمّى أهل طبرستان الجورية، ولهذا سمي الرجل الشجاع جور مَرْدان أي عير الرجال، كقول العرب للرجل للشجاع: فلان كبش العشيرة وتشبيههم إياه بفحولة الإبل وقرومها وبغير ذلك من الحيوان.

الباب العاشر:
في نبوات الأنبياء
على النبي صلّى الله عليه وسلّم وعليهم

وقد قدّمتُ ذكر أربع نبوات في إسماعيل عليه السلام، فيها من الشواهد على حقيقة أمةِ النبي صلّى الله عليه وسلّم ما لا يجهله إلا الجاهلُ، ولا يجحدُه إلا الغبيُّ، وبأنه لولم يُبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم لبطلت النبوات واستحالت.

وأنا ذاكرٌ مما بقي من نبوات الأنبياء عليهم السلام عليه ما هو كالمشاهد والعيان، فإن منهم من قد وصف زمانه وبلده ومبعثه وتبعه وأنصاره وصرّح باسمه تصريحًا.

فالنبوةُ الخامسةُ الدّالةُ عليه، المشيرةُ إلى نبوته وحقه، قول موسى عليه السلام في الفصل الحادي عشر من التوراة من السفر الخامس، وهو الأخير لبني إسرائيل: (إن الرب إلهكم يقيم نبيًّا مثلي من بينكم ومن إخوتكم فاسمعوا له).

وقالت التوراة في هذا الفصل بعينه مؤكدًا لهذا القول وموضحًا له، أنه قال الرب لموسى عليه السلام: (إني مقيم لهم نبيًا مثلك من بين إخوتهم، وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها ذلك الرجل باسمي أنا انتقم منه)[207].

207: هما في سفر تثنية الاشتراع (18 / 15، 18، 19)، (33 / 2 – 3).

ولم يقم الله نبيًا من اخوة بني إسرائيل إلا محمدًا عليه السلام. وقوله (من بينهم تأكيد وتحديد أنه من ولد أبيهم لا من ولد عمومته، فأمّا المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام، فإنهم كانوا منهم أنفسهم. ومن ظن بأن الله تعالى لم يميّز بين مَنْ هو مِنَ القوم أنفسهم ومَنْ هو مِنْ إخوتهم فقد ظنّ عجزًا.

فأمّا من ادّعى أن هذه النبوة في المسيح عليه السلام، فقد ظلم لخلتين وتجاهل من وجهين، أحدهما: أن المسيح عليه السلام من ولد داود، وداود منهم أنفسهم، وليس من اخوتهم. والثانية: أن من قال مرة إن المسيح خالق غير مخلوق، ثم زعم أن المسيح مثل موسى، فقد تناقض خبره وتذبذب قوله.

ومن زعم أن هذه النبوة في يشوع بن نون فقد أخطأ، لأن يشوع ليس يُعدُّ في الأنبياء، ولم يؤد عن الله تعالى إلى بني إسرائيل شيئًا سوى ما أدّاه موسى عليه السلام، ولأنه من القوم أنفسهم وليس من إخوتهم، والنبي الذي أقامه الله تعالى من بين إخوتهم هو محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي من خالفه انتقم الله منه، فقد ترون آثار النقمة بيّنةً على من خالفه، ودلائل النعمة ظاهرةً على من قبله[208].

وقال موسى في هذا السفر في الفصل العشرين: (إن الرب جاء من طور سينين، وطلع علينا من ساعير وظهر من جبل فاران، وعن يمينه ربوات

208: تجدر الإشارة إلى أن ابن كمّونة [سعد بن منصور بن كمّونة، عاش في بغداد بين العام 1215-1285 ميلادية] يرى أن:»النبي الذي يقيمه الله من إخوة بني إسرائيل، المراد به أنه يكون (منهم) لأنه أكثر ما وردت لفظة إخوتكم في مخاطبة بني إسرائيل أريد بها من هو منهم إلا في النادر مثل قوله (إخوتكم بني عسو) وقوله: (لا يقيم نبي من بني إسرائيل كموسى) أُريد به في كونه خوطب شفاهًا من غير واسطة، في كل شيء». انظر: « تنقيح الأبحاث للملل الثلاث» ص 96 ط كاليفورنيا سنة 1967 م [عن مصورة دار الأنصار بالقاهرة].

القديسين فمنحهم العزّ وحببهم إلى الشعوب ودعا بجميع قديسيه بالبركة[209].

ففاران هي البلدة التي سكنها إسماعيل عليه السلام، ولذلك قدّم الله ذكرها في التوراة في قوله: فكان يتعلم الرمي في برية فاران. وقد علم الناس كلهم أن إسماعيل سكن مكة، فولده وأعقابه فيها وفيما حولها يعرفون مأوى جدهم ولا يجهلون بلدة موطنه، وقد طلع الرب من فاران، فإن لم يكن كما ذكرنا فليوجدونا ربًّا ظهر من جبل فاران، ولن يفعلوا. فأمَّا اسم الرب هاهنا فإنه يقع على النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهي كلمة مستعمله من العرب والعجم في الله عز وجل، وفي عباده لقولك: رب البيت، وقول السريانيين لمن أرادوا تفخيمه مار أي يا ربي ويا سيدي، ومار بالسريانية هو الرب[210].

209: سفر التثنية 33/2-3.

210: مار كلمة سريانية، معناها السيد ووليّ الأمر، تطلق خاصة على القدّيسين،وعلى البطاركة والأساقفة؛ وقد عمّ استعمال هذا اللفظ السرياني المسيحيين قاطبة، فيُقال مار بطرس ومار افرام، والبطريرك مار اغناطيوس،و يقال للمرأة: مرت: ومارت مُعرّب، ومعناها:سيدتى.وتعني أيضا قدّيسة، ومنها مارت مريم. راجع: مار أغناطيوس افرام (الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الخامس والعشرين، ربيع الأول 1369 - العدد 1 ص 11.

نبوات داود
على النبي صلى الله عليهما وسلم كثيرًا

وقال داود النبي عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين:»من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد، فتقلّد السّيف أيها الجبّار، لأن بهاءك وحمدك البهاء والحمد الغالب، اركب كلمة الحق وسمت التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مستونة والأمم يخرون تحتك»(211).

ولا نعرف أحدًا يجب له هذه المعاني، من تقليد السيف، وسحذ النصول، وهيبة اليمين، ووقوع الأمم تحته، إلا النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد ركب كلمة الحق، وتواضع لله بالديانة، وجاهد المشركين حتى ظهر الدين.

- وقال داود عليه السلام في المزمور الثمانية والأربعين: «إن ربنا عظيم محمود جدًا، وفي قرية إلهنا وفي جبله قدوس ومحمد، وعمّت الأرض كلها فرحًا»(212).

211: بالمقارنة بين ترجمة الطبري وترجمات العهد العتيق للمزامير، لا نعثر على اختلافات جوهرية تمس صلب النص باستثناء ذكر الطبري لمفردات مثل(حمدك، الحمد الغالب)، وهو ما سيتردد بصيغ مختلفة فيما يقتبسه من نصوص لاحقة قارن: مزمور 44، ط سنة 1811م، وقارن أيضًا: مزمور 44 في طبعة رجارد واطس في لندن سنة 1831 م عن النسخة المطبوعة في رومية 1671 م.

212: قارن مزمور 48 /1،2 في الترجمات المتاحة لدينا، نجد النص عند «عليّ بن يافث» [1810-1896م] يرد على هذه الصورة: «عظيمٌ الله وممدوحٌ جدًّا في مدينة إلهنا التي هي جبل قدسه، حسن الارتفاع، سرور كل الأرض جبل صهيون صدر الشمال مدينة الملك الجليل». وفي ترجمة رجارد واطس، يرد النص كالتالي: «عظيم هو الرب، ومُسبحٌ جدًّا، في مدينة إلهنا في جبل قدسه، يتأسس الفرح في كل الأرض جبل صهيون». وفي ترجمة عام 1811 م، يرد النص على النحو التالي: «عظيمٌ هو الربّ، ومبارك جدًّا في مدينة إلهنا على جبله المقدس، يكون الفرح في الأرض كلها».وفي ترجمة الكاثوليك الحالية: «الرب عظيم وجدير بالتسبيح الكثير، في مدينة إلهنا، جبل قدسه البهي الطلعة، بهجة الأرض كلها». وفي ترجمة فانديك: «عظيم هو الرب وحميد جدًّا في مدينة إلهنا جبل قدسه، جميل الارتفاع، فرح كل الأرض جبل صهيون» .وقارن: مزمور 48 / 1،2 ص 94، 95، كتاب الزبور، ترجمة علي بن يافث، د.ت .ومزمور 47 / 1، 2 طبعة لندن 1831 م. ومزمور 48 (47) / -1 3 ط 6 دار المشرق بيروت 1998 م.

فهذا من نبوة داود عليه السلام، هو الإبانةُ والتّصريح الذي لا تلابسه شكوك فقد سمي النبي تسميةً؛ لكنه لم يصرّح بلفظ محمود.

- وقال داود عليه السلام في المزمور الخمسين: «إنّ الله أظهر من صهيون إكليلاً محمودًا، فالله يأتي ولا يهمل، وتحرق النيران بين يديه وتضطرم حواليه اضطرامًا»[213].

أفما ترون أن لا يخلي داود عليه النبي عليه السلام شيئًا من نبواته من ذكر محمد أو محمود كما تقرأون.

ومعنى قوله: إكليلاً محمودًا؛ أي: أنه رأس وإمام ممجد محمود، ومعنى محمد ومحمود وحميد شيءٌ واحد في اللغة، وإنما ضرب الإكليل مثلاً للربّانية والإمامة.

-وقال أيضًا في المزمور الثاني والسبعين ما أكّد به وشدّد النبوات المتقدمة: إنه يجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم وتلحس أعداؤه التراب،تأتيه ملوك تارسيس والجزائر بالقرابين، وتقرّب إليه ملوك سبأ وملوك سابا القرابين، وتسجد له الملوك كلهم، وتدين له الأمم كلها بالطاعة والانقياد، لأنه يخلّص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه، ويتفقد الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالضعفاء والمساكين، وينجي أنفسهم من الضُّر والضّيم، وتعزُّ عليه دماؤهم، وأنه يبقى ويعطي من ذهب بلاد سبأ ويصلّى عليه في كل وقت، ويبارك عليه كل يوم مثل الزروع الكثيرة على وجه الأرض وتطلع ثماره على رؤوس الجبال، كالذي يطلع من لبنان وينبت في مدينته مثل عشب الأرض

213: قارن مزمور 50 /2،3 على أن النصّ يرد في الترجمات التي أشرت إليها سابقًا خاليًا من ذكر «إكليلاً محمودًا».

ويدوم ذكره إلى الأبد، وأن اسمه لموجود قبل الشمس فالأمم كلهم يتبركون به وكلهم يحمدونه»[214].

فهذه نبوة شافية كافية ما فيها لبس ولا إظلام. فما نعلم أحدًا ملك ما بين البحر والبحر، وبين الأنهار التي ذكرها الله في التوراة، وهي دجلة والفرات

214: لم يكن تركيز الطبري على هذا المزمور عفويًا، بل كان على وعي تام بما يشير إليه من مفاهيم مسيانية تبشّر بمخلصٍ آتٍ، يملك ما بين البحر والبحر وبين الأنهار، وتخرّ الملوك بين يديه سجدًا، ويأتونه بالقرابين، ويُصلي ويبارك عليه؛ وإن اسمه لموجود قبل الشمس.

لم يزد الطبري شيئًا للنص – يمكن أن يتّهم من أجله بالتعسف - من خلال ترجمته، بل يمكننا أن نعثر في ترجمة لاحقة على مفردات قد تدعم الطبري في استنتاجاته السابقة، إذ يرد النص في ترجمة سنة 1811 م، كالتالي: «ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي المسكونة [....] وجميع أعدائه يلحسون التراب، وتقبل إليه ملوك ترسيس والجزائر بالهدايا، وملوك العرب «أرابيا» وسابا يقدمون إليه القرابين، وتسجد له جميع ملوك الأرض، وجميع الأمم تعبد له، لأنه خلّص المساكين من يدي القوي والضعيف الذي لا مُعين له، يشفق على المسكين والضعيف ويخلص المساكين، ومن الربا والظلم ينقذ نفوسهم، اسمه كريم لديهم، يحيا ويعطي من ذهب أرابيا، ويصلون من أجله في كل حين النهار، جميعه يباركونه [....] فليكن اسمه مباركًا إلى الأبد، وقبل الشمس دايمًا اسمه وتتبارك به جميع قبائل الأرض وكل الأمم تمجده». ولا تختلف ترجمة سنة 1831 م عن الترجمة السابقة في شيء، لكن الترجمة الكاثوليكية تستبدل لفظة (الهدايا) بـ (الجزية)، ولا تذكر اللفظة إلا في هذه الترجمة. ويلفت الانتباه أن أغلب الترجمات الحديثة تستبعد ذكر (العرب، أرابيا، إنقاذ المخلص الفقراء من الربا). ألا يشير ذلك إلى تردد المترجم العربي في تثبيت كلمات بعينها، فربما يستغلها مجادله المسلم وتكون في صالحه حين تأويله لنص رمزي كهذا النص ؟ إن موقفنا من نص كهذا هو التوقف إزاءه، فلا نقطع بتنزيل الصفات الواردة فيه على شخص النبي الأكرم، ولا نبالغ في تأييد رؤية الطبري التفسيرية للنص..

كما تجدر الإشارة إلى أن هذا النص المزموري لدى بعض الشيعة يُعدّ بشارة حول مهدي آخر الزمان عليه السلام، حريًا مع تأويلهم النص الآية الكريمة « ولقد كتبنا في الزبور من بعض الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون « {سورة الأنبياء: 150}. وبعيدًا عن الموقف المُغالي في تأويله للنص، يبقى أن تأويل الطبري يحمل وجاهة كبيرة، إذ إن في رمزية النص وعباراته الوصفية الصريحة ما يمكّنه دون ليّ أو تدَخل في صياغته من صرفه إلى النبي، وحتى على مستوى عبارات، مثل: «إن اسمه لموجود قبل الشمس» حسب ترجمة الطبري « اسمه للأبد يكون وتحت الشمس يدوم»، حسب الكاثوليكية « اسمه مباركًا إلى الأبد وقبل الشمس دائمًا اسمه» حسب ترجمة سنة (1811 م) يمكننا قراءتها من خلال تمثلنا بما يرويه الطبري نفسه من أحاديث تتحدث عن نور النبي.

وبيشون وجيحون وخرت الملوك بين يديه سجّدًا على الركب، ولحست أعداؤه التراب، وأتته ملوك اليمن بالقرابين، إلا النبي صلّى الله عليه وسلّم وأمته، وإلا مكة وما فيها من أثر قدم إبراهيم، ولا نعلم أحدًا يُصلّى ويبارك عليه في كل وقت غير محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهو قول الأمم: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمدٍ وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد.

فأية دلالة أشهر، ونبوة ظهر وأنور من هذه. ولقد ختم داود النبي عليه السلام نبوته هذه بأن قال: فالأمم كلهم يتبرّكون به ويحمدونه ويسمّونه محمّدًا، ومعنى محمد ومحمود واحد.

-وقال داود عليه السلام في المزمور المائة والعشرة: إن الرب عن يمينك، وهو يكسر في يوم زجره الملوك،ويضعف ركن الملك، ويحكم بينهم بالحق، ويكثر القتلى والجيف، ويقطع رؤوس بشرٍ كثير في الأرض، ويشرب في سفره من ماء الأودية، ومن أجل هذا يسمو للمعالي رأسه[215].

فهذه أيضًا صفة كالعيان، فمن ذا الذي كان الرب عن يمينه والذي حكم بالحق وضرب الرقاب وأكثر القتلى والجيف غيره وغير أمته صلّى الله عليه وسلّم؟

-وقال في المزمور المائة والتاسع والأربعين: «من أجل أن الرب ارتاح بشعبه، وتطوّل على المساكين بالخلاص، فليتعزز الأبرار بالكرامة، ويسبّحونه على مضاجعهم، ويكبِّروا الله بحناجرهم، لأن في أيديهم السيف ذا الشفرتين للانتقام من الشعوب، وتوبيخ الأمم وإثقال ملوكهم بالقيود وعِليتهم ومُكرميهم

215: يرد النص في ترجمة سنة 1811م المزمور(109) كالتالي:»الرب عن يمينك حطّم ملوكًا في يوم غضبه، يحكم في الأمم ويملؤهم جثثًا، ويرضّ رأس كثيرين على الأرض، يشرب الماء في الطريق من الوادي لأجل هذا يرفع رأسًا». ولا تختلف الترجمة كثيرًا في النسخ الحالية مزمور(110)،باستثناء استبدال كلمة (يحكم) بـ(يدين) في قوله:»يحكم في الأمم».

بالسلاسل ليحملهم على القدر المكتوب المبرم فالحمد لجميع أبراره».

أما ترون يهديكم الله هذه الصفات خالصة للنبي صلّى الله عليه وسلّم ولأمته[216]؟ فهو الذي معه السيف ذو الشفرتين، وهو المنتقم بأمته من جبابرة فارس وطغاة الروم وغيرهم، وهو الذي قيدت أمته الملوك وساقت جلتهم وأولادهم في السلاسل والأغلال، وهم الذين يسبحون الله على مضاجعهم ويكبرونه صباح مساء تكبيرًا وفي كل وقت، وذلك بقولهم: الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا.

-وقال عليه السلام في المزمور المائة والثاني والخمسين، فسمّى البلد والأهل فلم يدع موضع مقال ولا اعتلال، وهو مزمور يُنسب إلى أشعيا النبي عليه السلام[217]: لترتاح البوادي وقراها ولتصِر أرض قيذار مُروجًا وليسبّح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الربّ ويذيعوا تسابيحه في الجزائر، لأن الرب يجيء كالجبّار وكالرجل المجرب المتلظي للتكبر فهو يزجر ويتجبر ويقتل أعداءه.

فلمن البوادي يا بني عمي يهديكم الله إلا لهذه الأمة، أو من قيذار إلا ولد إسماعيل عليه السلام، وهم سكّان الكهوف الذين يحمدون الربّ ويذيعون تسابيحه في الهواجر والأسحار؟ ومن ذا الذي زجر وتجبّر وقتل أعداءه غير محمد صلّى الله عليه وسلّم وأمته؟

فأمّا معنى قوله أن الرب يجيء، فقد بينا أنه اسم واقعٌ على السّادات والعظماء.

216: في حين يكتفي الطبري بالعبارة المختصرة في تحليله للنصّ المزموري، تكفّل البعض من بعده بمزيد من الشرح ودعم الرؤية الإسلامية للنص، بما يعضدها من آي القرآن وأحاديث الرسول، راجع: القرافي «الأجوبة الفاخرة» ص 170، والقرطبي «الإعلام» ص 266، و»مقامع» الخزرجي ص 218.

217: ورد النّصّ في سفر أشعيا 11/42، 12.

نبوات أشعيا
عن النبي صلّى الله عليه وسلّم

قال في الفصل الثاني من كتابه: إن الربّ يتعزّز ويتعالى يومئذ وحده على جميع صنوبر لبنان المستطيلة الشامخة وعلى جميع شجر البلوط التي بأرض بيسان وعلى جميع الجبال الرواسي وعلى كل قلة منيفة، وعلى كل قصر رفيع، وعلى كل جبل منيع، وعلى جميع سفن تراسيس، وعلى كل منظرة رائعة بهيئة، ويبيد الأوثان بيدودة ظاهرة، ويُغيّبُ في صدوع الصخور وأنفاق التراب من قُدّام خشية الله تعالى ومن بهاء حمده[218].

فوافق أشعيا داود النبي عليهما السلام في قوله: إن بهاءك وحمدك هو

218: قارن أشعيا (2/11-21)، وربما كان صواب كلمة (المستطيلة) (المستعلية) وقد حُرّفت من الناسخ.يكتفي الطبري بذكر النص السابق؛ مشيرًا إلى التوافق الحرفي بين جملة: «ومن بهاء حمده» عند أشعيا، وقول النبي داود: «إن بهاءك وحمدك هو الحمد الغائب». معتبرًا أنهما جميعًا «خرجا من مشكاة واحدة»، فكما أشار الأول نص داود إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإن نص أشعيا يؤول على صورته، وإن لم يذكر ذلك صراحة، كما قدم الطبري تفسيرًا لكلمتي: (الجبال، والشجر)، الواردتين في النص السابق، إذ اعتبرهما رامزتين إلى الجبال والشجر. وفي معرض حديث رد أبي حاتم الرازي الإسماعيلي على أبي بكر الرازي الطبيب، ذكر أن الأنبياء يضربون الأمثال التي تختلف ألفاظها، وتتفق معانيها «وعلينا نحن» البحث عن معاني كلامهم المرموز؛ ليتضح عدلهم، ويظهر صدقهم، فيزول ما يدعيه الملحدون عليهم من اختلافهم وتناقض كلامهم، ثم ذكر في جملة الأمثلة نص أشعيا، مقتبسا عن الطبري النصّ وتفسيره؛ لكنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى كونه حاملًا لبشارة بالنبي العربي، انظر:أعلام النبوة، للرازي ص86 ط دار الساقي، وقارن ص 1.1 من الكتاب نفسه ط إيران، وقد آثرت الرجوع إليها لضبط أكثر للنص.

الحمد الغالب، فلكأنهما خرجا من مشكاة واحدة، فأمَّا تأويل الجبال والشجر فإنهم الأكابر والأصاغر والملوك، ومثل ذلك كثير في كتبهم.

وقال في الفصل الثالث عن الله تعالى: "إني رافع آية للأمم من بلد بعيد، وأصفر لهم من أقاصي الأرض صفيرًا فيأتوني سراعًا عجالاً، لا يملون ولا يعثرون ولا ينعسون ولا ينامون ولا يحلون مناطقهم ولا ينقطع معقد خفافهم، سهامهم مسنونة، وقسيُّهم موترة، وحوافر خيلهم كالجلاميد صلابةً، وعجلُهم مُسرعة مثل الزوابع، وزئيرهم كنهيم الليوث وكشبل الأسد الذي يزأر وينهم للفريسة، فلا ينجو منه ناجٍ، ويرهقهم يومئذ مثل دويّ البحر واصطكاكه، ويرمون بأبصارهم إلى الأرض، فلا يرون إلا النكبات والظلمات، وينكسف النور عن عجاج جموعهم»[219].

فهذا قول الله عز وجلّ، وهؤلاء بنو إسماعيل عليه السلام أمة النبي صلّى الله عليه وسلّم، الذين صفّر الله لهم صفيرًا فجاءوا من بلدانهم سِراعًا لا يملّون ولا يسأمون، وكانت سهامهم مسنونة وقسيهم موترة وحوافر خيُولُهم كالصّفا والجلمود، وزئيرهم كزئير الليوث، وهم الذين افترسوا الفرائس شرقًا وغربًا فما نجا من أيديهم ناجٍ، وصارت الجبابرة عندهم كالنعاج، وثار من زحوفهم العجاج، وضاقت بهم المناهج والفجاج.

-وقال في الفصل الخامس مُفسِّرًا لما تقدّم من نبواته عليه السلام: «إنّ الأمة التي كانت في الظلمات رأت نورًا باهرًا، والذين كانوا في الدجى وتحت ظلال الموت سطع عليهم الضوء، فلقد أكثرت من التبع والأحزاب ولم تستكثر الاغتباط بهم.فأمَّا هم فإنهم فرحوا بين يديك كمن يفرح يوم الحصاد، وكالذين

219: قارن سفر أشعيا (5/ -26 3).

يفرحون عند اقتسام الغنائم لأنك فككت النير الذي كان أذلهم والعصا التي كانت على أكتافهم وكسرت القضيب الذي كان يستعبدهم مثل كسرك من كسرت في يوم مدين[220].

وذلك شبيهٌ بما وصف الله تعالى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في القرآن، وقال إنه يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

فانظروا يهديكم الله وتبيّنوا من ذا الذي فك النير عن ولد إبراهيم، وأبطل سلطان الأعداء، وبتر قضيب الأعزة؟ وهل أشرق ذلك الضوء إلا على أهل تلك البادية الظلماء من عبّاد الأوثان من ولد إسماعيل ؟

-وقال في هذا الفصل: "إنه ولد لنا مولود ووهب لنا ابن سلطانه على كتفه"[221].

220: قارن أشعيا 9/2-4.

221: راجع أشعيا 9 / 5، وقارن إيراد أبي حاتم الرازي لنفس النص السابق متصرفاً في عبارة «سلطانه على كتفه» لتضحى عنده «على كتفيه علامة النبوة» مما يشير إلى قبول تفسير الطبري للنص واعتماد صحته، انظر: «أعلام النبوة» ص 150. كما اهتم أغلب من كتبوا في البشارات بهذا النص، واستفاضت كتب السيرة والدلائل بخبر «خاتم النبوة» وبما يتعلق به، كقصة إسلام سلمان، فنجد الهاروني بعد نقله لنص أشعيا عن ابن ربّن الطبري بتأويله، يعقّب بقوله: «ومن المعلوم المستفيض أن نبينا صلى الله عليه وعلى آله كان على كتفه خاتم النبوة، ولم يُنقل أن ذلك كان لأحد من الأنبياء صلوات الله عليهم سواه». وهو هنا يكتفي بالنقل عن الطبري ويتفق معه في إهمال الآية أو الفقرة التي ترد بعد ذلك عند أشعيا وهي: «فصارت الرئاسة على كتفه،ودُعي اسمه عجيبًا مُشيرًا إلهًا جبّارًا، أبا الأبد، رئيس السلام لنمو الرئاسة ولسلامٍ لا انقضاء له على عرش داود ومملكته ليُقرها ويوطدها بالحق والبّر من الآن وللأبد». وكذلك يكتفي الجعفري بالنقل، ويروي ابن تيمية عنه ما أورده، ورغم إكمال الجعفري للنص الذي يقتبسه عن الطبري بتتمته من عند أشعيا فإنه لا يخصّ جملة «يجلس على كرسي داود» بتحليل أو توضيح، وهو المسلك الذي اتبعه زيادة الراسي في شرحه للنص. راجع: دلائل النبوة للبيهقي 2 / 95 ودلائل النبوة للأصبهاني ص 213 إذ يذكر سلمان الفارسي أن من علامات النبي الآتي التي بُلّغها أن «بين كتفيه خاتم النبوة».و «التخجيل» للجعفري ص 675 و «الجواب الصحيح» لابن تيمية 3 / 155. و «البحث الصريح» للشيخ زيادة (مخطوط) ورقة 34 / ب – 37.

ومعنى قوله هذا إن نبوته على كتفه، فهذا في كتب السريانية التي فسرها مارقوس، فأمَّا في العبرانية فإنه يقول: إن على كتفه علامة النبوة، وهي التي يسميها أهل الإسلام خاتم النبوة. فهذا تصريحٌ بصفة النبي صلّى الله عليه وسلّم وإشارة إلى صوته وشاماته.

-وقال في الفصل العاشر كاشفًا لما استبه ومبينًا لما اعتاص من نبوت: هكذا يقول الرب، إنك ستأتي من جهة التيمن من بلد بعيد ومن أرض البادية، مُسرعًا مقدًّا، مثل الزوابع والزعازع من الرياح، ولقد رأينا منظرًا رائعًا هائلاً ظالمًا يظلم، ومنتهبًا ينهب، فاصغرى يا جبال عيلم وجبال الماهين، فقد بطل جميع ما كانت تنافسين وتناقشين عليه، ومن أجل ذلك اعترت ظهري الرعدة، ودير بي، كما يدار بالمرأة النفساء، ولقد ذعرت حتى ما أسمع، وذهلت حتى ما أرى، وهام قلبي وأذهلتني السمادير، وصار ما كنت أحبه مؤنسًا أنيفًا وحشة عندي وشيئًا هائلاً.

فانصبوا يا هؤلاء الموائد، وارفعوا عيونكم أيتها الربايا والجواسيس، وكلوا واشربوا، ولتقم السادة والقادة إلى أترستهم فليدهنوها دهنًا؛ لأن الرب قال لي: هكذا امض فأقم الربيئة على المنظرة لتخبر بما ترى، فكان الذي رأى راكبين أحدهما راكب حمار والآخر راكب جمل، وسمع مقالاً كثيرًا جمًّا، وأسر صاحب المنظرة إليّ وقال في أذني: إني أنا الرب القيوم، وأنا بالمرصاد والمنظر الأعلى نهارًا وليلاً، فبينما أنا كذلك إذ أقبل أحد الراكبين، وهو يقول: هوت هوت بابل وتكسّر جميع آلهتها المنجورة على الأرض، فهذا الذي سمعت من الرب إله إسرائيل العزيز قد أنبأتكم[222].

222: قارن: سفر أشعيا 21. وإن من أقدم الإشارات التي نعثر عليها لنصّ أشعيا السابق، وتحديدًا المقطع الذي يشير إلى «راكب الحمار وراكب الجمل» ما يذكره ابن إسحاق في معرض قصّه لقصة شعيا بن أمصيا وخراب بيت المقدس»هو الذي قال لإيليا وهي قرية ببيت المقدس، واسمها «أوري شليم» فقال: أبشري أوري شليم، يأتيك الآن راكب الحمار، يعني عيسى، ويأتيك بعده راكب البعي، يعني مُحمدًا. انظر ابن الجوزي «المنتظم في تاريخ الملوك» 1/ 397 ط دار الكتب العليمة بيروت سنة 1992 م.

فهذه أيضًا نبوة مفصحة مصرحة لا يدفعها إلا من غش نفسه ونبذ رشده، فكما أنه ليس لقائل عاقل أن يتجاسر ويتجاهل فيقول: إنه قد كان في الدنيا راكب حمار أولى بهذه النبوة من المسيح عليه السلام، فكذلك ليس لذي ورع أو لُبٍّ أن يقول: إنه قد كان في الدنيا راكب جمل أولى بهذه النبوة من النبي صلّى الله عليه وسلّم ومن أمته، أو ما يستحي أهل الفهم والعلم من أهل الكتاب أن يجعلوا مثل هذه النبوةالواضحة الجليلة لقوم أجلاف جفاة؟

ولقد شرح أشعيا النبي ذلك ولم يدعهم في عمياء، وفتح منهم الآذان الصماء فقال: (إن هكذا يقول الرب إنك ستأتي من جهة التيمّن) ثم فسّر ذلك فقال: (من يلد بعيد ومن أرض البادية) لئلا يدع لمحتج حجة.

ثم زاد إلى ذلك فقال: (هوت هوت آلهة بابل وتكسّرت) ولم يزل في إقليم بابل يعبدون الأوثان مرة ثم النيران أخرى، حتى ظهر النبي صلّى الله عليه وسلّم فاصطلم عزّهم وهدّم بيوت أوثانهم ونيرانهم وأدخلهم في الدين طوعًا وكرهًا.

أولم يستحيوا أن يقولوا: إن الأنبياء المهديين من آل إسحاق عليهم السلام تنبأوا على ملوك بابل وماهين وفارس والخوز، وأضربوا عن ذكر مثل هذا النبي الجليل، والأمة الإبراهيمية العظيمة، والدولة المنصورة، وإن الله سترها عنهم أو كرهها منهم.

فأمّا قوله: رأيت ظالمًا يظلم، فإنما يعني به فارس والخوز والنبط، الذين ذكرهم وقال لهم: (ارجعوا خائبين وتنحّوا مدحورين مسلوبين إلى بلدانكم).

وقال في هذا الفصل: (إنكم ستبيتون مساءً في الغيضة التي على طريق دورنيم. فتلقوا العطاش بالماء يا سكان التّيمّن، واستقبلوا بالأطعمة القوم

المبددين المفرقين لأن السيف بددهم، ومن خوف الشفار المشحوذة والقسي الموترة والحرب العوان المستعرة كان تشردهم).

فمن هؤلاء العطاشى الذين أقبلوا من جهة التيمن الذين أمر الله عز وجل أهل بلدانهم بتلقّيهم؟ أو من هؤلاء الذين أجلتهم الحروب أو شردت بهم؟ ومن الذين أمر الله باستقبالهم بالمياه والمطاعم غير العرب عند نهوضها لمحاربة الأمم المحيطة بهم الحائلة بينهم وبين المرعى والماء من الفرس والروم وغيرهم؟

-وقال في الفصل الحادي عشر: (إنا سمعنا من اطراف الأرض مزمورًا وترتيلاً للبرّ والخير وهو يقول: إن لي سرًا إن لي سراً. ويقول: يا ويحي، فجُر الفجّار فجُر الفجّار فجورًا، فهأنذا محدّق بكم يا سكان الأرض الرعب والمهواة والفخّ، فمن نجا من الحرب وقع في المهواة، ومن صعد من المهواة اشتمل عليه الفخّ؛ لأن أبواب السماء تفتّحت، وتزعزعت أساسات الأرض وارتاعت .فهذا في تفسير مارقوس.

فأمّا في العبراني الذي هو الأصل فإنه يقول: (إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد، ومكة في أطراف الأرض وعلى ساحل البحر)[223].

فليعلمونا متى وفي أي دهر نزل بأهل الإشراك والكفر من الروعات والنقم والنكبات مثل ما عمّهم ونزل بهم في هذه الدولة.

-وقال في الفصل السادس عشر مفسّرًا لما تقدّم في النبوات ومبكّتًا لأهل المحك والغوايات: لتفرح أهل البادية العطشى ولتبتهج البراري والفلوات، ولتخرج نورًا كنور الشلند ولتستر وتزهو مثل الوعل، لأنها ستعطي بأحمد

223: قارن سفر أشعيا 24/16-19.

محاسن لبنان وكمثل حسن الدساكر والرياض، وسترون جلال الله عز وجل وبهاء إلهنا[224].

أما ترون يهديكم الله ماذا كشف لكم النبي عليه السلام ونطق به الوحي من ذكر البوادي والقفار، وما بشّرها الله تعالى به من الجدة والنضرة والكرامات المعدّة لها بأحمد عليه السلام؟ فهل يختلج شك بعد التسمية ووصف البادية المعطشة؟

-وقال في الفصل التاسع عشر، فزاد إبانة وإيضاحًا: هتف هاتف في البلد، وقال خلّوا الطريق للربِّ، وسهّلوا لإلهنا السبيل في القفر، فستمتلئ الأودية كلُّها مياهًا وتفيض، وتنخفض الجبال والروابي انخفاضًا، وتصير الآكام دكداكًا والأرض الوعرة مذللة ملساء، وتظهر كرامة الرب ويراه كل أحد من أجل أن الرب يقول ذلك[225].

فهل تعرفون يهديكم الله أمة دعاها الله من البدو والقفار، وسهل لها الوعورة، وأخصب الجناب، وأمرع الجدوب، وأترع لعطاشهم الأودية إتراعًا، وأذلّ لها الجبابرة والأملاك الذين شهبهم بالروابي والجبال، إلا هذه الأمة التي صارت دجلة بين أيديهم كالشراك المذلل؟ فإنهم لما انتهوا إليها قالوا بأجمعهم: إن الذي حفظنا في البرّ هو الذي يحفظنا في البحر، ثم خاضوها

224: أشعيا 35/1-2، ونصّه كالآتي: «تفرح البرية والأرض اليابسة. ويبتهج القفر. ويزهر كالنرجس يزهر أزهاراً. ويبتهج ابتهاجاً ويرنم. يدفع إليه مجد لبنان. بهاء كرمل وشارون. هم يرون مجد الرّبّ بهاء إلهنا».

225: الأَكَمَة: التلّ، أو هي دون الجبال. أو الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله.وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً. و الدّك: ما استوى من الرمل. والدكداك من الرمل: ما تكبس واستوى أو ما التبد منه بالأرض. قارن أشعيا 40/3-5.

خوضًا ووراءها كسرى ومرازبته وأجناده، فلم يحفلوا به ولا نكلوا عنه وهم عراةٌ حفاةٌ إنما يوقون رؤوسهم بالإنساع.

-وقال في هذا الفصل: إن الربّ الإله سيظهر بالعزّ وذراعه بالقوة والحول، أجره معه، وعمله أمامه، كالراعي الذي يرعى قطيعه ويجمع غنمه بذراعه، ويحملهم في حجره ويغذو الرواضع منهم بنفسه(226).

وقد بيّنا فيما مضى، وفي كتابي الذي في «الرد على أصناف النصارى» أن اسم الرب واسم الإله واقعان على الناس أيضًا، ومصداق ذلك في هذه النبوة؛ فقد أخبر أن الرب الإله هو إنسان أجره معه وعمله أمامه.

وإنما عني به النبي صلّى الله عليه وسلّم، فهو الذي كان أجره معه، وهو الذي عجّل للمجاهدين في سبيل الله نوافله وفضله بالعزّ والغلبة الذين كانا معه.

وقوله: إنه كالراعي الذي يرعى قطيعه، فإنه شبّه ذلك برأفة النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتحنّنه على أهل دينه، فإن الله عز وجل يقول فيه صلّى الله عليه وسلّم: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»[سورة التوبة،اية: 128].

وقال عز وجل لموسى عليه السلام:(إني جاعلك إلهًا لفرعون)(227).

وقال في التوراة: إن أبناء الله عز وجل نظروا إلى بنات الناس ورأوهن روقة حسنا فاتخذوهن)(228).

226: قارن أشعيا 10/40، 11.

227: خروج 16/4.

228: تكوين 1/6-3.

وقال داود النبي صلّى الله عليه وسلّم: (قال الرب لربي). ففي هذا تبيان أن اسم الإله والرب كانا يقعان على الإنسان.

- وقال أشعيا عليه السلام في هذا الفصل:(من ذا الذي نبّه البرّ من المشرق ودعاه إلى موطئ قدمه ليسلم إليه الأمم ويذهل منه الملوك ويجعل سيوفه في عدد الثرى والبر، وقسيه في عدد الحزم المنثورة، فهو يغلبهم ويضرب وجههم ثم يحدث سلمًا لا يطأ برجله سفرًا[229]. وهذا شبيه بما قال الله عز وجل في القرآن.

فأمّا قوله: «من ذا الذي نبه البر من المشرق»، فإن أرض الحجاز والعراق وما والاها عند أهل الشام مشرق، والشام عند أهل برقة وأفريقية مشرق، وأرض اليمن والحجاز عند الحكماء من التيمّن.

والمدعو إلى موطئ قدم خليل الله هو النبي صلّى الله عليه وسلّم، وإليه أسلم الله الأمم وبه وبخ الملوك فذهلوا، وهو الذي لا تُعدُّ رماته وسيافوه، وبه ضرب الله وجوه الأمم وخذلهم وأذلهّم، ثم أعقبهم الإيمان والإسلام والسلم، كما قال الله عز وجل على لسان أشعيا النبي عليه السلام.

-وقال في الفصل العشرين: "يا آل إبراهيم خليلي الذي قويتك، دعوتك من أقاصي الأرض ومن نجودها وعواليها، ناديتك وقلت لك: إنك عبدي وأنا اجتبيتك ولم أستر ذلك، فلا تخف لأني معك ولا ترهب فها أنا إلهك، أيدتك ثم أعنتك بيميني العزيزة البرة مهدت لك، ولذلك يبهت ويخزى

229: قارن أشعيا 41/2-3: من الذي أنهض من المشرق ذاك الذي دعاه البر ليتبعه وجعل الأمم بين يديه وأخضع له الملوك وسيفه جعلهم كالتراب وقوسه كالتبن المذرى يطاردهم ويعبر سالما في سبيل لم يسلكه بقدميه.

المستطيلون عليك، وتضمحل ويتلاشى الذين يمارونك ويشاقونك، ويبيد القوم المنازعون لك، تطلبهم فلا تحس منهم أثرًا لأنهم يبطلون ويصيرون كالنسيء المنسيّ أمامك؛ لأني أنا الرب قوّيت يمينك.

قلت لك: لا تخف. لأني أنا عونك ومخلّصك هو قدوس إسرائيل، يقول الله الربُّ: أنا جعلتك مثل الجرجر الحديد الذي يدق ما يأتي عليه دقًّا ويسحقه سحقًا، وكذلك تفعل أنت أيضًا، تدوس الجبال وتدقّها دقًّا وتجعل المدائن والتلال هشيمًا تذروه العواصف وتلوي به هوج الرياح، وتبتهج أنت حينئذ وترتاح بالرب وتكون محمدًا بقدوس إسرائيل[230].

فهذه نبوةٌ ناطقةٌ وقولٌ فصيحٌ غيرُ أعجمٍ ومُعرب غير طمطمٍ، والمخاطب به من آل إسماعيل ولد إبراهيم المشبهين بالحجر المدق والحديد المسحق الذي يدق الجبال باسم إله محمد، الذي سمّاه وقال: إنه يكون محمدًا بالله جل وعزّ، فقد وضح اليقين وانكشف الغطاء، وإن شغب شاغبٌ فأكثر ما يمكنه أن يقول أن تفسير اللفظة السريانية هو أن يكون محمودًا وليس بمحمّد، ومن عرف اللغة وفهم نحوها،لم يخالفنا في أن معنى محمد ومحمود شيء واحد.

230: الجَرْجَر: ما يداس به الحبّ المحصود المجموع والفول ويكسر. وقارن أشعيا 41/8-16: أما انت يا إسرائيل عبدي ويا يعقوب الذي آخترته نسل إبراهيم خليلي، يا من أخذته من أقاصي الأرض ودعوته من أقطارها وقلت له: أنت عبدي إخترتك ولم أنبذك، فلا تخف فإني معك ولا تتلفت فأنا إلهك. قد قويتك ونصرتك وعضدتك بيمين بري.كل الغاضبين عليك يخزون ويخجلون والناس خصومك يصيرون كلا شيء ويهلكون. تلتمس مشاجريك فلا تجدهم ومحاربوك يصيرون كلا شيء ومثل العدم لأني أنا الرب إلهك آخذ بيمينك قائلا لك: لا تخف فأنا أنصرك، لا تخف يا دودة يعقوب ويا هامة إسرائيل فإني أنا أنصرك، يقول الرب وفاديك هو قدوس إسرائيل. هاءنذا قد جعلتك نورجا سكة جديدة ذات أسنان فتدوس الجبال وتسحقها وتجعل التلال كالعصافة. تذريها فتذهب الريح بها وتبددها الزوبعة فتبتهج أنت بالرب وتفتخر بقدوس إسرائيل.

-وقال في هذا الفصل: (إن المساكين والضعفاء يستسقون ماءً ولا ماء لهم، فقد جفّت ألسنتهم من الظماء، وأنا الربُّ أجيبُ حينئذ دعوتهم ولن أهملهم، بل أفجّر لهم في الجبال الأنهار، وأجري من القفار العيون، وأحدث في البدو آجامًا، وأُجري في الأرض العطشى ماءً معينًا، وأنبت في القفار البلاقع الصنوبر والآس والزيتون، وأغرس في القاع الصفصف السرِّو البهيّة، ليروها جميعًا ويعلموا ويتدبروا، ثم يفهموا معًا أن يد الله فعلت ذلك وقدوس إسرائيل ابتدعه)[231].

فأين لكم يا بني عمي المحيد عن هذه النبوة الواضحة الناطقة، وما عسيتم تقولون فيها، وقد سمّى البلاد ووصف المعطاش والقفار والبلاقع وما فجر فيها من العيون، وأجرى من الأنهار، وغرس فيها من أنواع الأشجار، وسمى العطاشى المساكين من أهل البوادي والحجاز، وأخبر أن يد الله عز وجل فعلت ذلك؟

فليس لمن دفع هذه النبوة وأنكرها من دين ولا حياء ولا خلاق، فقد سمى النبي صلّى الله عليه وسلّم في النبوة التي قبلها، فماذا بقي أيها الشاكون، وما العذر المقبول المنجي لمن تصامم وتعامى عنها؟

-وقال في الفصل الحادي والعشرين: (ولتسبحني وتحمدني حيوانات البر من بنات آوي حتى النعيم، لأني أظهرت الماء في البدو وأجريت

231: قارن: أشعيا41/17-20: البائسون والمساكين يلتمسون ماء وليس ماء. قد جفت ألسنتهم من العطش. أنا الرب أستجيب لهم أنا إله إسرائيل لا أتركهم.أفتح الأنهار على الروابي الجرداء والعيون في وسط الأودية. أجعل البرية غدران مياه والأرض القاحلة ينابيع مياه.أجعل في البرية الأرز والسنط والآس وشجر الزيتون وأجعل في البادية السرو والدردار والبقس جميعا؛ لكي يروا ويعلموا ويتأملوا ويفهموا جميعا أن يد الرب صنعت ذلك وقدوس إسرائيل خلقه.

الأنهار في بلد أشيمون لتشرب منها أمتي المصطفاة. فلتشرب منه أمتي التي اصطفيتها)[232].

فمن كان شاكًّا فيما تقدّم من النبوات فلا عذر له إن جهل أو تجاهل أن النعائم لا تكون إلا بالبادية، وإنما ذكر الثعالب والنعائم مثلاً ضربه لسكان البوادي والفلوات، فمن محّك فيه وحاول تلبيسه فقد هلك.

-وقال في الفصل الثاني والعشرين عن الله عز وجل: (أنا الرب ولا إله غيري، أنا الذي لا يخفي عليه خافية، أنا أخبر العباد بما لم يكن قبل أن يكون، وأكشف لهم الحوادث والغيوب، وأتم مشيئتي كلها فأدعو من البدو طائرًا ومن البلد البعيد الشاسع)[233].

هو النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي ارتضاه الله لاجتهاده فيما أرضاه وأحبّه. وإن لجّوا وتشاغبوا، فليعلمونا أين هذا البدو والفلوات التي وصفها الله عز وجل؟ ومن ذا الذي دعاه فعمل بمرضاته.

-وقال في الفصل الثالث والعشرين يخاطب الناس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: (اسمعي أيتها الجزائر وتفهّمي يا أيتها الأمم، إن الرب أهاب بي من بعيد، وذكر اسمي وأنا في الرحم، وجعل لساني كالسيف الصارم وأنا في البطن، وحاطني بظلّ يمينه وجعلني في كنانته كالسّهم المختار، وخزنني لسرّه، وقال لي: إنك عبدي، فصرفي وعدلي قدام الرب حقًّا، وأعمالي بين

232: قارن أشعيا 20/43، 21.

233:قارن أشعيا 9/46-11: اذكروا الأوائل منذ الأزل فإني أنا الله وليس من إله آخر، أنا الله وليس من إله مثلي. أنا المخبر منذ البدء بما سيأتي ومن القديم بما لم يكن قائلا: إن تدبيري يحقق وإني أصنع كل ما أشاء. أدعو من المشرق كاسرًا ومن الأرض البعيدة رجل تدبيري. قد قلت وسأتم ورسمت وسأفعل.

يدي إلهي، وصرت محمدًا عند الرب، وبإلهي حولي وقوتي)[234].

فإن أنكر منكرٌ اسم محمد في هذا الباب فليكن محمودًا، فلن يجد إلى غير ذلك من الدعاوي سبيلاً.

وهو الذي جعل الله لسانه كالسيف، وهو العربي المبين الذي خبأه في كنانته لسره وتدبيره الذي قد أظهره، وهو الذي يقول في أمته صباح مساء: لا حول ولا قوة إلا بالله.

-وقال في الفصل السادس والعشرين ما يزيد بنبواته المتقدمه إنارة وتأكيدًا وتمهيدًا، وخاطب بها هاجر عليها السلام: (سبّحي أيتها النزور الرقوب، واغتبطي بالحمد أيتها العاقر، فقد زاد ولد الفارغة المَجفيَّة على ولد المَشْغُولة الحَظِيّة، وقال لها الرب: أوسعي مواضع خيامك ومُدِّي ستور مضاربك، ولا تنفسي ولا تضني؛ بل طَوِّلي أطنابك واستوثقي من أوتادك من أجل أنك تتبسطين وتنتشرين في الأرض يمينا وشمالاً، وترث ذريتك الأمم ويسكنون القرى المعطلة اليباب)[235].

فيليت شعري ما عساهم يقولون في هذه وبمن تليق إلا بولد هاجر وذريتها؟

234: قارن أشعيا 49/1-5: اسمعي لي أيتها الجزر وأصغي أيتها الشعوب البعيدة: إن الرب دعاني من البطن وذكر آسمي من أحشاء أمي، وجعل فمي كسيف ماضٍ وفي ظل يده خبأني وجعلني سهمًا محددًا وفي جعبته سترني وقال لي: أنت عبدي يا إسرائيل فإني بك أتمجد. فقلت: إني باطلا تعبت وسدى وعبثا أتلفت قوتي. إلا أن حقي عند الرب وأجري عند إلهي. والآن قال الرب الذي جبلني من البطن عبدًا له لأرد يعقوب إليه فيجتمع إليه إسرائيل فأكون ممجدًا في عيني الرب ويكون إلهي عزتي.

235: قارن أشعيا 54/1-3. والنَّزُور: المرأة القليلة الولد. والرَّقُوب: الناقلة التي لا يبقى لها ولد أو مات ولدها.

أو لمن الخيام والطناب إلا لولدها ؟ لعلكم تقولون أنه عني بهذا الحبشان والترك فإنهم أيضًا أصحاب عمد وخيام.

وإن من تعامى عن هذه وما قبلها لَعَمّى قليل النظر لنفسه مجاهر بمعصية ربه، وما تركهم الله عز وجل في شبهة بل كرر وأظهر وأبان.

-وقال أيضًا عن الله عزّ وجلّ في الفصل الثامن والعشرين: إني أقسمتُ بنفسي، وأخرجتُ من فمي كلمة الحقّ، التي لا خلف لها ولا تبديل، أنّه تخِرُّ لي كُلُّ ركبةٍ، ويقسمُ بي كُلُّ لسانٍ، ويقولون معًا: إن النّعمة من عند الرّب.

فمن هذه الأمة التي تقسم باسم الله ؟ ومن ذا الذي يخرّ على الركب لاسم الفرد الواحد ويُحدّث بنعم الله صباحًا ومساءً ويفرده بالدعاء والابتهال غير هذه الأمة ؟

فأمّا جماعة النصارى فإنهم ينسبون النعم والأفضال إلى المسيح ويقولون في افتتاح الصلوات على المذابح: (لتتم علينا نعم يسوع المسيح).

وتنبأ أشعيا في هذا الفصل بما كشف به أسرار النبوة المتقدمة، وبكّت به أهل العمى والسفاهة، فلم يترك لمغالط حجة ولا لمعاند مخرجًا، وخاطب أيضًا هاجر فقال: (أيتها المنغمسة المتغلغلة في الهموم التي لم تنل خطوة ولا سلوًّا، إني جاعل حجرك بلورًا، وموثق أساساتك بالحجر الأسمانجوني، ومزيّن حيطانك بالحجر اللازورد، وأبوابك بحجر البلق، ومزخرف حدود بيتك بالأحجار النفيسة، ويعرفني هنالك جميع ولدك ولا ينكرونني، وأعم أبناءك بالسلام وتكونين مزينة بالصلاح والبر، فتنحي عن الأذى والمكاره لأنك آمنة منه، فانحرفي عن الانكسار والانخزال فلن يقرباك، ومن انبعث

من بين يدي فإليك يكون وفيك حلوله، وتصيرين وزرًا وملجأ لقاطنيك وسكانك[236].

فتدبّروا يهديكم الله هذه فإنكم فاهمون جدلون، وانظروا لأنفسكم فإنكم عندئذ مسؤولون، هل تعرفون المذللة المتغلغلة في الهموم إلا هاجر؟

وهل تقع هذه المخاطبة إلا عليها وعلى ولدها؟

فأيُّ شيء أرفع وأعظم من شهادة الله لهم، إنهم جميعًا يعرفونه ولا يجهلونه، وأنه صَّير بلدهم وزرًا وملجأ للناس، أي حرمًا وأمنًا، وبنيت مكة بالفيسفساء ونفائس الأحجار وحُمل إليها تيجان الملوك.

فليسمع مقالي ونصحي من كان ذا أذنين، وليتدبر هذه الشهادات والمقاييس، وليخلو بكتابي هذا وبكتاب الرد على النصارى، ويسترشد الله ويعمل لنفسه في فكاكها قبل أن يحل به هلاكُها.

وتنبّأ في هذا الفصل ونادى وهتف فقال: (يا معشر العطاش توجهوا إلى الماء والورد، ومن ليس له فضة فليذهب ويمتر ويستسقي، ويأكل من الخمر واللبن بلا فضة ولا ثمن)[237].

فهذا من نبوة أشعيا دَالٌّ على ما أنعم الله به على ولد هاجر من أمة النبي

236: أشعيا 54/11-15. وقارن الجعفري في «التخجيل» حيث ينزّل هذه الصفات على مكّة وليس على هاجر: «وهذه صفات مكة والكعبة والمسجد الحرام. لأن مهدي بني العباس والملوك قبله وبعده قد تأنقوا في بناء المسجد الحرام بالأحجار النفيسة والذهب والأصباغ واللازورد. وحملت تيجان الملوك وذخائرهم فحليت بها الكعبة. ولقد شاهدت شقوف الحرم وهي تكاد تلمع البصر حسناً. فمن رام صرف كلام النبيّ أشعيا هذا إلى غير مكة من البلاد أكّد خاطره وأكدى سعيه ولم يظفر ببيت آخر وحرم آخر ينزل ذلك عليه. ولا يمكن تنزيل ذلك على البيت المقدس؛ لأنه لم يكن متغلغلاً في الهموم ولا سقوط الحطوة بل هذه صفة الكعبة فاعلم ذلك».

237: أشعيا 55/1.

صلّى الله عليه وسلّم، وعلى أنهم صائرون إلى ما وعدهم الله تعالى به في الآخرة من أنهار من خمر وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمها، وأنهار من خمرة لذة للشاربين[238]، فانظروا في هذه المشاكلة والموافقة التي بين النبوتين جميعًا.

وقال في هذا الفصل:(إني أقمتك شاهدًا للشعوب، ومدبّرًا وسلطانًا للأمم؛ لتدعو الأمم الذين لم تعرفهم، وتأتيك الأمم الذين لم يعرفوك هرولة وشدًّا، ومن أجل الرب إلهك قدوس إسرائيل الذي أحمدك، فاطلبوا ما عند الرب، فإذا عرفتموه فاستجيبوا له، وإذا قرب منكم فليرجع الخاطئ عن خطيئته، والفاجر عن سبيله، وليرجع إليّ لأرحمه ولينب إلى إلهنا الذي عمت رحمته وفضله)[239].

فمن تدبّر هذه النبوة وكرّر النظر فيها لم يحتج إلى غيرها، فقد سمّى النبي صلّى الله عليه وسلّم فيها باسمه وقال: إن الله جعلك محمدًا، فإن آثر المخالف أن يقول ليس بمحمد بل محمود وافقناه فيه لأن معناهما معنى واحد. وقد أتته الأمم هرولة وشدًّا وجعله الله مدبرًا للأمم وداعيًا إلى الله كما قال أشعيا، وسراجًا منيرًا.

-وقال في الفصل الثامن الثامن والعشرين: (إن تعالى نظر فلم ير عدلاً وأنكر ذلك، ورأى أنه ليس أحد يعين على الحق فعجب الرب منه، وبعث وليّه، فأنقذه بذراعه ومهّد له بفضله، فاستلأم العفاف كالدرع، ووضع على

238: فيه إشارة إلى قوله تعالى: «فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ». [سورة محمّد، الآية: 15].

239:قارن: أشعيا 55/4-7. هاءَنَذا جَعَلتُه لِلشُّعوبِ شاهِداً لِلشُّعوبِ قائِداً وآمِراً. ها إِنَّكَ تَدْعو أُمَّةً لم تَكُنْ تَعرِفُها وإِلَيكَ تَسْعى أُمَّةٌ لم تَكُنْ تَعرِفُكَ بِسَبَبِ الرَّبِّ إِلهِك وقُدُّوسِ إِسرائيلَ الَّذي مَجَّدَكَ. إِلتَمِسوا الرَّبَّ ما دامَ يوجَد أُدْعوه ما دامَ قَريباً. لِيَترُكِ الشِّرِّيرُ طَريقَه والأَثيمُ أَفْكارَه ولْيَرجِعْ إِلى الرَّبِّ فيَرحَمَه وإِلى إِلهِنا فإِنَّه يُكثِرُ العَفْوَ.

رأسه سنور الإعانة والفلج، ولبس لباس الخلاص لينتقم من المبغضين له والمعادين. ويجازي أهل الجزائر جزاءهم أجمعين ليتقي اسم الله في مغارب الأرض ليخشع في مشارقها لجلاله)[240].

وقد استلأم النبي صلّى الله عليه وسلّم البر كالدّرع، ووضع على رأسه سنّور الإنقاذ والفلج، ولبس لباس الخلاص والانتقام من أعداء الله، وجازى أهل الجزائر، وأظهر اسم الله في مشارق الأرض ومغاربها وخضع له أهلها.

فأين المحيد عنه؟ وكيف المدفع لهذه النبوات التي قد تظاهرت عليه؟ وأين المهرب من الله لمن عانده وتصام عن وحيه وندائه؟

-وتنبّأ في هذا الفصل بما لا يرده إلا الخاسرون، ولا يجهله إلا الأجهلون الأعمون، فإنه ذكر أيضًا هاجر مخاطبًا لها ولبلاد ولدها مكة وقال: (قومي وأزهري مصباحك فقد دنا وقتك، وكرامة الله طالعة عليك، فقد تخللت الأرض الظلام، وغطّى على الأمم الضباب، فالربُّ يشرق عليك إشراقًا، وتظهر كرامته عليك، ويسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك، ارفعي بصرك إلى ما حولك وتأمّلي، فإنهم سيجتمعون كلهم إليك ويحجّونك ويأتيك ولدك من بلد بعيد، وتتربّى بناتك على الأرائك والسرر، ويستروح قلبك من أجل أنه يميل إليك البحر، وتحجُّ إليك عساكر الأمم حتى تغمرك الإبل المربلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، ويساق إليك كباش مدين وكباش أعفا وتأتيك أهل سبأ، ويحدِّثون بنعم الله ويمجّدونه، وتسير إليك أغنام قيذار كلها، وتخدمك رجالات نباؤت ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني،

240: أشعيا 59/16-19.

وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمدًا)[241].

فهذه أيضًا يهديكم الله نبوة قد ظهرت وآية قد برّت وصدقت، وسارت الأمم إلى نور الدين، ومالت إلى هذه الأمة ذخائر البحر، وحجّت إلى مكة أرسال الأمم، وعمر أهلها الإبل والقطرات عما يردها من الرواحل والجمالات، وحج إليها أهل اليمن وأهل سبأ، وأشهر من ذلك وألزم لأذان المخالفين، فإن قيذار ونباؤت، هما من أبناء إسماعيل عليه السلام، وقد احتوشوها وصاروا سَدَتها كذلك، فليسلموا لنا غير النبي صلّى الله عليه وسلّم وغير مكة، وليعرضوا صفته على هذه الصفات، ويقيسوا أحواله إلى هذه النبوات، لينهتك السّتر ويبدو اليقين.

-وقال في هذا الفصل: (هكذا يقول الرب إنه سيترجاني أهل الجزائر ومن في سفن تارسيس كما فعلوا من قبل، ويوردون عليك أبناءك من بلد بعيد ومعهم فضتهم وذهبهم، من أجل اسم الرب إلهك قدوس إسرائيل، الذي أحمدك وأكرمك، ويبني أبناء الغرباء سورك، وملوكهم يخدمونك، وتنفتح أبوابك في كل وقت وأوان، من آناء الليل والنهار، فلا تُغلق، ويدخل إليك أرسال الأمم، ويُقاد إليك ملوكهم أسرى، لأن كل أمة ومملكة لا تخضع لك تتبدد بيدودة وتصطلم الشعوب بالسيف اصطلامًا، وتأتيك الكرامة

241: قارن: أشعيا 60/1-7. قومي استنيري فإن نورك قد وافى ومجد الرب قد أشرق عليك.ها إن الظلمة تغطي الأرض والغمام المظلم يشمل الشعوب ولكن عليك يشرق الرب وعليك يتراءى مجده.فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك. ارفعي عينيك إلى ما حولك وآنظري كلهم آجتمعوا وأتوا إليك. بنوك من بعيد يأتون وبناتك يحملن على الورك. حينئذ تنظرين وتتهللين ويخفق قلبك وينشرح فإليك تتحول ثروة البحر وإليك يأتي غنى الأمم. كثرة الإبل تغطيك بكران مدين وعيفة كلهم من شبأ يأتون حاملين ذهبا وبخورا يبشرون بتسابيح الرب. وكل غنم قيدار تجتمع إليك وكباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبح رضاي وأمجد بيت جلالي.

من صنوبر لبنان البهيّ، ومن أبهلها ليبخّر به بيتي، ويعظم به موضع قدمي ومستقر كرامتي، وتأتيك أبناء القوم الذين كانوا يُذلّونك، ويقبل آثار أقدامك جميع من كان يؤذيك ويضطهدك، وأجعلك كرامة إلى الأبد وغبطة وفرحًا إلى دهر الداهرين، وسترضعين ألبان الشعوب، وستصيبين من غنائم الملوك، وتتمززين من غاراتك عليهم، وتعلمين حينئذ أني أنا الرب مخلصك، لأني أعطيك بدل النحاس ذهبًا، وبدل الحديد فضة، وبدل الخشب نحاسًا، وبدل الحجارة حديدًا، وأجعل السلامة مُدبّرك والصلاح والبر سلطانك، ويكون الرب نورك ومصباحك إلى الأبد)[242].

فافهموا يا بني عمي النّبوّة وانظروا من ذا الذي بنى الغُرباء سوره، وخدمه الأعزّة وسيق إليه الملوك مصفّدين مأسورين، ومن ذا الذي أباد وأهلك بالسيف كل مملكة وملة لم تخضع له؟ وهل تعلمون لقدم خليل الله مستقرًا مذكورًا غير مكة التي يحجّها خاشعين ويرفلون إلى بابها ساجدين ويأتونها من أقاصي الدنيا مُلبّين؟

-وقال في الفصل الرابع والعشرين يخاطب النبي صلّى الله عليه وسلّم أيضًا: (هكذا يقول الربّ قدوس إسرائيل، الذي كانت نفسه مسترذله مستهانة، ولمن كانت الأمم تستخف به وأتباع السلطان يهينونه، ستقوم له الملوك إذا رأوه، وتسجد له السلاطين لأن وعد الله حقٌّ، وهو قدوس إسرائيل الذي انتخبك واختارك، وهو الذي يقول أجبتك عند الرضى، ولدى الشدائد أعنتُك واجتبيتك، وجعلتُك ميثاقًا للشعوب ونورًا للأمم؛ لتطمئن بك الأرض، وترث مواريث الخزانات، وتقول للأسرى اخرجوا وانفكوا، المحبين أظهروا

242: قارن: أشعيا 60/-9 19.

وانطلقوا، وارعوا ماشيتكم حينئذ في الطرقات؛ لأن مراعيكم تكون موجودة في كل جهة وسبيل.

لا يجوعون ولا يعطشون ولا تضربهم السمائم والشموس، لأن رحمانهم معهم وهو يوردهم مشارع المياه وينابيعها، ويجعل الجبال كلها طرقًا وفجاجًا لهم، ويستغنون لذلك عن المسالك والطرقات، وتتوافى القوم من بلد شاسع بعيد، بعض من جهة الجربياء، وبعض من بحر سنيم، فسبّحي أيتها السماء، واهتزي أيتها الأرض فرحًا، وابتهجي أيتها الجبال بالحمد، فقد تلاقى الرب شعبه ورحم المساكين من خلقه)[243].

وهذا إفصاح وليس بحمحمة، وتصريح وليس بدمدمة، ونبوة واضحة مؤكدة لما تقدّم قبلها من النبوة، فلعمري ما ورث الخرابات ولا فك الأسرى من الحبوس والقيد ولا رعى في الطرقات بعد الحصار والجهد الذي كانت فيه العرب من قبل كسرى وقيصر، ولا صيّرت الجبال طرقًا وفجاجًا إلا لهذا النبي وأمته، التي ذكر أشعيا النبي عليه السلام أنها كانت مُسترذلة مُهانة، فأمّا معنى قوله «قدّوس إسرائيل» فإنه لما خاطب بني إسرائيل سمّى الله بالاسم الذي كان بنو إسرائيل يسمّونه به.

-وقال في هذا الفصل وخاطب في بعضه هاجر ومكة: أنا رسمتك على كفّي فأسوارك أمامي في كل وقت، وسيأتيك ولدك سراعًا، ويخرج عنك من أراد أن يتحيفك ويحزنك، فارفعي بصرك إلى ما فوقك، وانظري فإنهم يأتونك ويجتمعون عن آخرهم إليك، يقول الله قسمًا باسمه: إني أنا الحيُّ، لتلبسنهم مثل الحلة، ولتتزينين بالأكاليل مثل العروس، ولتضيقنّ عنك

243:قارن أشعيا 49-7-13.

قفارك وخراباتك والأرض التي ألجأوك إليها وضغطوك فيها من كثرة سكانها والراغبين فيها، وليهربن منك من كان يناوؤك ويهتضمك، وليقولن لك: ولد عقمك أيتها النزور الرقوب إنه قد ضاقت بنا البلاد فتزحزحوا وانفرجوا فيها لنتسع في فيافيها. وستحدثين نفسك حينئذ فتقولين: من رزقني هؤلاء كلهم وها أنا وحيدةٌ فريدةٌ نزورٌ رقوبٌ، وها أنا مسبيّةٌ والهةٌ مسترقةٌ، فمن ربّى لي هؤلاء، ومن تكفّل لي بهم)[244].

فأيُّ تصريحٍ وإبانةٍ وتنويرٍ أبينُ وأنورُ من هذا؟ فقد أقسم الله بنفسه، وبرّ قسمه ولم يخلف وعده، أنه يُصيّر الأمم لباسًا لهم، كالحلة وزينة كالحلية.

فهكذا العرب، وهكذا مكة، وما تلبس في كل سنة من فاخر الدّيباج والتاج، ويُحمل إليها من نفيس الجواهر والصدقات من دار الخلافة وآفاق المملكة، أو من صاحب القفار والخرابات، الذي كان مضغوطًا فيها مضطرًا إليها غير هذه الأمة البدوية الحجازية .

ومَنْ الفريدةُ الوحيدةُ الوالهةُ المسبيّةُ المسترقةُ التي خاطبها الله غير هاجر ؟ فهل من ناظر لنفسه ناصح؟ وهل من مراقب عليها مشفق؟

-وقال في هذا الفصل: (هكذا يقول الرب: ها أنا رافع يدي على الأمم، وناصبٌ لها آية، وهي: أن الناس الذين يأتونك بأبنائك على أيديهم ويحملون بناتك على أكتافهم، وتكون الملوك ظؤورتك وعقائل نسائهم وشرائفهن مرضعاتك، ويخرّون على وجوههم سجّدا لك على الأرض، ويلحسون تراب أقدامك، وتعلمين حينئذ أني أنا الرب الذي لا يخزي الراجون لي لديّ)[245].

244 :قارن: أشعيا 49/16-21.

245: قارن أشعيا 49/22-23. والظوؤورة: جمع ظئر، وهي: الدّاية والمزيّنة والمرضعة.

فهذه أيضًا نبوة لم تستخل ولم تبطل، فلقد أتت الأممُ من أقاصي الشرق والغرب، والسند والهند، وآفاق البربر والبوادي، بنسل هاجر وعترتها، الذين توالدوا في بلدانهم إلى مكة يزفونهم زفًّا ويعنقونهم تعنيقًا، ولقد ارضعت ملوكهم وعقائل نسائهم أبناء إسماعيل عليه السلام وبناته، وخرّت الأمم لله بمكة على وجوهها سُجّدًا، ولحست الجبابرة مواقع قدم إبراهيم وأقدام النبي صلّى الله عليه وسلّم تذلّلاً وتخشعًا.

-وقال في هذا الفصل: (من ذا الذي أقبل من أدوم وثيابه أشد حمرة من البُسر، وأراه بهيًا في حلله ولباسه، وعزيزًا لكثرة خيله وأجناده، إني أنا الناطق بالحقّ والمخلّص للأقوام، وإن لدينا ليوم الفتنة نكلاً، ولقد اقتربت ساعة النجاة وحانت سنة تخليصي؛ لأني نظرت فلم أجد من يعينني، وتعجبت إذ ليس من ينيب إلى رأيي، فخلّصني عند ذلك ذراعي، وثبّت بالغضب قدمي، ودست الأمم برجزي، واشقيت حدودهم بغيظي واحتدامي، ودفنت عزّهم تحت الأرض).[246] فتدبّروا هذه أيضًا ولا تكونوات من الممترين.

-وتنبأ أشعيا عن الله تعالى في هذا الفصل وتعقّب تلك النبوة فقال: (إني جعلت اسمك محمدًا، فانظر إلى محالّك ومساكنك يا محمّد يا قدوس، لأنك أنت الرب أبونا ومخلصنا، واسمك موجود منذ الأبد)[247].

فهذا شبيه بما تقدّم من نبوة داود النبي عليه السلام في قوله: (إن اسمه موجود قبل الشمس). وبقوله في الزّبور أيضًا: (إن في جبله قدوسًا ومحمدًا) وهذا هو التسمية وفيه الكفاية لمن لم تغلب عليه شقوته ولم يمد له في طغيانه.

246: قارن أشعيا63/4-6.

247: قارن أشعيا 63/14-16.

فأمّا معنى قول أشعيا النبي عليه السلام :أنه قدّوس، فإن القدّوس في اللغة السريانية: الرجل البرّ الطاهر[248]، وكذلك اسم الرب واقع على السادات كما قد بينا، فمن لم يقنع بهذه ولم يخضع لها عاند الرب صُراحًا، وقد سُمّي النبي فيها مرتين تسمية لم تدعهم في شبهةٍ، فإن غالط مغالطٌ، فقال: إن قول الله تعالى يا محمد ويا قدوس إنما يقع على المساكن التي ذكرها، فإن الكتاب السرياني يكذّبه لأنه لو أراد بذلك المساكن لقال قدوسين ومحمدين، ولم يقل قدّوسًا ومحمّدا.

-وقال في هذا الفصل: (اعبروا اعبروا الباب، وردّوا الطريق على الأمة، سهّلوا السبيل وذللوها ونحّوا الحجارة عن سننها، وارفعوا للأمة علمًا ومنارًا، فإن الربّ أسمع نداءه من في أقطار الأرض، فقال لابنه صهيون: إنه قد قرب مجيء من يخلّصك، أجره معه وعمله قدّامهُ، ويسمّون شعبًا طاهرًا خلّصهم الرب، وتُسمّين أنت أيتها القرية التي أدال الله لها من أعدائها ولم يخذلها ربّها).

فهؤلاء هم الشّعبُ الطّاهرُ، الذي خلّصهم الرّبُّ، وتلك القريةُ المدالةُ من أعدائها المنتقمُ لها هي مكّة وأهلها، وهذا قائم صحيح في مجاز العرب، فإنهم يقولون: سل القرية، وهم يريدون: سل أهل القرية.

248: على هذا المعنى يؤكّد مار أغناطيوس افرام، في تحليله للكلمة السريانية (قُدس)في (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية)، ويقول: إن القدّوس هو الطاهر المنزّه عن كلّ عيب. راجع: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع والعشرين، ذى الحجة 1368 - العدد 4 ص 485،486.

نبوة هوشاع[249] النبي عليه السلام على النبي صلّى الله عليه وسلّم

وقال هوشاع: (قال الرّبُّ: أنا الربُّ الإله، الذي رعيتك في البدو، وفي أرض خراب قفر غير مأهول ليس بها أنيس)[250].

فهذه من نبوة هوشاع شبيهةٌ بما تقدّم من نبوات أشعيا، فلسنا نعرف أحدًا رعاه الله في البدو، وفي أرض قفرٍ غير النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وقال في هذا الفصل، مؤكدًا لقوله هذا، يصف أمّته إنها أمة جليلة عزيزة لم يكن مثلها أمة قط ولا يكون، وأن النار تحرق أمامها وتتوقدُ وخلفها الضرائرُ[251].

249: هوشع: علمٌ عبريٌّ معناه: (الخلاص) وهو عند أهل الكتاب من الأنبياء الصغار الاثني عشر. وقد عاصر هوشع سقوط السامرة التي كان ينتمي إليها - سنة 722هـ. ق. م. وكان معاصراً لأشعيا الذي تنبأ في مملكة الجنوب (يهوذا). وينسب إلى هوشع سفر باسمه يحتوي على (14) إصحاحًا. [راجع: قاموس الكتاب المقدس: ص 1005، 1006] وقد مارس نبوته في إسرائيل، والجزء الثاني من سفره الخاص حديث له وحده، لا يحتوي على رموز تمثيلية لشيء، ولكنه يتنبأ في الوقت نفسه بأن إسرائيل سوف تسترجع في يوم من الأيام وتصير مرة أخرى موضوع محبة الله، وفي الجزء الذي كان ينعي فيه إسرائيل تنبأ أولاً ثم شاهد بنفسه مؤكدًا سقوط إسرائيل وسبي شعبها [راجع: متّى المسكين «النبوة والأنبياء» ص 270، 272، 276، 278] والفقرة التي يقتبسها الطبري من الجزء الذي يتحدث عن خراب إسرائيل تحديدًا [13/1-6] ويقتبس الطبري الآية رقم (5).

250: هوشع 13/5. وقارن أعلام النبوّة لأبي حاتم الرازي ص 198.

251: هنا يُلخّص الطبري بعض المعاني، ولا يقتبس نصًا حرفيًا، قارن عبد امجيد الشرفي «الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى» ص 498.

فهذه هي الأمّةُ العزيزةُ، التي لم يكن مثلُها أمّة قطّ، وهذا النبي الذي ربّاه الله ورعاه في القفر اليباب والبدو الخراب، وهذه نبوّةٌ موجزةٌ كافيةٌ لمن وفّقه الله لرشده، فإن من كان الله راعيه ومُعظّمه، والشاهد له بأن لم يكن في الدنيا أمة أعز وأعظم منها، ولا يكون مثلها، فقد وجب على الناس تعظيمه والاعتراف بتقديمه وفضله، ومن لم يفعل ذلك كان مخالفًا لله وعلى سبيل المعاصي والضلال.

وقد شهد هوشاع النبي عليه السلام، بأن الأمة التي لم يكن مثلها قط هي هذه الأمة، فليس لذي مراقبة ولب أن ينسب هذه النبوة إلى يحيى بن زكريا، ولا إلى أمةٍ غير المسلمين.

نبوة ميخا النبي على النبيّ صلّى الله عليهما وسلّم

قال: (إنه يكون في آخر الأيام جبل بيت الرب مبنيًا على قلال الجبال، وفي أرفع رؤوس العوالي، وتأتيه جميع الأمم، وتسير إليه أممٌ كثيرة، وهم يقولون: تعالوا نطلع إلى جبل الرب)(252).

فهذه صفة مكّة صراحًا، فهي التي يحجّ إليها الأمم الكثيرة، ويسعون لها، ويسيرون إليها وهم يلبُّون. فإن شغب شاغبٌ، فقال: إنه عنى بيت المقدس. فكيف يصحُّ له ذلك وقد بين الله أنه يكون ذلك في آخر الأيام؟ وكان بيت المقدس في زمان هذا النبيّ موجودًا، وإنما تنبّأ النبي على شيءٍ يحدث لا على ما كان ومضى(253).

252:قارن سفر ميخا 4/1-2. يُذكر أن نسبة من الشك تتطرق إلى صحة ثبوت النص السابق، ونسبته القطعية إلى النبي ميخا، فالنص مقتبس عن الإصحاح الرابع ويشكل مع تاليه الخامس سفرين لا يزالان موضع جدال شديد في نسبتهما إلى ميخا. انظر «مقدمة السفر في النسخة اليسوعية» ص 1959، 1964.

253: ينتقد عبد المجيد الشرفي مسلك الطبري في تأويله للنص، معتبرًا تفسيره لهذا النصّ تحديدًا من أحسن الأدلة على منهج الطبري في التأويل، بمعنى أن الطبري يبتر النصوص من سياقاتها ويُسقط منها ما لا يتوافق مع تفسيره، حتى يتم له ما أراده، ويعقب على ذلك قائلاً: «إذا عُدنا إلى نص النبوءة لاحظنا أنه أسقط من الآية الثانية ما لا يتماشى واستنتاجه، فقد جاء إثر قول ميخا «تعالوا نطلع إلى جبل الرب» مباشرة قوله: «وبيت إله يعقوب، وهو يعلمنا طرقه، فنسلك في سبله، لأنها من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب»، والأمر هنا واضح في أن البشارة كلٌّ لا يتجزأ ومتعلقة بصهيون كما في أشعيا 2/2-4 ». كما انتقد تأويل الطبري، الذي يعتمد على أن مكة هي المقصودة والمشار إليها في نبوءة ميخا، قائلا: «ولم يشعر بأن حجته هذه يمكن أن تنقلب عليه؛ إذ في قوله هذا دلالة ضمنية على أن مكة لم تكن موجودة في زمن ميخا في القرن الثامن ق.م.، وأنها تبعًا لذلك ليست موطن إسماعيل وذريته كما أكّد ذلك مرارا». انظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى» ص 499،498.

نبوة حبقوق النبي
على النبي صلى الله عليهما وسلم

وهي نظيرة نبوة موسى عليه السلام، بل أنور وأظهر منها، لأنه سمِّي النبي عليه السلام مرتين[254]. قال حبقوق النبي عليه السلام[255] (إن الله جاء من التيمّن والقدوس من جبل فاران[256]. لقد انكسفت السماء[257] من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده. يكون شعاع منظره مثل النور، ويحوط[258] بلده بعزّه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطّير أجناده، قام فمسح الأرض،

254: استرعت هذه البشارة بصفة خاصة انتباه الدارسين لعدة أسباب، أهمها: أن فخرالدين الرازي ينقلها عن الطبري وفي ذلك قرينة مهمّة على صحة نسبة الكتاب الطّبري إليه، وكذلك أن اسم محمد قد ذكر فيه مرتين، كما اعتبرها الطبري «أنور» من نبوة موسى وأظهر منها دلالة نظرًا لتصريحها باسم النبي الأكرم، وربما كان ذلك سببًا لشيوعها عند كثير من العلماء المسلمين في تواليفهم. راجع: تفسير الفخر الرازي (39/3) ط دار الفكر بيروت 1981م.والفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 499. وقارن «التخجيل» للجعفري(689،690/2) و «الأجوبة» للقرافي (ص446،447)، و «أعلام النبوة» للماوردي، ص122، والجواب الصحيح (161/3- 163)، و»مقامع هامات الصلبان» للخزرجي، نشرة د. شامة (ص 227) ط مكتبة وهبة، القاهرة.

255: لنقل فخر الدين الرازي لنصّ البشارة، ولشكّي في ضبط بعض الكلمات في نص علي بن ربن الطبري سأقابل بين النصين وأثبت الخلاف بينهما، خاصة أن الرازي يصرّح في تفسيره أن النّص منقول عن الطبري، وسأضبط النص على طبعة مؤسسة المطبوعات الإسلامية (39/3).

256: لنقل فخر الدين الرازي لنص البشارة، ولشكّي في ضبط بعض الكلمات في نص علي بن ربن الطبري سأقابل بين النصين وأثبت الخلاف بينهما، وخاصة أن الرازي يصرح في تفسيره أن النّص منقول عن الطبري، وسأضبط النص على طبعة مؤسسة المطبوعات الإسلامية (39/3)، ترد الفقرة الأولى عند الرازي على هذا النحو :» جاء الله من طور سيناء والقدس (= القدوس) من جبل فاران.

257: عند الرازي: (انكشفت).

258: عند الرازي: (يحفظ).

ثم تأمّل الأمم وبحث عنها، فتضعضعت الجبال القديمة واتضعت الروابي الدهرية، وتزعزعت ستور أهل مدين، ولقد حاز المساعي القديمة، وغضب الرب على الأنهار فرجزك في الأنهار واحتدام صولتك في البحار[259].

ركبت الخيول وعلوت مراكب الإنقاذ[260] والغوث وستترع[261] في قسيك إغراقًا وترعًا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً. وتحرت[262] الأرض بالأنهار، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السّيل، ونعرت المهاوي نعيرًا ورعبًا،[263] ورفعت أيديها وجلًا وخوفًا، وتوقفت الشّمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك[264]، تدوخ الأرض غضبًا وتدوس الأمم رجزًا[265]؛ لأنك ظهرت لخلاص أمتك وإنقاذ تراث آبائك[266].

فهذه النبوةُ الباهرةُ الجليلةُ، التي لا شكّ فيها ولا مرية، فقد نطقت بالحق وباحت بالمكتوم وكشفت الأغطية وأزالت الشبهات، وسمَّى الله النبي صلّى الله عليه وسلّم تسميةً مرتين، وأخبر أن المنايا تسير أمامه، وتصحب سباع الطير راياته، وأنه يركب الخيل، ويظهر الخلاص، وترتوي السهام بأمره من

259: الفقرة كاملة ساقطة عند الرازي.

260: عند الرازي: (الانقياد).

261: (ستنزع في قسيك إغراقاً ونزعاً) وهو الصواب وقد التفت إلى هذا الخطأ عيسى اسكندر المعلوف في قراءته لنشرة منغانا، ونوّه عليه في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع، محرم 1343هـ، ج 8، ص382.

262: عند الرازي: (وتخور).

263: (ونفرت المهاري نفيرًا ورعبا).

264: (بيانك).

265: (زجرًا).

266: عند الرازي: (بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك).

الدماء، وهو الذي وقفت الشمس والقمر عن مجاريهما له، وسارت العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه.

فإن لم يكن هو الذي وصفنا فمن إذًا؟ لعلهم بنو إسرائيل المأسورون المسبيون، أو النصارى الخاضعون المستسلمون.

وكيف يكون ذلك وقد سُمّي فيها النبي مرتين، ووصفت عساكره وحروبه، وأنه يدوس الأمم دوسًا ويدوّخهم غضبًا ورجزًا؟

فدعوا يا بني عمّي اللجاج والمحك، وتجرعوا مرارات الحق، وأفيقوا من سُكره، وافهموا عن الله تعالى وعن أنبيائه البررة الطيبين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

نبوة صفنيا النبي
على النبي صلى الله عليه وسلم

قال: يقولُ الربُّ أيُّها النّاسُ ترجّوا اليوم الذي أقوم فيه للشهادة، فقد حان أن أظهر حكمي بحشر الأمم كلها وجميع الملوك؛ لأصبّ عليهم رجزي وأليم سخطي، فستحترق الأرض كلها احتراقًا بسخطي ونكيري، هنالك أُجدّد للأمم اللغة المختارة؛ ليذوقوا اسم الربّ جميعًا، ويعبدوه في ربقةٍ واحدةٍ معًا، ويأتوني بالذبائح في تلك الأيام من معابر أنهار كوش[267].

وهذا صفنيا الذي نطق بالوحي وأخبر عن الله بمثل ما أدَّى أصحابه، ووصف الأمة التي تشهد: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتجتمع على عبادته وتأتيه بالذبائح من سواحل السودان ومعابر الأنهار.

واللغةُ المختارةُ هي: اللسانُ العربيُّ المبينُ، الذي ليس بطمطميٍّ ولا فارسيٍّ ولا سوفسطيٍّ، وهي التي قد شاعت في الأمم فنطقوا بها وتجدَّدوا بما جُدّد لهم منها، فأمَّا العبرانية فكانت لغة تلك الأنبياء، وأمَّا السريانية فما تجاوزت قطُّ بلد سوريا، وكذلك الرومية لم تجاوز الروم، ولا تجاوزت الفارسية مدينة إيران شهر، وظهرت العربية إلى منقطع التراب وبوادي الترك وبلاد الخزر والهند.

267: نجد النّصّ في سفر صفنيا في الترجمة الحالية [3/8-10] كالتالي: «لذلك فانتظروني يقول الرّبّ إلى يوم أقوم إلى السلب؛ لأن حكمي هو بجمع الأمم وحشر الممالك لأصبّ عليهم سخطي كلّ حمو غضبي؛ لأنه بنار غيرتي تؤكل كلّ الأرض لأني حينئذ أحوّل الشعوب إلى شفة نقية ليدعوا كلّهم باسم الرّبّ ليعبدوه بكتف واحدة من عبر أنها كوش المتضرعون إلي متبددي يقدمون تقدمتي. ويصفُ الشّرفيُّ هذه البشارة بالأهميّة، وتكمن أهميتها في الفرق بين الترجمة المتداولة آنيًّا، وترجمة الطبري،انظر: «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى» ص 499.

نبوّةُ زكرياء النبيّ على النبيّ صلّى الله عليهما وسلّم مؤكّدة لنبوة صفنيا عليه السلام[268]

إنّه يكون الربُّ الإلهُ يومئذٍ ملك الأرضِ كلّها ويكون يومئذ ربًّا واحدًا[269].

وقد صدقت النبوّةُ، وصحّ الوحيُ، وصار الدّينُ واحدًا، والربُّ واحدًا، لا تثنية فيه ولا تثليث، ولا تكثير ولا تعطيل، واسمه واحدٌ، لا تلبيس فيه ولا إشراك.

وقال زكريا عليه السلام أيضًا: «يكون في ذلك اليوم حتى على لجام الفرس قدسُ الربِّ»[270].

ومعنى قُدسُ الربِّ ها هنا اسم الرب، واسم نبيه عليه السلام. وذلك موجود يومنا هذا على كلِّ ملبسٍ ومنزلٍ وسلاحٍ وغيرِ ذلك، وهو اليومُ الذي وصفه الله عزّ وجلّ[271].

268: كمثل فعل الطبري، يربط مُقدّم سفر زكريا بين نصوصه ونصوص صفنيا، خاصة تلك التي تصف المجيء المشيحي، وفي جملتها: 3/2، 3/11-13. [راجع: الكتاب المقدس / العهد القديم ص 2009 ط دار المشرق بيروت].

269: سفر زكريا 9/14.

270: سفر زكريا 20/14.

271: لا خلاف بين المسلم والنصراني حول ميسانية النص ورمزيته، لكن يبقى لكلٍّ منهم رؤيته، فالطبري يُنزّل ما ورد فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، والنصراني ينزّله على الزمن المشيحي والجماعة الجديدة التي ستشترك في العالم المُقدّس، وخاصة في أرض إسرائيل. راجع: متّى المسكين «النبوة والأنبياء» ص 335، والكتاب المقدس / العهد القديم ص 2025 ط دار المشرق.

نبوة أرميا النبيّ على النبي صلّى الله عليهما وسلّم

وهي شبيهه بنبوّات أشعيا وغيره عليهم السلام، خاطب الله بها النبيّ عليه السلام، قال في الفصل الأول: من قبل أن أصورك في الرّحم عرفتُك، ومن قبل أن تخرج من البطن قدّستُك وجعلتك نبيًّا للأمم؛ لأنك بكل ما آمرُك تصدعُ، وإلى كل من أرُسلُك تتوجّه، فأنا معك لخلاصك، يقول الرب.

وأفرغت كلامي في فمك إفراغًا فتأمّل وانظر، فقد سلّطتك اليوم على الأمم والمملكات لتنسف وتهدم وتتبر وتسحق وتبني وتغرس من رأيت[272].

فقد شفع أرميا عليه السلام نبوات أصحابه بالتأكيد والتأييد، ووصف من أجرى كلمة الله على فمه ومن سلطه الله على انتساف أممٍ وإبادة أممٍ وسحق أمم.

فاكتفوا بذلك علمًا، واتخذوه برهانًا يُسلم لكم دينكم ويجعلكم من عباده الفائزين.

فلن يجد الراغب الراهب سبيلاً إلى أن ينسب هذه النبوة إلى نصراني ولا يهودي ولا غيرهما.

-وقال في الفصل الرابع: إني مُهيجٌ عليكم يا بني إسرائيل من البُعد أمةً

272: أرميا 1/4-10.

عزيزة، أمة قديمة، أمةً لا يفهم لسانها وكلهم محربٌ جبّارٌ[273].

فهذه هي الأمة العزيزة، التي لم تعرف بنو إسرائيل لسانها ولغتها وكلهم محرب جبّار، وهم أصحاب اللغة الجديدة، التي ذكرها الله على لسان صفنيا النبي عليه السلام.

-وقال في الفصل التاسع عشر: إني جاعل بعد تلك الأيام شريعتي في أفواههم، وأكتبها على قلوبهم، فأكون لهم إلهًا ويكونون لي شعبًا، ولا يحتاج الرجل إلى أن يعلّم أخاه وقريبه الدّين والملة، ولا إلى أن يقول له اعرف الرب؛ لأن جميعهم يعرفونه صغارهم وكبارهم، وأنا أغفر لذلك ذنوبهم، ولا أذكرهم بعدها بخطاياهم[274].

وقد صدق وعد الله، وازدرع حبُّه في قلوب هذه الأمة، صغارِها وكبارِها، وأنطق ألسنتهم بشرائعه وتحاميده، وكلّ عارفٍ بالله مؤمن به، فتيانهم وفتياتهم عبيدهم وأرقّاءهم، فلا ترى زراعًا ولا ملاّحًا ولا سائسًا ولا كنّاسًا، ولا صغيرا ولا كبيرًا، إلا وهو يقرأ شيئًا من القرآن ظاهرًا، ويُحْسِنُ يصلّي صلاته وحده، ويوحّد الله ويكبّره تكبيرًا، ولذلك سماهم الله شعبه وارتضاهم لنفسه. فلن تجب هذه المعاني لأحد سواهم، والله ذو فضل على العالمين.

-وقال في الفصل الحادي والثلاثين: يقولُ الربُّ إني كاسرٌ قوس عيلم، رأس عزّهم وجبروتهم، وأغري بعَيْلَم أربعة أرواح من أربع جهات السماء، وأبدّدُ أهلها في تلك الجهات كلها، حتى لا تبقى أمة إلا وفيها نفرٌ من شذاب عليم وشذارهم، وأفض عيلم قدّام أعدائهم فضاً وأفلُّهم أمام من يريد أنفسهم

273: أرميا 15/5، 16.

274: أرميا 31/33-35.

فلاً، وأنزلُ عليهم البلاءَ والرجز الأليم، وأرسل عليهم السيف حتى أفنيهم، وأنصب كرسي بعَيْلَم وأبيد مَن هناك مِن الملوك والسلاطين، هذا قول الرب[275].

وعَيْلَم هي: الأهواز وما والاها[276]، وإنما ذكرها الأنبياء وهم بالشّام؛ لأن ملوك فارس لمّا انتقلت عن فارس بَنَتْ بالأهواز واستوطنتها، ثم انتقلوا بعد دهرٍ طويل إلى السواد.

فذكر النبي عليه السلام عَيْلَم لأن اسمها جامع لمملكة كلها، ولم ينزل بها قطّ من الذل الشامل والاستئصال ما نزل في هذه الدولة، فإن ذكر ذاكر الإسكندر وغلبته، وتُبّعًا ومسيره، فإن الذي يحل ذلك عنه ويفسخه ويزيل الشك عنه قول الله تبارك اسمهُ:إني أنصب كرسيَّ بعَيْلَم، أي في إقليم بابل، ولم يكن الإسكندر والتبابعه منسوبين إلى الإيمان بالله.

ولهذه النبوّة سرٌ آخر عجيبٌ، وذلك أن الله عز وجل ذكر فيها هذه الدولة العباسية واستيطان الخلفاء من وُلد العباس أرض العراق في قوله: وأنصب كرسي بعيلم فضيلة لهم لا يجهلها إلا مضعوف.

فأمّا بنو أمية فإنما مسكنهم بالشام. فإن سأل سائلٌ عن الكرسي قلنا: هو سلطان الله ونبوته المعمورة بأرض عيلم والعراق، وغيرهما من الكور والسواحل والجزائر والآفاق، وما فيها من المساجد والرباطات، وما عند أهلها من التكبير والتحميد في كلِّ حينٍ وآنٍ من آناء الليل والنهار.

275: أرميا 49/35-38.

276: عيلام: اسم عبري من أصل أكادي معناه: (مرتفعات) وهي بلاد فيما وراء دجلة، وإلى الشرق من مملكة بابل. وقد سميت بعيلام نسبة إلى عيلام بن سام ونسله العيلاميون. راجع: قاموس الكتاب المقدّس ص 651.

وإنما ذكر عيلم لأن الملوك حينئذ كانوا منسوبين إليها، كما نُسِبَ أهل هذا الإقليم أيام العجم إلى الفرس، واليوم إلى العرب لغلبة العرب عليهم.

ومصداق قولي: إن معنى الكرسي السلطان، قول داود النبي عليه السلام: كرسيك يا الله إلى أبد الآبدين. إي: سلطانك وعزّك.

-وقال أيضًا في الفصل الثاني والثلاثين مخاطبًا للنبي صلّى الله عليه وسلّم:»أعدّوا لي آلات الحرب فإني أُبدِّد بك الشعوب، وأبدّد بك الخيل وفرسانها، وأبدّد بك المراكب وركبانها، وأبدد بك أبكار الرجال والنساء، وأبدد بك الراعي وقطيعه، وأبدد بك الأكار وفدّانه، وأبدد بك الطغاة والولاة، وأجازي بابل وجميع سكان بلاد الكلدانيين، بجميع أوزارهم التي ارتكبوها، هذا قول الرب[277].

وقد أردف الله تلك النبوة المتقدّمة، التي هي نظيرة هذه ونظيمتها بها.

فقد أنزل على بلاد الكلدانيين وإقليم بابل ما أوعدهم، وبدّد شملهم، وذلّل عِزهم، وأبطل عباداتهم، وانتقم منهم أيّما انتقامٍ واصطلمهم أيّما اصطلام.

ويقال: إن ملوك بابل كانوا ينتسبون دهرًا طويلاً إلى كلواذي، التي بقرب مدينة السلام.

277: أرميا 51/20-24.

نبوة حزقيال النبي على النبي عليهما السلام

قال في الفصل التّاسع: إن أمك مغروسة على الماء بدمك، فهي كالكرمة التي أخرجت ثمارها وأغصانها من مياه كثيرة، وتفرّعت منها أغصان كالعصيّ، قوية مشرفةٌ على أغصان الأكابر والسادات، وارتفعت وبسقت أفنانهن على غيرهن،وحسنت أقدارهن بارتفاعهن والتفاف سعفهن، فلم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة، ورُمي بها على الأرض، وأحرقت السمائم ثمارها، وتفرّق قواها، ويبس عصي عزّها، وأتت عليها النار فأكلتها، فعند ذلك غُرِس غرسٌ في البدو، وفي الأرض المهملة المعطلة العطشى. وخرجت من أغصانه الفاضلة نارٌ أكلت ثمار تلك، حتى لم يوجد فيها عصا قوية بعدها ولا قضيب ينهض بأمر السلطان(278).

فمن شكّ أو شغب في النّبوة المتقدّمة، فحمته هذه وأقنعته، فقد أنبأنا الله تبارك اسمه، أنه مستأصل شأفة اليهود، ومبيرٌ خضراءهم، ومزيل عزّهم وجمالهم، الذي شبّهه بالكرمة والعصى وبالقضبان.

وأتبع ذلك قولاً باهرًا بيّنًا، فأخبر تبارك وتعالى: أنه يغرس في البادية والأرض المهملة العطشى غرسًا جديدًا، وتخرج أغصانه نارًا، تحرق تلك الأخرى، حتى لا يوجد فيها عصى قوية، وقضيب ينهض بالسلطان والسياسة.

278: حزقيال 19/10-14.

وإنما يعني بالعصى والقضيب: السلطان، وقد بطل سلطان اليهود وعزها من أصل المعمورة، وقامت عصيٌّ قوية، بل عصيٌّ وقضبان عزيزة، تنهض بسلطان عزيز وسياسة مؤيّدة مهذّبة، وتمت بذلك تلك النبوة.

-وقال حزقيال عليه السلام في بناء البيت في آخر كتابه:

إنه أراه الله بيتًا، تولّى ملكٌ من الملائكة تخطيطه وتحديده، ووصف أركانه وصُحُونه وأفنيته وأبوابه، وأمره الملكُ أن يحفظ ذلك ويتدبره[279].

ولكنّه لما طالت صفته وجدت القوم قد ثبّجوها، ولبّسوها إمَّا تعمدًا وإمَّا تناسيًا، فأضربت عن ذكرها واكتفيت بالكثير الشهير من النبوات ومن الشواهد، على أن صفة ذلك البيت الذي خطه الله وصوره لحزقيال النبي عليه السلام، هو مكّة؛ لأنها خلاف بيت المقدس، الذي بُني بعد الرجعة من سبي بابل، فإن أنكر ذلك منكر، فليوجدنا صفة ذلك البيت الذي بنُي ببيت المقدس لنصدقه، وإلا فليصدق بما أنبأناه به وبيناه له.

فإن دفع ما قلنا دافعٌ، وماری ممارٍ، وزعم أن اسم النبي الذي أخرجته من هذه النبوات ليس يلحقه النداء بالسريانية، فإن السرياني إذا نادى لا يُدخل نداءه الياء، كما تدخله العرب، فقد قال في التوراة: إنه نادى في الفردوس آدم فقال: أين أنت آدم[280]. يريد يا آدم.

وخاطب شمعون الصفا اليهود فقال: اسمعوا كلامي رجال بني إسرائيل[281]. أي يا رجال بني إسرائيل.

279: هنا لا يقتبس الطبري نصًا بعينه، والغالب على الظّن أنه يشير إلى الفصول: 40-48.

280: تكوين 3/9-10.

281: أعمال الرسل 2/22.

وقيل في كتاب فراكسيس: إن المسيح قال لفولس: شأول شأول لما أقبلت قبلي[282]؟ أراد يا شأول يا شأول.

ونادى الملك هاجر، وقال: هاجر أمة سارة من أين أقبلتِ؟ يريد: يا هاجر.

وقال أشعيا: زرع إبراهيم خليلي الذي قويتك. يريد يا زرع إبراهيم.

وقال أشعيا: احمدي العاقر التي لم تلد. يريد أيتها العاقر.

وقال أيضًا: الزرع العائق والولد المفسد رفضتم الرب وأسخطتم قدوس إسرائيل. يريد أيها الزرع العائق وأيها الولد المفسد؛ فهذه شواهد كلها كافية على أن النداء بالسريانية لا يكون في أوله ياءٌ كما في العربية.

وأمّا ما يكون المماري المعاند منهم أن «مشبحًا» ليس هو محمد، بل ممجد ومسيح، فإنه لا يقال للإنسان إنك مسبّح أو سبحانك، وإنما يقال ذلك لله عز وجل، وقد قال كما بيّنت في عدة نبوات يا محمد.

ويقال لمن أنكر ذلك وأراد تلبيسه قل بالسريانية الحمد لله. فإنه لا يترجمه ويعبّره إلا بقوله «شوبحا لالاها»، فإذا كان شوبحًا الحمد فمشبحًا هو محمد[283].

وقال داود النبي عليه السلام: كرسيك الله دهر الداهرين. يريد كرسيك يا الله.

وإن مَحَكَ وصمّم وزعم إن مشبحا هو ممجد وليس بمحمد. فليخبرنا من

282: أعمال الرسل 4/9.

283: وقارن مادة «سبح» في «الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية» مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق؛ المجلد الرابع والعشرين، ربيع الأول 1368 - العدد 1 مار أغناطيوس افرام، ص 9.

هذا الممجد الذي قال الله على لسان حبقوق: إنه انكشف السماء من بهاء الممجد، والذي يُسيّر المنايا أمامه، ويصحب سباع الطير عساكره، والذي ارتوت السهام بأمره، وسارت العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه، والذي دوّخ الأمم، وظهر لخلاص شعبه، وللطلب بتراث أبائه؟

والذي قال داود: إنه يُصلّى عليه في كل وقت ويبارك عليه في كل يوم؟

وهو قول الأمم: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد.

والذي قال فيه أشعيا النبي:إني جعلتك شاهدًا للأمم وسلطانًا ومدبّرًا للشعوب.

وهو قول الأمم: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أو من الممجد الذي يقول الله على لسان أشعيا: إني جعلت لك اسمًا محمدًا. فانظر من مساكنك يا قدوس ويا محمد؟

فإن كان عني به الممجد فمن هذا الممجد غير محمّدٍ ؟ وفي هذا تنبيهٌ وتصريحٌ وتقويمٌ لمن أراد الله سعادته وتقويمه.

نبوة دانيال النبي على النبي عليهما السلام

مؤكدة التي تقدّمت من نبوات حزقيال وغيره، وتحقيق قولنا إن النبي صلّى الله عليه وسلّم هو خاتم الأنبياء، وأن غلبته كانت من عند الله، وأنه صاحب الدولة المؤيدة، التي لا دولة بعدها ولا أمة مثل أمته، وأن جميع ما قدّمنا في نبوّات الأنبياء هو فيه وله، لا في غيره.

ما نجد في نبوة دانيال النبيّ عليه السلام، في الفصل الأول من كتابه؛ فإنه قال لبخت نصر[284] حين سأله عن تعبير رؤيا كان رآها عن غيره أن يقصها عليه، فقال دانيال: بروح القدس نعم رأيت أيها الملك صنمًا عظيمًا بارع الجمال جدًّا وهو قائم بين يديك، رأسه من الذهب الإبريز الخالص، وساعداه من الفضة، وبطنه وفخذاه من النحاس، وساقاه حديد، وبعض رجليه حديد وبعضها خزف، ورأيت حجرًا انقطع من غير قاطع، وصكّ رجْلي ذلك الصنم، ودقّها دقًّا شديدًا، فتفتت الصنم كلّه حديده ونحاسه وفضته

284: نلاحظ وجود اختلافات في تهجئة الاسم ومدلوله، حيث يرد في العهد القديم بهيئة نبوخذ ناصر، ونبوخذ راصر، وينفرد سفر دانيال في الإشارة إلى الاسم بصيغة نبوخذ نصر [...] وتشير غالبية المصادر العربية إلى الاسم بصيغة (بُخُتَنُصّر) ولقد أعطيت لهذه الصيغة تفسير غريب، معناها: ابن الصنم، ومفادها أن (بوخت) ابن و(نصر) صنم، وكان وجد عند الصنم ولم يعرف له أب، فقيل ابن الصنم، ويقدم لنا البيروني تهجئتين للاسم، الأولى بالفارسية بخت نرس والثانية بالعبرية يؤخذ نصار؛ ويشير الطبري (ابن جرير) إلى أن العامة كانت تعرفه ببختنصر. ويرد الاسم في النصوص المسمارية بهذه التهجئة (نبوكود ري أوصّر) ومدلوله المرجح (نابو يحمي الابن البكر/الوريث الشرعي)، انظر حياة إبراهيم محمد «نبوخذ نصر الثاني» ص ص 53-54 ط المؤسسة العامة للآثار والتراث، العراق 1982.

وذهبه، وصارت رفاتًا مثل دقاق الجِلّ في البيادر، وعصفت به الرياح فلم ير له أثر، وصار ذلك الحجر، الذي صكّ ذلك الصنم جبلاً عاليًا، امتلأت منه الأرض كلها، فهذه رؤياك أيها الملك.

وأنت الرأس الذي رأيته من الذهب، وتقوم بعدك مملكة أخرى دونك، والمملكة الثالثة، التي تشبه النحاس تتسلّط على الأرض كلها، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد، وكما أن الحديد يدّق كل شيء كذلك هي تسحقُ الكلّ.

فأمّا الرِّجل التي كان بعضها من حديد وبعضها من خزف، فإن بعض المملكة يكون عزيزًا وبعضها ذليلاً، وتكون كلمة المملكة متشتتةً، ويقيم إله السماء في تلك الأيام ملكًا دائمًا أبدًا لا يتغير ولا يزول، ولا يذر لغيره من الأمم ملكًا ولا سلطانًا، بل يدق ويبيد المملكات كلها، ويقوم هو إلى دهر الداهرين، فهذا تعبير الحجر الذي رأيت أنه انقطع من جبل بلا قاطع، حتى دقَّ الحديد والنحاس والخزف، فإن الله الكبير أعلمك ما يكون في آخر الزمان[285].

285: نقل الطبري النصّ ليس بحرفيته،والنبوءة واردة في الطبعة العربية في كتاب دانيال، الذي يحتل في ترتيب العهد القديم الحالي رقم 27، وتقع في الإصحاح (2/ 31-45) (7/-2 28) (12/12)، وبمقارنة النصوص الواردة لدى الطبري بما هو موجود في العهد القديم حاليًا نجد توافقا كبيرًا بينهما من ناحية اللفظ والمعنى فهو هو لم يتغير، نشير بذلك إلى مصداقية العزو عند الطبري وعدم تدخله في بنية النص بزيادة أو طرحه رؤية من عنده يغلف بها النص ليقارب ما يريد الحصول عليه.

على عكس ما نلاحظه في ذلك النقل الذي يذكره كعب الأحبار منسوبًا إلى دانيال» وأما الحجر الذي قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان، فيظهره عليها، فيبعث الله نبيا أميًا من العرب، فيدوخ به الأمم والأديان، كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم، ويظهر على الأديان والأمم، كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها، فيمحّص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدي به أهل الضلالة، ويعلم به الأميين، ويقوي به الضعفة ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين» انظر: «دلائل النبوة للأصبهاني» ص 85. يظلّ إذن نص الطبري الذي ينقله لنا عن دانيال أقدم نص نعثر عليه في النصوص الإسلامية ينقل مباشرة عن دانيال، دون تصرف في عبارته، وهي ميزة يتميز بها الطبري في كثير من نقولاته.

فهذه نبوّة مبشّرة وإشارة منوّرة، لا حاجة بها إلى عبارة أكثر من عبارة دانيال النبي عليه السلام، فقد صحّح النبوات كلّها وشهد بأنها كلّها في محمد عليه السلام، لا في غيره، وأخبر بأن آخر الدول والملوك هي الدولة التي يقيمها إله السماء، وأنها تحتوي على مملكات الأرض كلها وتقوم إلى دهر الداهرين، ولا تذر لغيرها ملكًا ولا سلطانًا إلا دقّته وهشّمته، ولذلك سُمِّي محمدًا النبي صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء؛ لأنه إليه انتهت النبوات كلها كما ترون، وبه تمت البشارات المتقدمة كما تجدون وتقرأون.

فلا يوجد بعده نبوةُ نبيّ، ولا نازلُ وحيٍ، فقد أخبر أنه لا دولة ولا سلطان بعد دولته وزمانه، فأيُّ مقالٍ يبقى وضلالٌ يثبت مع هذه النبوة ؟ وما حجّة من جحدها عند الله ؟ أو هل جزاؤه عنده إلا العذاب والنار ؟ لأن الله أخبر أن إله السماء يقيم هذه المملكة الدائمة الأبدية.

وقال دانيال عليه السلام، في الفصل الرابع ما أيّد به النبوة الأولى وأكّدها قال:

رأيت في المنام كأنّ الرياح الأربع هاجت، واصطك منها البحر العظيم واعتلج اعتلاجًا شديدًا، وصعد من البحر أربعُ حيواناتٍ عِظامٍ مختلفة الصُّورِ، أولها: مثل الأسد وله أجنحةُ النِّسر، ورأيتُ جناحه قد تمرّط، فانتصب قائمًا على الأرض مثل إنسان، وجعل له قلب إنسان.

والحيوان الثاني: مثل الدّب، وهو قائمٌ ناحية، وفي فمه ثلاثة أضلاع، وسمعت قائلاً يقول له: قم فكل من اللحم واستكثر منه.

والحيوان الثالث: مثل النمر وفي جنبيه أربعة أجنحة مثل أجنحة الطير، له أربعة رؤوس، وأعطى سلطانًا.

ورأيت حيوانًا رابعًا، عظيمًا قويًّا عزيزًا جدًا، وله أسنان عظام من حديد، فهو يأكل ويدقُّ ويدوس برجله ما بقي، ورأيته مخالفًا لتلك الحيوانات الآخر،

وكانت له عشرة قرون، وكنت أفهم معنى قرونه تلك ولم تلبث أن نجم قرن صغير من بين تلك القرون، فنصل وسقط من بين يدي ذلك القرن الصغير ثلاثة من مقاديمها، فأحببت أن أعرف تأويل الحيوان الرابع، الذي كان مخالفًا لهن كلهن ما هو؟ وما هو تأويل قرونه العشرة؟ وأسنانه التي من الحديد؟ ومخالبه وبراثنه التي من النحاس؟ وما تأويل أكله ودقه ودوسه برجله ما بقي؟ وتعبير القرن الصغير الذي ارتفع منه، ونصول القرون الثلاثة وسقوطها بين يديه، وما كان لقرنه هذا من العيون.

وسمعت هذا القرن يتكلّم بفيه كلامًا جهيرًا، وكان منجم ذلك القرن الصغير ومنبته وقدره أجلّ من أقدار سائر تلك القرون، وكان ينازع القديسين الأطهار فيقاومهم، فقال لي الرب: إن تأويل الحيوان الرابع مملكة رابعة تكون في الأرض، وتكون أجلّ وأفضل من جميع المملكات، تغلب على الأرض كلها وتدوسها وتدقّها وتأكلها رغدًا.

فأمّا عبارة القرون العشرة فإنها تقوم من تلك المملكة عشرة أملاك، ويقوم من بعدهم ملك آخر أجلّ وأعظم من الأولين ويذلّ ثلاثة أملاك[286].

وهذه أيضًا مفسّرة منوّرة، لا تحتاج إلى إفصاح ولا إيضاح أكثر مما فسره دانيال النبي عليه السلام، فالحيوان الرابع الذي قال إنه كان عظيمًا رائعًا هائلاً قويًا عزيزًا هو تمثال هذه المملكة، التي قال الله إنها أعظم المملكات وأجلها، وأنها تغلب على الأرض كلها وتدوسها بأقدامها وتأكلها رغدًا، وهي آخر الدول، وهذه أيضًا تشهد بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم آخر الأنبياء وخاتمهم، وأن النبوات كلها تمّت به وتناهت عنده ولم تتجاوزه، وعلى هذا دلت النبوات المتقدمه وإليه ساقت، فسبحان من قدّر ذلك، وأنبأ به العباد على ألسنة أنبيائه قبل كونه بدهر طويل، وأوجبت به الحجّة، وقوّى به البصائر

286: دانيال 7/2-22.

النافذة ورفع الأستار الممدودة .

فهذه نبوات الأنبياء من بني إسرائيل. فأمَّا ما تنبأ به المسيح عليه السلام ومن بعده من حوارييه فإن ذاكره، فقد أشاروا إلى زمن النبي عليه السلام إشارة وأوحوا إليه إيحاء، وقال من فسّر كتاب النصارى أن الحيوان الأول هو دولة أهل بابل، كما قال دانيال، والثاني دولة أهل الماهين، والثالث دولة الفرس، والرابع إذًا دولة العرب لا شك فيه، وهي الدولة الأبدية، التي قال الله: إنها لا تزول، ولا تدع لغيرها دولة ولا سلطانًا.

وهذا تحقيق قول موسى النبي عليه السلام عن الله في إسماعيل عليه السلام: إني باركت عليه وعظمته جدًا جدًا .

فوجدت في كتب دانيال نبوة أيضًا باهرة عجيبة فإنه يقول: طوبى لمن أمَّل أن يدرك الأيام الألف والثلثمائة والخمسة وثلاثين[287].

فأعلمت فيه الفكر فوجدته يوحي إلى هذا الدين وهذه الدولة العباسية خاصة، وذلك أنه لا يخلو دانيال من أن يكون أراد بهذا العدد الأيام والشهور أو السنين، أو سرًّا من أسرار النبوة يخرجه الحساب، فإن قال قائل إنه أراد به الأيام، فإنه لم يحدث لنبي إسرائيل ولا في العالم بعد أربع سنين فرح ولا حادثة سارة، ولا بعد ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين شهرًا، فإن ذلك مائة

287: دانيال 12 / 12. وقد أشار البيروني إلى خلاف اليهود والنصارى والمسلمين حول هذا النص، لكنه ركّز في تحليله أكثر على أهل الكتاب (يهودًا ونصارى)، فكلّ واحدٍ من الفريقين معتمد في احتجاجه على تأويلات استخرجها بحساب الجمل، فاليهود منتظرون خروج المسيح المُبشر به عند تمام ألف وثلثمائة وخمسة وثلاثين سنة للإسكندر، انتظار شيء قد استيقنوه، حتى أن كثيرًا من متنبئى فرقهم كالراعي وأبي عيسى الأصفهاني وأمثالهم ادعوا أنهم رسله إليهم. انظر البيروني «الآثار الباقية» ص 15، ولم يكن وحده أبو عيسى من ادعى أنه المسيح المنتظر (الماشيح) بل سار على دربه كل من (يودغان، وداود بن سليمان الرائي (وربما هو من يشير إليه البيروني باسم الراعي) وديفيد رؤبيني، وشتباي) راجع عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية» 5 / 297، 298 ط دار الشروق، القاهرة، وانظر فصلاً خاصاً تعقده مُنى ناظم عن «المسحاء الكذبة» في «المسيح اليهودي» ص ص -198 204.

وإحدى وعشرة سنة وأشهر.

فإن قالوا عنى به السنين، فإنما ينتهي ذلك إلى هذه الدولة، لأن زمن دانيال إلى المسيح نحو خمسمائة سنة، ومصداق ذلك ما أُوحي إليه: أنه يأتي عليه وعلى قومه سبعون سابوعًا في السبي، ثم يرجعون إلى بيت المقدس ويبعث المسيح، ومن المسيح إلى سنتنا هذه ثمانمائة وسبع وستون سنة، ينتهي ذلك إلى هذه الدولة العباسية منذ ثلاثين سنة أو يزيد شيئًا.

فإن قال قائل: إنه ليس بسنين أيضًا، بل سر من أسرار النبوة يخرجه الحساب، فإني فكرت فيه، فوجدت عدد هذا الأيام مساويًا لما يجتمع من عدد حروف محمد خاتم الأنبياء مهدي ماجد، فإنه إذا جمع حروف هذه الألفاظ بحساب الجمل[288]، خرج منها ما بينّا، وهي خمسة أسماء، فإن قال قائل: قد يحتمل هذا العدد أن يخرج لغيره بمثل ما أخرجته له، فإن الذي يشهد بصحة ما قلت ويوجب هذا السر للنبي صلّى الله عليه وسلّم شهادة دانيال وغيره له بما قد بيّنت، فمن أخرجه على اسم من الأسماء عليه من شهادات الأنبياء ما على النبي عليه السّلام وافقناه فيه، ولن يمكنه ذلك أبدًا، وقد نسب قوم من النصارى هذا العدد إلى المسيح، بمثل ما حسبت فعارضتهم، وأوضحت بشهادات الأنبياء أن النبي عليه السلام أولى به.

288: يطرح البيروني تفسيرات أخرى حسب ترجمة القيمة العددية لأحرف النص، فيمكن أن تُحسب بحساب الجمل وتترجم على الصور التالية:

-نجاةُ الخلق من الكفر بمُحمد.

-بَشّر موسى بن عمران بمحمد والمسيح بأحمد.

-يُشرق برية فاران بمحمد الأمي.

وكلها تساوي (ألفًا وثلثمائة وخمسة وثلاثين)؛ لكنه «أمر لا يمكن قبوله إلا بعد قيام برهان عليه كعيان»، « فإن ادّعى [مؤوّل] أن المراد بتلك الأعداد البشارة، لاتفاق أعداد هذه مع ذاك، كان له وعليه ما للنصارى وعليهم من تلك الكلمات حذو القذة بالقذة» انظر « الآثار الباقية» ص 18، 19.

نبوة المسيح
على النبي صلى الله عليهما وسلم

قال المسيحُ عليه السلام في ذلك ما هو مقيّدٌ مُخلّدٌ[289] في كتاب يوحنا التّلميذ في الفصل الخامس عشر من إنجيله: "إن الفار قليط روح الحق، الذي يُرسله أبي باسمي يعلمكم كل شيء"[290].

289: حينما استشهد الطبري بنصوصه السابقة عن يوحنا الإنجيلي وصف النصوص بأنها «مقيدة مخلدة» وقد رجّحت أن معنى هذين اللفظين، يعني أنّ بهما ربطًا بين الآية القرآنية في سورة الصف، وجعل كلام يوحنا الإنجيلي تصديقًا لها وتأويلاً مؤكدًا يعضد القرآن الخالد؛ وإلاّ فإن النصوص التي استشهد بها، والوصف الخاص الذي تمّ تطبيقه على النبي محمد (الفارقليط) غير موجود نصًّا في الإنجيل الرابع الحالي وتم استبداله في هذه الترجمة الحالية بكلمة المعزي وروح الحق، وهو الأمر الذي إن اعتبرناه بعين الدقة، يجعل كلام الطبري في غير محله، إلا أننا لا نعدم تصديقًا لما ارتآه الطبري، ففي ترجمة الإنجيل الحديث طبعة سنة 1831م نجد الوصف المستشهد به باقيًا على حاله، كما أن الترجمة التي يثبتها لنا الطبري لا يخالف في نصّيّتها (قديمًا) جاثليق النساطرة (طيماثوس الأول) في خلافة المهدي، ونجد عمار البصري (المعاصر لابن ربن) يُثبّت اللفظة ويستخدمها أيضًا يحيى بن عدي مشيرًا بها إلى الروح القدس، مما يؤكد مصداقية الطبري في ترجماته وعدم ليّه للنص حتى يوائم ما يريد إثباته، وإزائيته للترجمات المعاصرة له، والطبعات العربية الحديثة حتى القرن 19م. راجع طبعة الإنجيل 1831م ص 141، حيث ذكرت كلمة الفارقليط مرتين و(ص 143) مرتين أيضاً؛ وقارن ما ذكره الدكتور محمد ملكاوي، من أن الوصف المذكور أوردته كل من طبعة (1821، 1823،1831، 1844)، وترجمة الخوري يوسف عون؛ إظهار الحق لرحمت الله الهندي (ص1186 ج 4) حاشية 2، ط الرئاسة العامة بالرياض سنة 1989م. وقارن: كتاب البرهان والمسائل والأجوبة،لعمّار البصري مسألة 45 ص 252 ط دار المشرق بيروت تحقيق ميشال الحايك. ومقالة يحيى بن عديّ (في إثبات صدق الإنجيل) ص 171 ضمن مباحث فلسفية انتخبها القس بولس سباط وصححها ط المطبعة السورية، القاهرة سنة 1929 م.

290: يوحنا 14 / 26.

فالفارقليط الذي أرسله الله بعد المسيح مصدّقًا لاسم المسيح عليه السّلام، هو الذي علّم النّاس كلّ شيءٍ، لم يكونوا علموه من قبل، ولم يكن في تلامذة المسيح إلى دهرنا هذا أحد علّم الناس شيئًا غير الذي كان علّمهم المسيح، فالفارقليط الذي علّم الناس ما لم يكونوا يعلمونه هو النبي صلّى الله عليه وسلّم، والقرآن هو العلم الذي سماه المسيح كل شيء.

وقال يوحنا عنه في الفصل السادس عشر: "إن الفارقليط لن يجيكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاه نفسه شيئًا لكنه يسوسكم بالحق كله ويخبركم بالحوادث والغيوب"[291].

وقال يوحنا عنه: "إني سائل أبي أن يرسل إليكم فارقليطًا آخر يكون معكم إلى الأبد"[292]. فأمّا تأويل قوله: إنه يرسله باسمي، فإنه لمّا سُمّي المسيحُ بفارقليط، وسُمِّي محمدٌ بهذا الاسم، لم ينكر من المسيح قوله: إنه يُرسله باسمي أي يكون سَميّ.

فقل ما يُوجد ذكرُ المسيح عليه السلام في باب من كتب الأنبياء عليهم السلام إلا كان ذكر النبي صلّى الله عليه وسلّم متّصلاً به، يتلوه ويشفعه لأنه جاء بعده.

291: يوحنا 8/16، 7.

292: يوحنا 14/16-16. وقارن يوحنا (26/14، 16، 26/15، 13/16، 7) في الترجمة العربية الحالية لإنجيل يوحنا لم يذكر المترجم اسم «الباراكليت» بهذا اللفظ، المعرّبة حروفه، وهذا نقص معيب وتصرف من المترجم حيث ترجم معناها من اليونانية إلى معناها بالعربية وجعلها اسم صفة «المعزي»، وبحسب الأبحاث اللغوية فإن العلماء لم يستقروا على ترجمة لهذا الاسم «الباراكليت» وقد اتفقوا جميعاً على ترك الاسم كما هو بألفاظه المنقولة عن اللفظ اليوناني «الباراكليت» وذلك بسبب تعدد معنى الكلمة اليونانية. راجع «المدخل لشرح إنجيل يوحنا» للأب متى المسكين ص 247، 248 ط وادي النطرون سنة 2000 م.

ووجدتُ للفارقليط سرًّا آخر عجيبًا وهو: أني لما أعلمت فيه من الفكر، وفلّيت عن معنى قول المسيح وجدت ما يجتمع من حروفه إذا حسبه الحاسب بالحساب الجمل(293) مساويًا لما يجتمع من حروف محمد بن عبد الله النبي الهادي.

فإن قال قائل: إنه ينقص عددًا واحدًا؛ لأن اللفظة إنما هي فارقليطا، فإن الألف زيادة في أسماء السريانيين، على أن الذي يساويه من العدد حتى لا

293: حساب الجمل (علم الجيماتريا): هو علم تفسير الكلمة العبرية وفقًا للقيمة العددية لحروفها، وقد استخدمه الحاسبون بحرية تامة، وذلك لأن مجال هذا العلم يتسع لأي قيمة عددية يريد الحاسب تحديدها، فالعهد القديم مليء بالكلمات التي يسهل اختيار المناسب منها لتتلاءم مع الرقم الذي يريده واضع الحساب، وقد استخدم هذا العلم منذ النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، ثم شاع استخدامه في العصور الوسطى، وخاصة في أسبانيا وزاد الاعتماد على تلك الوسيلة في وضع توقعات القدوم (قدوم المسيح المخلص) وخاصة على يد القُباليين (فرقة يهودية) الذين أسرفوا في الاعتماد على ذلك العلم إيمانًا منهم بقدسية الحروف العبرية ويقال: إن الأصل في الحساب الجُملي أن يُستخدم في السحر والطلاسم والتنبؤات والتماس مفاتيح الغيب وتصنيف التمائم والحروز الواقية من الشرور بأنواعها، وهذا النوع من العمليات التنجيمية كان منتشرًا عند اليهود خاصة، ثم انتقل إلى العالم الإسلامي، وقد تناوله العلماء المسلمون بالتواليف، راجع حوليات الجامعة التونسية مقال محمد اليعلاوي «حساب الجمل أو التاريخ بالحروف» ص 106 عدد 8 لسنة 1971. وقد ورد في التلمود 150 حالة من استخدام الجيماتريا راجع منى ناظم؛ المسيح اليهودي، ط الاتحاد للصحافة والنشر. أبو ظبي د ت. وقد استخدمه يوحنا في سفر الرؤيا (18/13) (من له فَهْمٌ فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان، وعدده ستمائة وستة وستون). ويروى أن اليهود استخدموا حساب الجمل في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم حينما تلا قوله تعالى « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه «فعادلوا حروف (الم) بالقيمة العددية (71) واعتبروا ذلك لأجل أمة الإسلام، راجع الفخر الرازي «مفاتيح الغيب» مج 2 ص 361-362 ط دار الغد العربي 1991م، ويعلق ابن خلدون على هذه الحادثة فيقول: (دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل، نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً، ولا من علماء اليهود لأنهم كانوا بادية بالحجاز غُفلاً عن الصنائع والعلوم؛ حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة) [ابن خلدون، المقدمة، 766/2 ط دار نهضة مصر، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي].

يزيد ولا ينقص، محمد رسول حبيب طيب.

فإن قال قائل: قد يمكن استخراج هذا الحساب بغير هذه الأسماء، لم يجب ذلك له حتى يحضرنا من شهادة من هو كالمسيح، في قوله: إن الفارقليط الذي يرسله روح الحقّ هو يعلمكم كلّ شيء، ولن يجد إلى ذلك سبيلاً.

-وقال يوحنا التلميذ في كتاب فراكسيس وهو أخبار الحواريين: لا تؤمنوا يا أحبائي بكل روح، بل ميّزوا الأرواح التي من عند الله، واعلموا أن كل روح تؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدانيًا فهو من عند الله، وكل روح لا تؤمن بأن المسيح كان جسدانيًا فليس من عند الله[294].

وقد آمن النبي صلّى الله عليه وسلّم بأن المسيح قد جاء، وأنه جسداني، وأنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

فروحه إذًا بشهادة يوحنا وغيره، روح صادقة برّة من عند الله عز وجل، وروح من زعم أنه غير جسداني ولا إنسيّ من عند غير الله.

-وقال شمعون الصفا رأس الحواريين، في كتاب فراكيس: إنه قد حان أن يبتدأ الحكم من بيت الله[295].

وتفسير ذلك أن بيت الله الذي ذكره الحواري هو مكة، وفيها كان ابتداء الحكم الجديد لا من غيرها.

فإن قال قائل: إنه عنى به حكم اليهود، فقد كان المسيح أخبرهم أنه لا

294: رسالة يوحنّا الأولى 4/1-3.

295 رسالة بطرس الأولى 4/17.

يترك في بيت المقدس حجر على حجر حتى ينسف ويبقى على الخراب إلى يوم القيامة.

فقد وضح أن الحكم الجديد، الذي ذكره الحواري هو دين الإسلام وحكمه، وذلك شبيه بقول صفنيا النبي عليه السّلام عن الله: أنه مجدد للأمم لغة مختارة، فكانت العربية اللغة الجديدة المختارة للحكم والدين الجديد. وقد قال دانيال النبي عليه السّلام في هذا المعنى ما قد بيّنّاه، ولم يكن حينئذ بيت منسوب إلى الله سوى مكة فيتعلق به المخالف، ويقول إن الحكم ابتدأ منه. وإن قال قائل: إنه أراد به دين المسيح، فكيف كان يقول لدين أو حكم قد كان ابتدأ وظهر منذ حين أنه قد حان أن يبتدأ، فهذا محال من الظن.

وقال لوقا الحواريُّ في الفصل الحادي عشر من إنجيله: إن المسيح قال لتلامذته: إني قد كنت أرسلتكم وليس معكم كيس ولا ترمال (يعني به المزود) ولا خُفٌّ، فهل ضركم ونقصكم ذلك شيئًا ؟ قالوا لا، قال: أمّا الآن فليشتر من لم يكن له كيس كيسًا، ومن لم يكن له ترمال مزودًا، ومن لم يكن له سيف فليبع ثيابه وليشتر به لنفسه سيفًا[296].

ولم تزل سنن المسيح وفرائضه التي يستنُّ بها، ويدعو إليها هي المسالمة والاستسلام والإنسلاب لا غير، فلما أمر تلامذته وأعلام دينه في آخر أمره أن يبيعوا ثيابهم ويشتروا السيوف، عرف أهل التمييز والفهم أنه إنما أشار بذلك إلى أمر آخر وحدث متجدد بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، وأشار إلى سيوفه وسهامه التي وصفها الأنبياء قبله، وقد كان شمعون الصفا انتضى سيفه وسلّه من جفنه ليلة مسكت اليهودُ المسيح، وضرب بعض الشرط فجذع

296 :لوقا 22/35-36.

أنفه، فتناولها المسيح عليه السّلام بيده وردّها إلى مركبها من رأسه، فعادت من ساعتها كما كانت، وقال لشمعون عند ذلك: اغمد سيفك، فإن من سلّ سيفًا قُتل بالسيف[297]. يعني من سلّه من أمته وأصحابه، ثم أنبأنا بالحال الآخر وأمر تلامذته ببيع ثيابهم وابتياع السيوف، ولا تبتاع السيوف إلا لتُسلّ ويُضرب بها.

وقال فولس، وهو المقدّم عند النصارى، وهو الذي يسمونه رسولاً في رسالته إلى أهل جالاطيا: إنه كان لإبراهيم ابنان، أحدهما من أَمةٍ، والآخر من حرّةٍ، وقد كان مولد ابنه الذي من الأمةِ كمولد سائر البشر، فأمّا مولد الذي من الحرّة فإنه ولد بالعدّة من الله، فهما مثالان مُشبَّهان بالفرضين والناموسين، فأمّا هاجر فإنها تشبه بجبل سينا الذي في بلاد أرابيا، الذي هو نظير أوراشلم هذه، فأمّا أوراشلم التي في السماء فهي نظير امرأته الحرة[298].

فقد ثبت فولس في قوله هذا معانٍ جمة، أولها: أن إسماعيل وهاجر قد كانا استوطنا بلاد العرب، وهي التي سمّاها بلاد أرابيا.

والثاني: أن جبل سينا الذي بالشام يستطرد ويتصل ببلاد البوادي بقوله: إن هاجر تشبه بطور سينا الذي في بلاد أرابيا. وسينا هو الذي ذكرته التوراة في صدر هذه النبوات في قولها: (إن الرب جاء من سينا، وطلع لها من ساعير، وظهر من جبل فاران).

فشهد فولس هذا، بأن الرب الذي قالت التوراة أنه من سينا هو النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي ظهر في بلاد أرابيا.

297 :راجع لوقا 50/22، 51، ومرقس 47/14.

298 : غلاطية 22/4-26.

وقد بيّنا آنفًا أن معنى الرب واقع على الأنبياء والسّادات، وأين يكون من الإبانة والإيضاح أكثر من تسمية بلاد أرابيا التي عنى بها بلاد العرب، لكنها لفظة مستعجمة غير فصيحة، فإنها جعلت مكان العرب الرب.

والثالثُ: أن بيت المقدس هو نظير مكة.

والرابع: أن هذا الناموس الثاني، والفريضة الثانية سماوية لا شكّ فيها، فقد سماها معًا باسم واحد ولم يفرّق بينهما بمعنى من المعاني. فأمّا تقديمه الحرّة، وقوله أن ابن الأمةِ لم يولد بالعدّة، فذلك منه بالعصبية والميل، وفيما استشهدت به من قوارع التوراة على إسماعيل ما فيه كفاية وبرهان على أنه أيضًا ولد ليس بعدة واحدة بل بعدات كثيرة.

فهذه نبوات متظاهرة، وأخبار مؤيّدة مخلدة على وجه الدهر، لا يدّعيها أحدٌ من غير المسلمين إلا فاز بالسهم الأخبث[299] وبالكذب الأعظم، ولن يفعل ذلك إلا يهودي دامرٌ أو نصرانيٌ هامر، يتعللان به ويخدعان أنفسهما وغيرهما بذكره.

فقد بان للنصارى خاصة ولليهود عامة استحكام غضب الله على بني إسرائيل ولعنه إيّاهم، وتبرؤه منهم ومن دينهم، وإعلامه إيّاهم أنه مُحرق أصلهم الذي تفرعوا منه، ومبير خضراءهم وغارس في البادية والأرض المعطلة العطشى غيرهم.

وما أكثر تعجّبي في هذا الباب من اليهود، فإنهم يقولون ذلك تفرُّجًا به

299: كذا بالأصل، وصوابه: الأخيب، وهو الصواب وقد التفت إلى هذا الخطأ عيسى اسكندر المعلوف في قراءته لنشرة منغانا، ونوّه عليه في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع، محرم 1343هـ، ج 8، ص382.

وتجملاً بادعائه ويمتلئون غرورًا وبطلانًا، وإنما العجب من النصارى وهم يشهدون على اليهود بما قلنا صباح مساء، بأن قد قطع الله دابرهم، ومَحَا عن جريد الأرض أثرهم، وأباد رسم ملّتهم؛ فأمَّا أمة المسيح عليه السلام فليس لها أن تدّعي تلك النبوات التي اختصرت واستشهدت بها على النبي صلّى الله عليه وسلّم، من أسرِ الملوك واستعباد السّادات وسوقهم مقرّنين بالقيود والأغلال، ومن توارث الأراضي القفار البلاقع، وضرب الرقاب، وإكثار القتل، والإثخان في الأرض، وغير ذلك من النعوت، التي لا تليق ولا تجب إلا لإسماعيل وهاجر وعترته ولمكّة وحُجّاجها.

ولقد صَرَّح عدَّة منهم باسم النبي صلّى الله عليه وسلّم ووصفوه أيضًا، وسيّافيه ورُماته، وسير المنايا وسباع الطير أمام عساكره، وازدحام الإبل والقطرات في بلاده، واصطلامه الأمم والملوك المخالفين له.

فهذه كلها محقّقه لدينه، ومفخمة لشأنه، ومصدّقة لما أدَّت دُعاته عنه، لا سيما وقد ختم دانيال تلك النبوات كلها بما نفى به الشكّ وأخبر: أن إله السماء يقيم ملكًا دائمًا لا يتبدّل ولا يزول. ومن لم يخضع لمن اختاره الله وأقامه فهو المرذول الذليل.

في الرّد على من ذكر أن المهاجرين والأنصار دخلوا في الدّين من غير آية

فإن قال قائل مثل الذي كان يحتجّ به عمٌ لي كان مشهورًا بالجدل والبراعة، معروفًا في أفقِ العراقِ وخراسان بأبي زكار يحيى بن النعمان، قال في كتاب ألّفه في الرّد على أهل الأديان: أنه بحث عن الأسباب التي دخل فيها عدّة من المهاجرين والسابقين الأولين، ومن دخل معهم في الإسلام من الرجال والنساء، فلم يجد أحدًا دخل فيه لآية رآها، أو علامة أتى بها.

فكانت هذه عندي حُجّة قويّةٌ جدًا ما زلت مغترًّا بها، عَميًا عنها، حتى إذا انسلخت من دينه، رأيت الجواب عنها سهلاً والمخرج فسيحًا، فإنا إذا عارضناهم بمثلها وجبت لنا الحُجّة، التي إن أبطلوها بطلت نبوات عدة من أنبيائهم.

فليس دخولُ جماعةٍ في دين نبيٍ من الأنبياء من غير آية رأوها مما يُبطل سائر آيات ذلك النبي، ولا امتناع النبي من إظهار آية في وقت من الأوقات مما يُوجب تكذيبه.

فهذا حزقيال النبيّ عليه السّلام يقول في الفصل العاشر: "إنه أتته جماعة من بني إسرائيل يُريدون امتحانه ويسألون عن أشياء، فكان جواب حزقيال أن قال: إن الله أعلمني وأمرني أن أعلمكم أن رب الأرباب يقول: إني أُقْسِمُ قسمًا باسمي أني أنا الحيُّ، وأني لا أجيز جوابًا عما تريدون".

فأمّا المسيح عليه السّلام فقد تبعه وآمن به جماعة كثيرة من غير أن يُظهر لهم آية، فمن ذلك قول متى الحواري في الفصل الرابع من إنجيله: أنه بينا المسيح عليه السلام يسير في ساحل بحر الجليل رأى أخوين، أحدهما شمعون الذي لقبه الصفا، الذي استرعاه أمر أمته وجعله أساس ملّته، وأخاه أندراوس، وهما يصيدان السمك في البحر فقال لهما، وأومأ إليهما اتبعاني أجعلكما بعد يومكما هذا تصيدان الناس، وأنهما رفضا من فورهما شباكهما واتبعاه[300].

وقال متّى في هذا الفصل: «إن المسيح لما جاوز ما هناك، رأى أخوين آخرين يقال لأحدهما يعقوب بن زبدي ويوحنا وهما يصيدان مع أبيهما، وأنه دعاهما إلى دينه فتركا أباهما في السفينة واتبعاه[301].

وقال متّى في هذا الفصل: أنه لما جاوز المسيح ما هناك، رأى رجلاً عشّارًا يقال له متّى، فقال له: اتبعني، فتوجّه معه (يعني به نفسه).وهو متّى الحواريُّ أحد الأربعة الذين كتبوا الإنجيل.

فهؤلاء خمسةٌ من رؤساء الحواريين الأوّلين المتقدمين، وهم من الاثني عشر حواريًا، قد ذكر الإنجيل أنهم اتبعوا المسيح من غير أن يُريهم آية أو يسمعهم كلمة مقنعة، ما عدا الدُّعاء الخالي فقط.

فليت شعري ما الذي ضرّ المسيح من ذلك؟ أو ما أنكر عمِّي أبو زكار؟ ومن قال بقوله مِن اتباع من اتّبع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من غير أن يروا منه آية.

300: متّى 4/18-20.

301:متّى 4/21-22.

فإن كان ما ذكرنا يُوجب إبطال سائر آيات المسيح عليه السّلام، فكذلك يجب إبطال آيات النبي صلّى الله عليه وسلّم لدخول من دخل في دينه من غير آية رآها منه.

ولقد أتى المسيح عليه السّلام قومٌ من اليهود يسألونه آية، فليس أنه لم يظهرها لهم؛ لكنه قذفهم قذفًا وافترى عليهم وعلى قبائلهم افتراءً، يشهد بذلك متّى صاحب الإنجيل في الفصل الثاني عشر، ويخبر أن نفرًا من اليهود أتوا المسيح يسألونه آية فقال مُجيبًا: إن القبيلة الخبيثة الفاجرة تطلب آية ولن تُعطى آية ما خلا آية يُونا النبي[302].

فأخبرهم بأنه لا يُظهر آية ألبتة؛ لأنهم من القبيلة الخبيثة (يعني بها اليهود قاطبة).

فأمّا آية يونا الذي ذكرها، فهي لبثه في بطن الحوت ثلاثًا، وليس هذه من نبوّات المسيح بل هي من آيات يونا، ويونا متقدّمٌ له في الزمان بدهر طويل.

وإنما الآية هي: ما يُظهرهُ النبيُّ لمن شاهده من الأوابد، التي لا يقدر أن يأتي بمثلها غيره، وأن يتنبأ على ما غاب عنه فيصبح في دهره.

فأمّا قول القائل: إن آيتي أن موسى فلق البحر وأن المسيح أحيا ميتًا.

فإن ذلك غير مقبول منه، لأنه برهان لغيره لا له، ومع هذا، فإنه لا يُظنُّ بالمسيح التزيّد والخلف، ولا أنه وعد شيئًا ثم رجع عنه، أو قال: إني لا أفعل أمرًا ثم فعله، لأن قوله لمن سأل الآية من بني إسرائيل إن ذلك مما لا تجابون إليه، لا يخلو من أن يكون قاله عن الله أو عن نفسه، فإن كان قاله عن الله

302: متّى 39/12. ويتكرر النصّ عند متّى في 4/16.

فقد فعل الله إذًا خلاف ما قال لهم ؛ لأنه قد أعطاهم بعد هذا القول آيات على يدي المسيح، وإن كان قاله عن نفسه، فقد فعل المسيح إذًا خلاف ما قال ونقض القول الأول، وهذا ممّا لا يليق به ولا يظنُّ بمثله.

فهذا أيضًا ممّا أحسبه تحريفًا وفسادًا في الإنجيل من قبل التراجمه والكُتّاب.

-وقال متّى في الفصل السادس عشر: «إن اليهود لما رأته يدعو الناس ويستميلهم عن اليهودية، اجتمعت إليه وقالت له: بأي سلطان تفعل ما نرى؟ ومن جعل لك هذا السلطان؟ قال لهم يسوع مُجيبًا: إني سائلكم أيضًا عن مسألةٍ إن أجبتموني عنها أجبتكم عن مسألتِكم هذه، أنبئوني عن مَعْمُودية يحيى بن زكريا من أين هي أمِنَ السماءِ أم من الأرض؟ فتوقّف القومُ عن الجواب وقالوا: لا نعلم، فقال المسيحُ: وأنا أيضًا لا أنبئكم بأيّ سلطان أفعل»[303].

فلم نَره أجاب القومَ عمّا سألوه، بل عارضَهم بمسألة أخرى فلم يكن لأحدٍ أن يطعن عليه به.

وقال متّى في الفصل السادس: "إن فيلاطوس خليفة ملك الرُّوم، قال له حين رفعته اليهود إليه: أقسم عليك بحق الله لما أعْلَمْتَني أأنت المسيح ابن الله أم لا" فلم يزده المسيح عليه السلام على أن قال له: أنت قلت ذلك"[304].

وليس في قوله هذا إثبات ولا إنكار. فلقائل أن يقول: إنه أراد به الانتفاء والسنْح عن نفسه، والتّبكيتُ لمن حكى ذلك عنه، وإلاّ فما باله لم يقل: بلى

303: متّى21/23-27.

304: متّى27/11.

إني أنا ابن الله، لما سئل عنه، أو يُظهر آية ليظهر الأمر. وخزي به اليهود وبهتوا.

هذه أيضًا مسألة لم يجب المسيح عنها، فلم يُزر ذلك بجلالة شأنه وما تقدّم من آياته.

وقيل في الإنجيل الذي هو في أيدي النصارى أن اليهود كانت تقول "إن كنت ابن الله فانزل عن الخشبة لنؤمن بك"[305].

فلم يفعل ولم يُظهر آية، فلا نقول لذلك: إنه لم يكن له قبلها آية، لأنه كان أعلم بما يُدبّر فيه وبما أحبّ الله من ذلك وقدّره له.

وأكثر من هذا ما قال متّى في الإصحاح الثاني: إن الشيطان قال للمسيح عند امتحان الشيطان إياه: إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصِرُ طعامًا »، فلم يزده على أن قال: مكتوب في كتب التّنزيل: إن حياة الناس ليست بالخبز فقط، بل بكل كلمة تخرج من فم الله"[306].

أفما ترون يهديكم الله أن المسيح عليه السّلام وغيره من الأنبياء قد سُئِلُوا عن مسائل، وطُلب منهم آيات فلم يجيبوا إليها؟ لأن الله لم يكن أذن لهم فيها، ولم يفتح لهم بابها في تلك الأوقات.

فقد سأل التلامذةُ المسيح عليه السّلام عن السّاعة فقال: "ذاك غيبٌ مستورٌ عنّي، لا يعلمه إلا الله وحدهُ"[307]. فلم يعبه ذلك ولم يُزْر به. فهكذا النبي صلّى الله عليه وسلّم.

305: متى40/27.

306: متّى 4/3-4.

307: متى36/24.

هذه جواباتٌ ومعارضات مقنعةٌ منصفةٌ، وحججٌ قاطعة لتلك العلْقةِ والمسألة، التي تعلّق بها تلامذةُ عمّي أبي زكار ومن قال بقولهم.

على أني لم أر واحدًا من علماء النصارى، في قديم الدهر وحديثه احتجّ على المسلمين بهذه الحُجّة غير عمِّي، وقد حلّها الله وفسّرها بمنِّه وكرمه، وبما استفدتُ واستمليتُ من حكمة أمير المؤمنين أيّده الله ومعارضاته ومجاوباته.

فاستعملوا -يهديكم الله- الفكر، ولا تعطّلوا الأفهام فتخرب أو تبور، واعلموا أنكم مخلوقون لخطبٍ جليلٍ، وموقوفون على شفير جنّة أو نار، فمن انهار به الباطل إلى النار فقد هوى في الخزي السرمد والندم الدائم، والعذاب الذي وصفه المسيح عليه السّلام فقال: «إنه نارٌ لا تُطفأ، وديدانٌ لا تموت»[308].

ومن رجح به الحق إلى ساحات الجنّة وغُرف الفراديس، فقد سعد، وفاز فوزًا عظيمًا، وحاز الأمن الدائم والغنم الذي لا عين رأته ولا أذن سمعته. فانصحوا أنفسكم ولا تغشّوها واصدقوها ولا تغرّوها. فقد وضح الحقُّ وبرح الخفاءُ وبان اليقينُ.

308: مرقس9/47-48.

في الرّد على من عاب الإسلام بسنةٍ من سننه أو شريعةٍ من شرائعه

فإن طعن طاعنٌ من أهل الكتاب في فريضة من فرائض الدّين، وسُنَّةٍ من سُنن المسلمين، حاف علينا وظلم، وعاب الأنبياء كلّهم، وكان بعرض خطيئة وعقاب. فإنهم إن عابوا الذّبائح فموروثة عن إبراهيم وجميع الأنبياء من ولده عليهم السلام، وإن ذمّوا الختان فللمسيح ومن قبله، وإن أنكروا أبطلوا فلموسى ومن تبعه.

وإن طعنوا في الأقسام بالله فعن الله تعالى وأنبيائه. قال أشعيا النبي عليه السّلام: إني جزمت القول، وأنبأت بالحق أنه تخرّ لي كل ركبة ويقسم كل لسان باسمي.

وقال فولس -الذي تسميه النصارى رسولاً- إن الله لما وعد إبراهيم ما وعده في ولده أقسم له بنفسه[309].

وقال دانيال: إن الملك الذي تراءى له رفع يده إلى السماء وأقسم بالمنعم الدائم أن جميع ما قال كائن لا محالة.

وإن عابوا الجهاد، فقد جاهد إبراهيم الملوك الأربعة، الذين كانوا ساروا إلى بلاد الجزيرة لشنّ الغارات على أهلها فذب عن جيرته وخلطائه، وطحطح عساكرهم بغلمانه وتلاد بيته، وفاز بفخر ذلك وفلجه، وباقي ذكره ومذخور أجره فإنه رد على ملوكها جميع ما أنفذ من الغنائم والذراري، ولم يرزأهم خرزة ولا قدرًا، بعد إن كانت ملوكها قد جلت وأسلمت البلاد.

309: رسالة بولس إلى رومية4/ 13.

وقتل يشوع بن نون أحدًا وثلاثين ملكًا من ملوك الشام، ولم يترك في مدينة من مدنها تسمى عاني ديارًا ولا نفاخ نار، من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم جزية أو إتاوة أو يقبل فدية، كما يفعل المسلمون[310].

وقال أشموئيل النبي عليه السّلام، في الفصل الثاني عشر: إن داود النبي عليه السّلام غزا بلادًا من بلدان الشام، تسمى فلشت، فلم يذر فيها رجلاً ولا امرأة إلا قتلهم، وساق الغنم والبقر والحمر والجمال، وانتسف الأموال والذخائر والأثاث، من غير أن يدعوهم إلى دين الله أو إعطاء جزية أو دخول في طاعة[311].

وذكر كتاب أشموئيل إن داود جاع يومًا فوجّه عبيده إلى رجل في طلب طعام، فلم يحمل إليه شيئًا، فسار إليه في جمعه للإيقاع بذلك الرجل وأهل قريته، فإذا هو بامرأته قد استقبلته ومعها طعام وأجبان وشراب حملته إليه، وخالفت زوجها فيه، فقبل ذلك منها وطابت نفسه وسكن غيظه وانصرف عنه. فهذا وما أشبه من الأنبياء غير منكر ولا مطعون فيه.

فأمّا النبي صلّى الله عليه وسلّم فإنه أمر بالدّعاء إلى الله الفرد الدائم القهار، بالترغيب والترهيب، ليكون الدين واحدًا والمعبود فردًا، فمن أجاب كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن لم يجب إلى ذلك وأعطى الجزية عن يدٍ صاغرًا حقن بها دمه ووجبت له الذمة بالطاعة.

وكان له في ذلك رياضةٌ للكفرة لطيفة، وتذليلٌ لنخوتهم وخيلائهم، وداعية لأهل الأنفة والحمية منهم إلى الانتقال عن لؤم الذلّ والذّمة إلى شرف العزّ والحرية، فإن أبوا ذلك أيضًا كانت الحرب من ورائهم.

وقد فعل موسى عليه السّلام ما هو أكثر من ذلك، فإنه لما أمر بالرحلة عن

310: يشوع 26/10.

311: صموئيل أول 9/27.

مصر وإخراج بني إسرائيل منها، أخبرهم بأن الله تعالى يأمرهم أن يستعير كل امرئ منهم كسوة جاره وخليطه وحليَّ نسائه وبناته، ويعلموهم بأنهم يريدون عيدًا من أعيادهم، ففعل القوم ذلك، وزينوهم بما عندهم، وأعاروهم ميسورهم ومعسورهم، وبنو إسرائيل حينئذ زهاء ستمائة ألف مقاتل، فلمّا اجتمع ذلك عندهم وحصل في أيديهم، اتخذوا الليل جملاً وساروا عن بكرة أبيهم، وفلق الله لهم البحر فعبروه وطلبهم فرعون فخافوه وغرّق الله فرعون وأثلج صدورهم منه، وأصبح أصحاب تلك العواري ونسوانهم وفتيانهم وقد صهرت من عواريهم، وأودت بذخائرهم عنقاء مغرب وعضوا على أناملهم ندمًا[312].

فما كان ذلك محرمًا ولا سحتًا، بل نفلاً وغنمًا؛ لأن الدنيا لله عز وجل، وملكها وزخارفها لمن اختصه بها من عباده كما قال الله في كتابه: «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ»[سورة آل عمران،آية: 26].

فكما أنّ مَنْ فعل ما ذكرنا من الأنبياء ليس بمأزورٍ ولا متحوب، بل على سبيل مغفرة ورضوان، فكذلك ما أمر الله به محمدًا صلّى الله عليه وسلّم من مجاهدة المشركين وشن الغارات على الكافرين. فلولا الجهاد لما قام دينٌ، ولا أمن حريمٌ، ولا سُدَّ ثغر، ولصار المسلمون نفلاً وخولاً لأعدائهم. وقل ما تلبث الناس على ملة هذه حال أهلها حتى ينتقلوا إلى ما هو أعز وأوسع منها.

ولقد كان المسيح عليه السلام نهى عن الحرب وحذر أسبابها في قوله: «من سحبك ميلاً فانسحب معه ميلين، ومن سلبك قميصك فادفع إليه رداءك أيضًا، ومن لطم خدك فحوّل إليه الخد الآخر»[313].

فلما كان ذلك من أوامر المسيح لم يُبق لأمته دينًا ولا دنيا، ووهب

312: قارن خروج 12/31-37 ،وخروج 14/21.

313: متّى 5/39-41.

لأمة أخرى ميراثهم. فهم أثاروا الحرب شرقًا وغربًا، وأرثوها تأريثًا بالحراب والسيوف في بلاد الروم وفرنجة والتوران أهل الخيم وأرمينية، ومن منهم في بلاد الترك ما خلا من كان منهم منتشرًا بين الأمم قليلًا ذليلاً مثل النسطورية. ومن بين ظهراني العرب من اليعقوبية والملكية.

ثم رأينا أن المسيح عليه السلام قد رخّص في اتخاذ السيوف ونسخ به الأمر الأول، وذلك في قوله لتلامذته: «ليبع كل امرؤ منكم ثوبه وليشتر لنفسه سيفًا»[314]. وقوله: "لا تظنوا أني جئت لأزرع سلمًا بل حربًا"[315]. فمن عاب أهل الإسلام بما قد استحسنه واستنّ به من ذكرنا من الأنبياء فقد ظلم.

فإن أنكر منكر قول النبي صلّى الله عليه وسلّم أن في الآخرة أكلاً وشربًا، فقد ذكر المسيح عليه السلام لتلامذته، مثل ذلك حين شرب معهم وقال لهم: إني لست شاربًا من ابنة هذه الكرمة حتى أشربها معكم تارة أخرى في ملكوت السماوات[316].

فأخبر أن في الملكوت شرابًا وشُربًا، وحيث يكون فيه الشرب لا يستنكر فيه المأكل واللذات.

وقال لوقا في انجيله عن المسيح عليه السلام أنه قال :ستأكلون وتشربون على مائدة أبي[317]. وقال يوحنا على المسيح عليه السلام: إن ما الغرف والمساكن عند أبي[318].

فهذه كلها تصحّح الأكل والشرب في الآخرة والغرف والنعيم.كما قال الله عز وجل في كتابه «وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ»[سورة التوبة، آية :21].

314: لوقا 36/22.

315 متّى 24/10.

316: متى 29/26.

317:لوقا 30/22.

318: يوحنا 2/14.

في الرّد على من أنكر مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم موسى والمسيح عليهما السلام في تغيير سنن التوارة والإنجيل

وإن ذكر ذاكرٌ منهم من المتعمّقين في العلم، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم آمن بالتّوراة والإنجيل قولاً وخالفهما فعلاً، فكان في تثبيته إيَّاهما مرة وتكذيبه بما فيها أخرى دليل على التناقض.

قلنا: إن الله تبارك وتعالى حكيمٌ عليمٌ رحمان رحيم، الخلق له والمرشدُ منه والحول والقوة به، وليس للعباد الاعتراض عليه فيما يأمر به والدخول في سابق علمه وخفي تدبيره، بل الانقياد والسمع، فقد قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام: إن الله يقيم نبيًا من بين إخوتكم مثلي فاسمعوا له، فإن من لم يسمع له كنت أنا المنتقم منه.

فقد ظهر النبي عليه السلام من بين إخوة اليهود، واستنّ بسنن الله، وصدّق بموسى وقال: إنه كليم الله، وبعيسى وقال: إنه روح الله وكلمته اصطفاه الله وشرّفه ورفعه إلى السماء فهو عنده.

ولم يخالف موسى في التّوحيد ولم يحمحم ولم يهمهم، كما فعلت النصارى، بل باح به وصرّح، وأخلص الإيمان وجرّد القول، ووافقه سائر

الأنبياء في القبلة والزواج والطلاق والختان ومحاربة الكفرة والذبّ عن البيضة والقصاص، وأكثر الذبائح لله تعالى وحده، وجدّد لأمته سننًا وفرائض توافق أمر الله فعلى العباد السمع والطاعة لله فيه.

ولو كان للنّاس مساغٌ إلى المثالب والاغتماز في مثل ذلك من أمور الله وتدبيره، لكان للقائل أن يقول مما جاء به المسيح أيضًا أنه صدّق بالتوراة مرّة، وقال لم أجيء لأنقضها بل لأتمّها، وقال أيضًا: حقًّا أقول: إنه لا يبطل حرف منها حتى تبطل السماء والأرض، ثم خالف موسى صراحًا، ونبذ التوراة جانبًا، حتى وجد علماء أمته سبيلاً إلى أن قالوا مُصرّحين جاهرين، أن العتيقة قد غبرت وسلفت وجاءت الحديثة وظهرت، يعنون بالعتيقة التوراة ونواميسها وسائر كتب الأنبياء، وبالحديثة الإنجيل وكتب الحواريين.

وأما عماد التوراة وملاك اليهودية وسننها وختانها وذبائحها وأعيادها وقصاصها وأحكامها وكهنتها ومذابحها فقد أهدر المسيح عليه السلام ذلك كلّه، وأزهقه فلم يدع لهم عيدًا إلا أبطله، ولا سَبْتًا إلاّ حلّه، ولا ختانًا إلا دمث في رفضه، ولا ذبيحة إلا نهى عنها، ولا مذبحًا إلا عطّله، ولا كاهنًا إلا فجّره وفسّقه.

قال متّى في الفصل الثالث عشر: "إن المسيح عليه السلام كان يسير بين الزروع في يوم سبت، فجاع تلامذته، فجعلوا يفركون السنبل ويأكلونه، فلم يُغير ذلك ولم ينكره.

وقال متّى في هذا الفصل: إن المسيح قال يومًا لمن حضره من بني إسرائيل: سمعتم التوراة تقول أن من طلّق امرأته فليكتب لها كتاب الطلاق، أمّا أنا فأقول لكم إنّ من طلق امرأته إلاّ بسبب الزّنا قد عرضها للزنا، وإن من

تزوج مطلقة فإنه قد فجر[319].

وللقائل أن يقول منكرًا لهذا القول: فما يصنع بمن سحرت أو كفرت أو سمّتْ أباها أو قتلت ولدها أو جاءتها، أيُطلّقها بتلك الخصال؟ فكيف؟ ولم يمكن ذلك؟ وإنما أوجب الطلاق على الزنا فقط.

وقال في هذا الفصل: قد سمعتم ما قيل في التنزيل، إن السِّنّ بالسِّنِّ والعين بالعين، فأمّا أنا فإني أقول لكم: إن من ضربك على خدّك فولِّه الخدّ الآخر،ومن سألك شيئًا فلا تمنعه[320]. وقال فولس وهو المقدَّمُ المُطاع عندهم: إنه ليس الختان بشيء ولا الغرلة بشيء.

فأبطل بذلك الختان صراحًا. فهذه وغيرها من المسيح صلّى الله عليه وسلّم غير مُنكر ولا مردودٍ، وكذلك ما جدّد النبي صلّى الله عليه وسلّم من السُّنن أو زاد أو نقص من سنن التوراة والإنجيل غير مُستنكرٍ ولا مذمومٍ.

319 :متّى 5/31-32.

320 : متّى 5/38-42.

في الرّد على من زعم أنّ القيامة لم يذكرها أحد غير المسيح عليه السلام

وقد قالت النصارى: إنه لم يُعرِّف القيامة ولم يُبشِّر بالبعثة والنشور غير المسيح، وقد -لعمري- بشَّر بها وصرّح بالقول فيها وشرّفه الله تشريفًا يفوق السّبقة، غير أن الأنبياء قبله قد كانوا يعرّفونها ويذكرونها، قال موسى النبي عن الله تعالى: أنا وحدي وليس سواي إلهٌ، أنا أُميت وأنا أُحيي.

وهذا داود النبي يقول في الزّبور: إنّ الجبابرة يبعثون وينشرون ويمجّدون لك يارب، ويخبرون أن في القبور نعمتك. وقال الله تبارك وتعالى على لسانه: إني ناشرهم وباعثهم من بين أسنان السباع، ومن لجج البحر.

وقد قال دانيال النبي عليه السلام: إنه سيُبعث من الأجداث قومٌ كثيرٌ بعضهم إلى الحياة الدائمة وبعضهم إلى البوار لتوبيخ نُظرائهم إلى الأبد.

وقالت حنّة النبية عليها السلام في كتاب أشموئيل النبي عليه السلام: إن الربّ يميت ويحيي ويُنْزِل إلى القبر ويُنْشر منه.

وقال الله عز وجل لدانيال عليه السلام: اذهب واضطجع للأمر المحتوم، فإنك ستقوم في الوقت الموقَّت لك في آخر الدَّهر.

وقد علمتم يهديكم الله، أن إجماعنا وإجماعكم على أن الله عدلٌ يحبُّ العدل وأهله ويأمر به، ينهي عن الحيف والجور، ومن العدل والنصفة أن

ترجعوا إلى الأسباب التي بها قبلتم دينكم وتنظروا ما هي، فإذا صح عندكم أنها ليست إلا أخبارًا ممكنة غير ممتنعة، ومحمودة غير مذمومة، أدَّاها إليكم خلف عن سلف، وآخر عن أول، فبمثل تلك الأخبار قال لنا النبي عليه السلام.

على أن من أدَّى تلك الأخبار إليكم لم يكن فيهم أحد ادّعى أنه أخذها عن من شاهد المسيح أو موسى عليهما السلام من آبائه وأجداده، كما تدّعي العرب عن آبائها وأجدادها الذين شاهدوا النبي عليه السلام، فإن الرجل منهم يحدث عن جده أو جد جده أو بعض أهله بما رأى وأدّاه إلى أعقابه.

فأمَّا أخباركم فإنها أدّاها إليكم عراقي عن جزري عن شامي، وشامي عن عبراني، وفارسي عن رومي، ومشرقي عن مغربي، بأسباب مظلمة متفاوتة. فبماذا تحتجّون وتعيبون على من قال: إنما قبلت هذا الدين وآمنت به بمثل الدلائل والشواهد التي قبلتم بها دينكم، أو قال: إني لما رأيت أمة من الأمم، عظيمة الشأن، جليلة الخطب، في كثرتها وعزها وطهارتها وفطنها وعفتها، يخبرونا عن آبائهم وأجدادهم بما ذكرنا، ويأتون بكتاب يتوارثونه قرنًا فقرنًا، يدعو إلى توحيد الله وتكبيره والإيمان برسله وأنبيائه، والتكذيب بالشركاء والأنداد، ويأمر بمحاسن الأمور ومعاليها، وبما يوافق سنن الأنبياء ومواريث عهودها، وينهي عن الشر وأهله وأصله، ويخبرنا بأحداث قد صحت في زمان بعد زمان وحقبة بعد حقبة. ثم وجدنا كتب من تؤمنون به من الأنبياء تشهد له، وتتنبأ على دولته ودينه بما قد بيناه، فدخلت فيه وأمّلت ما عند الله به.

فإن زعمتم: أن من كان هذا نعته ونبوته وفضله ودلائله لا يجب قبوله، بطل جميع ما تدعون، وصرتم إلى الكفر بكل ما به تؤمنون.

فإن اعتللتم بالثّنوية والوثنية ونظرائهم، وما ينقلون عن أئمتهم ويخبرون عن دعاتهم وغواتهم، وما يوجد في زبرهم وأسفارهم من تحقيق أخبارهم، فقد تقدّم من قولنا في ذلك في صدر الكتاب، ما لا يتصامُّ عنه إلا من كان همه المحاجزة والشغب، ودينه المعاندة والإصرار.

لأن أولئك قد ناقضوا ودعوا إلى النجاسات والضلالات، فضلّوا وأشركوا بالله فهلكوا. ولا يقاس أمثالهم بمن كان إمامه الحق، ومنهجه الرشد وشعاره التألّه والزهد، ودعوته إلى إله واحد فرد، إله إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، ومن تنبأ الأنبياءُ عليه بما قد وضح.

فذروا التظنّي والاعتلال يا بني عمي، تلاقاكم الله، واسلكوا أسلم الطرق وأهداها، وجانبوا أضلّها وأرداها، فإنكم إذا تدبّرتم ذلك، صحّ لكم أن السباب والعلل التي بها قبلنا نحن نبوة النبي عليه السلام، هي أسبابكم وعللكم التي بها قبلتم المسيح وموسى عليهما السلام، فإن كنا نحن في ذلك مخطئين، ولعقوبة الله معترضين، فكذلك أنتم أيضًا.

فناظروا أنفسكم، وحاكمونا إلى عقولكم وأذهانكم، واحتجّوا لنا ولكم، وعلينا وعلى أنفسكم، لينكشف عنكم الغطاء، وترون عين اليقين بتوفيق الله.

وإن عاب النبي صلّى الله عليه وسلّم عائب فقال: إنه صلّى الله عليه وسلّم نسب الشر إلى الله، فقد قال في عدل الله ورحمته وطوله ما قد ذكرته في صدر هذا الكتاب، وقال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام:

إني جاعل قلب فرعون قاسيًا لئلا يخرجكم من أرض مصر. وقال أشعيا النبي عليه السلام: إن الله خلق السلامة وبرأ الخير والشر جميعًا.

وقال فولس المقدّمُ المُطاعُ عندكم في رسالته إلى طيماتاوس: إن البيت العظيم ليس يكون فيه أواني الفضّة والذهب فقط، بل يكون فيه أواني الخشب والفخار أيضًا منها الكرامة ومنها الهوان. يعني الدّنيا ومن فيها من سعيد وشقي.

وأنا أسألكم يرشدكم الله في خاتمة كتابي هذا عن مسألة جامعة قاطعة مقنعة، ما تقولون في وارد لو ورد هذا الإقليم من أفق الهند والصين، يرتاد رشدًا ويسأل عن الأديان التي فيه، يستخبر عن مِلَلِ أهله، فقيل له: إن منهم أهل ملّة يُسمّون المجوس، يعبدون الكواكب والنيران، ويزعمون أن الله خالق الخيرات والنّور، والشيطان خالق الظلمات والشرّ، وأن الحرب غير راكدة بينهما لا يستريحان ولا يسكنان، على أنهما لا يبلغان ما يريدان فهما عاجزان مبهوتان، وأن محبة الله ورضاه، في نكاح الأمهات والبنات، والتطهّر بأبوال البقر المنتنة، والاعتكاف على المجون والزفن، وأن أرواح موتاهم ترجع إليهم في كل سنة مرة، فهي ترزأ مما يوضع لها من مطعم ومشرب، وتزود منه عند انصرافها، وهنات من نحو ما ذكرنا في صدر الكتاب مجهولة، وسير مستقذرة، ونقمات من الله فيهم ظاهرة، ونبوّات قد نطقت بها كتب الأنبياء فيهم قديمة بيّنتُها آنفًا.

وأن منهم قومًا يقال لهم: الزّنادقة دينهم يضاهي دين هؤلاء، ويتقدمه ضلالة وجهالة، وقذرًا ونجاسة وخسارًا.

ومنهم أهل ملة يسمون النصارى، منهم طائفة تزعم: أن الله لما رأى الشيطان قد علا شأنه، واستفحل أمره، وعجز الأنبياء عن مناواته، وَجَد ابنًا له أزليا قديمًا منفردًا بخلق الخلائق كلها، فدخل في بطن امرأة، ثم ولد منها

ونشأ وناهض الشيطان، فأخذه الشيطان وقتله ثم صلبه على يدي شرذمة من أحزابه.

وقالت طائفة منهم: بل المقتولُ هيكلُ هذا الابن ومسكنه؛ لأنه صار مع ذلك الإنسان شيئًا واحدًا، فأكل ذلك القديم بأكل ذلك الحديث، وتغوّط بتردّده وتغويطه وقُتل بقتله.

ومنهم أهل ملة يسمون اليهود، في أيديهم كتب قوم يسمونهم أنبياء، ويحكون عنهم أنهم قد لعنوهم، ويذكرون أن الله قد تبرأ منهم ومقت دينهم وشّرد بهم في الآفاق وأطفأ نورهم وأقسم أنه لا يعطف أبدًا عليهم.

ومنهم أهل هذه الملة الطاهرة العالية الذين يقال لهم: المسلمون، يقولون: إن الله فردٌ دائمٌ لا شريك له ولا غالب، بل له الجبروت والملك الدائم لا ولد له ولا والد، وهو الرحمن الرحيم، الأول والآخر. وأن نبيهم فرض عليهم عن الله برّ الوالدين، والصوم والصلاة، والنقاء والطهارة، وحلّل لهم الطيّبات وحرّم الخبيثات، ووعد الجنة، وحذر النار.

فأي هذه الملل والأديان كان يُحبُّ أن يؤمن به ذلك الهندي والصيني؟

وإلى أيّها كان يركن؟ وأيها يستحسن إذا كان وافر الرأي سليم الطبع مريدًا للحق المحض لا غيره؟

أو ما حجة الله على عبد من عباده لو قال له -وهو العدل الرحمن الذي لا يظلم مثقال ذرة أحدًا-: إلهي إني سمعت مناديًا ينادي إلى توحيدك ويكبّرك ويحمدك ويمجّدك فأجبت، ورأيته يأمرنا بالإيمان بأنبيائك وأصفيائك، وفرض الصلاة والصوم والزكاة فأطعت، ورأيته قد قطع إربًا من آرابِي كرائمي وأحبابي فقطعت تأميلاً لما عندك وتذلّلاً لأمرك، ورأيته يحث على الحج من البلد الشاسع البعيد فحججت، وأتيت ثم ما ونيت.

ورأيته يحض على جهاد أعدائك الكافرين بك ودُعاءهم إليك، فدعوت وجاهدت وابتغيت بذلك كله وجهك فما نهنهت ولا مللت. ورأيت أديانًا ومِلَلاً مستنكرة مجهولة، على ما شرحت آنفًا، فأطرحت ذلك كله جانبًا وتبرأت منه، وتعلّقت بما ظننت أنه العروة الوثقى والمنهج الأقوم الذي يرضيك.

فإن كنت إلهي قد جهلتُ فيما اخترت وتياسرت عما نويت، فإنك أحق من رحِمَ عبده الذي استفرغ في طلب ما عندك جهده فأخطأ السبيل إليك.

فهذا يا بني عمي قولٌ مقبولٌ، وعذرٌ غيرُ مردودٍ، عند العباد المنقوصين المتعنتين. فكيف عند أرحم الراحمين أعدل الحاكمين الذي لا يُكلف نفسًا إلا وسعها؟

فتبينوا يهديكم الله هذه الْعِبَرَ والأمثال، وباينوا الأهواء المردية، وارفعوا عن أبصار غشاوتها وعن قلوب أكنتها وأقفالها.

واقتصروا من جميع الأبواب التي كتبت على باب النبوة فقط، أو على أخبار هؤلاء الأبرار من دُعاةِ النبي صلّى الله عليه وسلّم، أو على باب الغلبة الظاهرة التي كانت باسم إله إبراهيم، أو على هذا الكتاب الناطق وما له من الفضائل، التي قد بينتها من فوق، أو على تلك النبوّات، نبوة نبوة، وخبرًا خبرًا، وما شرحت من معانيها وتأويلاتها، واقبلوا مني، فقد محصت لكم نصحي، واعلموا أني لم أرد بما كتبت تفاخرًا ولا تكاثرًا، بل ما عند الله الذي لا يخيب راجيه، وما فيه من موافقة خليفته وعبده جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أيّده الله.

وأمّلت بذلك من خيار المسلمين وكرامهم، وعقلاء أهل اذمة وأماثلهم الشكر والمحبة، إذ كنت قد بيّنت لعوامهم ما استبنت، وكشفت لهم ما استبطنت، وأفهمتهم ما فهمت، ونويت مشاركتهم في النور الذي أوتيت، والفوز الذي أملت، فخير ذلك وربحه لي ولهم إن كنت أصبت، ومكروهه

على دونهم إن كنت أخطأت فيما قلت، أسأل العصمة ودوام التغميدية، وأعوذ من أسباب الغفلة، وأرغب إليه في إقالة العثرة، ولباس الستر والسلامة والعاقبة لي بما أملت منه عاجلاً وآجلاً فيما ألفت وقلت.

وقد تم في كتابي هذا الذي سميته كتاب الدين والدولة فساد اليهودية وبطلانها، ومخازي الثنوية والدّهرية وضلالها؛ ليتبين الناظر انكسارها وانكسافها كلها، وأن النور الساطع والإيمان الهادي هو الإسلام وحده.

ولله المنُّ على ما هداني، ثم لعبده وخليفته، جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، على ما ندبني له، واجترني وغيري من أهل الذمة إليه ترغيبًا منه وترهيبًا، واحتسابًا وحبًّا منه للناس كافة.

ولذلك صيّرتُ الباب الأول من كتابي هذا في وصف ما بلغه فهمي من مكارمه، وآثار نعمته، ورفق سياسته، ويمن دولته، وكثرة فتوحه، وما يجب على أهل الملّة والذمة من حبّه وطاعته وشكره.

والسلام على من اتبع الهدى، وألفَ التقوى، وأحبّ السّلامة والصلاح، وحرَّث لهما وحض عليهما»[321].

321: تَمَّ نسخ هذه النسخة في حلب سنة 1308.

وهذا بيانها: كتابُ الدِّين والدّولةِ في إثباتِ نُبُوةِ محمّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم لمؤلفه الحافظ المتقن العلامة النحرير: علي بن ربَّن الطبري رحمه الله تعالى، نُقِلَتْ هذه النسخة عن نسخة مكتوب عليها ما يلي: استكتب هذه النسخة المباركة، العديمة النظير، بالقسطنطينية المحميّة في سنة الألف ومائة وثمان وستين 1168 عن نسخة كُتبت قبل هذا التاريخ بخمسمائة واثنين وخمسين سنة 552 وقد نُقلت تلك النسخة عن نسخة المصنف، برسم الصّاحبِ جمال الدّين بن أبي المنصور، وقد كُتِب في ظاهرِ تلك النُّسخةِ: أن مؤلف هذا الكتاب كان نصرانياً، وكان في حال نصرانيته كاتبُ المازيار صاحب طبرستان، ولما أخذ المعتصم بالله المازيار على يد عبدالله بن طاهر، استأمن مؤلف هذا الكتاب، ثم أسلم على يد المتوكل على الله، وصار من نُدمائه، وألّف هذا الكتاب بإشارته، كما يشيرُ إلى ذلك في بعض عباراته.

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمدبن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبو زيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (فن المسبع)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (التغرود)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أهيون ترجمة:أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعر شعبي	محمد الراسبي
17	إشكاليات الشعر في المسرح الشعري	دراسات	رقية بنت سيفالبريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي
19	أدب الرحلات العمانية	دراسات	مريم الغافرية
20	مراثي زهرة الليمون	شعر	سالم بن عبد الله الحميدي

تابع إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
21	ورد اليتامى	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
22	روائح الفقراء	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
23	التشكيل الفني	دراسات	د.أحمد حالو
24	الشخصية الروائية	دراسات	كاملة بنت سيف الرحبي
25	يوم على تخوم الربع الخالي	قصص	خليفة العبري
26	فيض الإحساس	شعر	حبراس بن شبيط السمائلي
27	حكايات من التراث العماني	قصص	د. خالد بن سليمان الكندي
28	حكايات عمانية	قصص	-
29	غياب على شرود الظل	نصوص	مريم السيابية
30	حياة بين زمنين	رواية	سالم الجابري

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لألىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت سارة
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين
7	الأيام الثقافية العمانية في الأردن	فعاليات	جمع وإعداد: أزهار أحمد

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد القطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني
4	القرائن في التراث النحوي	دراسات	د. خالد بن سليمان الكندي
5	دولاب محمد	قصص أطفال	سميرة الخروصي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

الدين والدولة

تقوم فكرة هذا الكتاب على إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من خلال النصوص الدينية المتقدمة لدى أهل الكتاب ؛ بفرعيهم: اليهودية والنصرانية. بيد أن الغرض من تأليفه هو الرد على النصارى ، في اعتراضاتهم على ثبوت النبوة المحمدية.

لكن تلك الفكرة وهذا الغرض يصبحان ثانويين بالنسبة للقارئ المعاصر ، حيث سيكتشف في الكتاب ما هو أهم من ذلك.

سيجد في الكتاب الطبيعة النفسية للمؤلف خصوصا ، وللإنسان الذي عاش زمان المؤلف ومجتمعه عموما ؛ لاسيما المتحول من النصرانية إلى الإسلام ، وهو عصر كثر فيه -فيما يبدو- هذا التحول. يكشف الكتاب أيضا عن الحالة المعرفية والاجتماعية والسياسية لذلك الزمن.

خميس العدوي





ISBN 978-99969-55-40-2

